

مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

الإجابة

القرآن وأسئلتك الوجودية

د. هيثم طلعت



الإجابة

بسم الله الرحمن الرحيم



مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

الإجابة

القرآن وأسئلتك الوجودية

د. مهاب السعيد

الإجابة: القرآن وأسئلتك الوجودية

تأليف: د. مهاب السعيد

الطبعة الثانية: يناير ٢٠١٧

مقاس الكتاب: ١٧*٢٤

عدد الصفحات: ٣٨٨

رقم الإيداع: ٢٧١١١/ ٢٠١٥

الترقيم الدولي: ١-١٥-٦٥٤٥-٩٧٧-٩٧٨

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر (مركز براهين) وإنما عن وجهة نظر المؤلف.

مركز براهين للأبحاث والدراسات
أرقام المبيعات: ٠١٠٦٤٨٠٠٠٩٤(٠٠٢) – ٠١٠١٥٥٧٧٤٦٠(٠٠٢)
بريد المبيعات: sales@braheen.com
صفحات المبيعات: braheen_books braheen.bookstore

إهداء

إلى الإنسانة الأهم في حياتي، أمي الحبيبة التي وهبتني كل شيء، كانت وما زالت بالنسبة لي دائمًا مصدر الدفء والطمأنينة..

إلى أبي الغالي، الذي أحبه أكثر مما يظن، والذي هو قدوتي في كثير من مفاصل شخصيتي دون أن يعلم..

إلى زوجتي ومحبوبتي وصديقتي، والتي هي مصدر بهجتي، وقمري الذي يطلع كل مساء من نافذة الكلماتِ..

إلى أخي الأكبر المشاكس وأخواتي البنات الأربعة..

إلى معلمي الأول الذي همس في أذني أن أترك أثرًا قبل الرحيل..

وصديقي الأعز الذي قضى ليلة نابغيّة في مراجعة الكتاب..

ورفيقي المُفضّل صاحب اليوسفي..

وصديقي (الأنتيخ) القديم..

إلى رفاق دربي الثمانية..

المؤلف



«مركز براهين» لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هو مركز بحثي مستقل، يعمل كمؤسسة غير ربحية مرخصة في لندن بالمملكة المتحدة، ويُعنى فقط بالعمل في المجال البحثي الأكاديمي لتوفير إصدارات متعددة (كتابية - مرئية - سمعية) على درجة عالية من الدقة والموضوعية والتوثيق يسعى من خلالها لتحقيق رسالته.

• رؤية المركز: عالم بلا إلحاد.

• رسالة المركز: المساهمة النوعية في تفكيك الخطاب الإلحادي ونقد مضامينه العلمية والفلسفية وأبعاده التاريخية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية وبناء التصورات الصحيحة عن الدين والإنسان والحياة ومعالجة النوازل العقدية انطلاقاً من أصول الشريعة ومحكمات النصوص كل ذلك بلغة علمية رصينة وأسلوب تربوي هادف.

BRAHEEN
CENTER

for Studying Atheism
and Contemporary Issues of Faith

27 Old Gloucester Street, London,
United Kingdom, WC1N 3AX

• سياسة المركز: يعمل المركز بشكل أساسي على نقد أصول ومظاهر الإلحاد الحديث نقدا منهجيا، مع مراعاة البعد النفسي للمتلقين بمختلف فئاتهم، والحرص على تركيز النقد على الأطروحات الأساسية للخطاب الإلحادي الحديث. كما تنتهج مخرجات المركز أساليب الإفحام، والنقض، والدفاع وكذلك أساليب البناء والإقناع والهجوم وتقديم البدائل قدر الإمكان. وتنحصر مخرجات المركز بشكل رئيسي في ثلاثة مجالات عريضة: علمية، فلسفية، شرعية.

الموقع الرسمي: www.braheen.com

للتواصل والاستفسارات العامة: info@braheen.com

للتواصل مع المدير التنفيذي: ammar@braheen.com

فيسبوك: fb.braheen.com

تويتر: t.braheen.com

يوتيوب: y.braheen.com

انستجرام: i.braheen.com

مجرد مقدمة

هناك مثل إنجليزي قديم يقول:

"A jack of all trades is master of none".

أي أن من يتعاط حِرَفًا كثيرة، لا يُجِد شيئًا منها..! ويقابل ذلك عند العرب قولهم: "كثير الكارّات قليل البارات" والبارات هي الدراهم، أي أن من يعمل الكثير من المهن لا يملك الكثير من المال، باعتباره لن يجيد أيًّا منها.. بالطبع هذا لا ينطبق على بلادنا، ولا ينطبق على (عم جمال) حارس العقار الذي يمسح السيارات ويغير أسطوانة الغاز ويحمل الحقائب ويصلح السباكة ويجعلك تتحسر على راتبك كطبيب الذي بالتأكيد لن يتفوق على راتب عم جمال..

في المعرفة والقراءة هناك مثل لاتيني آخر يقول: "خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد"، بالطبع ترجمت المثل مباشرة ولم أنقل أصله لأني لو اكتشفت أن أحدًا ممّن سيقرؤون هذا الكلام يجيد اللاتينية بالفعل فسيتوقف قلبي رعبًا..!

خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد، لأنه ببساطة لن يكون رجلًا سهلًا على الإطلاق، هذا رجل أفنى حياته في قراءة تفاصيل هذا الكتاب (الذي سيكون كتابًا هامًا في العادة)، وأتقن كل معارفه.. كما كان يقول (بليني): "علينا أن نقرأ كثيرًا ولكن في كتب قليلة"..!

تشتهر هذه الهواية بين الكتّاب بشكل خاص، حيث إنه من أسهل طرق تنمية الكتابة هي العكوف على كاتب بعينه أو كتاب ما لحفظ وإجادة أسلوبه ومن ثم يبدأ من حيث انتهى هو ليضيف سماته الخاصة..

خذ عندك مثلًا (وليام جونز) البريطاني الذي كان يُتم قراءة أعمال (شيشرون) –أشهر خطباء روما القديمة– كل عام مرة..! لم يكن جونز هو المولع الوحيد بشيشرون، فحين سُئِلَ

(أرنو) الفرنسي عن أفضل وسيلة يمكن للمرء أن يكون فيها صاحب أسلوب جيد في الكتابة نصحه بالقراءة اليومية لأعمال (شيشرون) فقال له السائل: أنا أقصد الأسلوب الجيد في اللغة الفرنسية وليس اللاتينية، فقال له أرنو: "في هذه الحالة فإن عليك أن تقرأ أيضًا لشيشرون"..!

كان (ديموشينس) يستمتع بتاريخ (ثيوديوس) لدرجة أنه نسخه ثماني مرات بيده..! ومن جديد، لو كنتَ تعلم من هو ديموشينس أو ثيوديوس فسوف يتوقف قلبي أيضًا من الرعب.. وكانت كتب (ميكافيللي) لا تفارق يد (نابليون بونابرت)، وبنفس الحماس الذي جعل (بروتس) —الذي يعرفه كل واحد منا من عبارة يوليوس قيصر: حتى أنت يا بروتس— يقضي آخر ليلة له يلخص نسخة من (بوليبيوس) الذي كان يعشقه في الليلة التي سبقت معركته مع أوكتافيوس وأنطونيوس.. ويُقال أن (فولتير) كان يضع على مكتبه دائمًا نسخة من (أتالي) لـ (راسين)..

في تراثنا الإسلامي هناك نماذج أشد غرابة، فلدينا مثلًا كتاب (صحيح البخاري) الذي وقع في غرامه الكثير من المحققين الأوائل للدرجة التي تجعلهم يكررونه عشرات المرات، حتى كرره (سليمان بن إبراهيم اليمني) ١٥٠ مرة، وكرره (أبو بكر بن عطية) ٧٠٠ مرة..!

حتى في غير كتب السنة وقع مثل هذا الغرام، مثلًا (المزني) ظل ينظر في كتاب (الرسالة) للشافعي خمسين عامًا، بينما درس (ابن تبان) كتاب (المدوّنة) ألف مرة..! وأما (أحمد بن عمر اليماني) فقد اشتُهِرَ بمعرفة كتاب (الوسيط في الفقه الشافعي) للغزالي، حتى كان يعرف أين مكان المسألة فيه، وفي أيِّ صفحة هي، بعد أن أُصِيبَ بالعمى..!

لو كنت قد ضقت ذرعًا بهذه المبالغات التي لا تكاد تُصدّق في عشق الكتاب الواحد، فدعني أزيدك من الشعر آخر بيت، حين أذكّرك أن هناك من هؤلاء من تغيّرت أسماؤهم بالكامل تبعًا لهذا العشق، فـ (جمال الدين الأشمومي) صار اسمه: (الوجيزي) من كثرة عنايته

واهتمامه بكتاب (الوجيز في الفقه الشافعي) للغزالي، ولُقِّبَ (الزركشي) بـ (المنهاجي) نسبةً إلى (منهاج الطالبين) للنووي، بينما عُرِفَ (محمد بن سليمان محي الدين) بـ (الكافيَجي) لكثرة اشتغاله بـ (الكافية) في علم النحو..!

هؤلاء وأولئك من محبي الكتاب الواحد قد اختاروا طواعيةً ألا يلتفتوا للكثير من الكتب، وآمنوا من داخلهم أنه ليس كل ما هو مكتوب فهو جدير بالقراءة، تلك القاعدة التي نتعلمها نحن بالطريقة الصعبة حين نفني الكثير من أعمارنا في قراءة الهراء، وحين نتابع بشغف المهاترات الموسمية التي تنتهي بمرور الوقت وتفنى معها الأعمار والهمم..

في أحد أعداد مجلة (المختار) التي كانت ترجمة لمجلة (Reader's Digest) الأمريكية (أعلنت هذه المجلة إفلاسها منذ سنوات قليلة) كتب أحدهم مقالًا تافهًا لا يحوي أي شيء ذي قيمة طالبًا من قرّائِه أن يتجاهلوا هذا المقال..! من فضلك لا تقرأ هذا المقال، فهو لن يفيدك بأي شيء.. كذا ظل الكاتب طوال المقال يذكر قرّاءَه، واعتبر نفسه قد فشل إن استطاع أحد بالفعل في الوصول إلى آخره.. معنى أنك قرأت هذا المقال لآخره، أنك لن تستطيع أن تتجاهل أي شيء مقروء.. بمعنى آخر أنت قد ضعت يا صاحبي وسط ملايين العناوين المطبوعة التي لا تعنيك بشيء..!

على أن اختيارك للكتاب الواحد هذا قد يعني نجاحك أو فشلك المعرفي في الحياة، فلا أظن أنك تحب أن تفني عمرك في دراسة وتحليل أحد مجلدات (ميكي) مثلًا..! وعلى ذكر (ميكي) عليك أن تتذكر أيضًا أن (هوي ودوي ولوي) —أو (سوسو ولولو وتوتو) كما نعرفهم نحن في مصر— كانوا يملكون كتاب (الكشّافة) الذي يحوي كل شيء وكل سر في الحياة، من جديد فإن ثقافة الكتاب الواحد تتكرر في الوعي الإنساني بأبسط صور هذا الوعي: قصص الأطفال..!

مقوّمات اختيار هذا الكتاب نحتاج إليها فقط حين تكون البدائل متكافئة ومحيّرة، أما

عند عدم تكافؤ هذه الاختيارات، وعند وجود الفجوة العملاقة بين إحداها والبقيّة، فإن ذكر مقومّات الاختيار وطرائقه يعتبر ضربًا من المزاح الثقيل، أو السخرية المقنعة.. إنه وكأني أحاول إقناعك أن وجبة اللحم المشويّة ذات الرائحة النفاذة والطعم الشهيّ أفضل من شطيرة الفول البارد التي أعدها لك (عم أشرف) بأصابع متسخة على عربة مهترئة في شارع يغرق في مياه الصرف..!

عند هذا التفاوت الكبير في الاختيار يتحول الأمر من عملية (ذوق) و(اجتهاد) إلى عملية (صواب وخطأ)، الأمر لم يعد راجعًا إليك في تحديد كتابك الواحد الذي ترغب به، الأمر صار اختبارًا لك عمّا إذا كنت ستنجح في اختيارك لهذا الكتاب تحديدًا أم لا..

وحين نتحدث عن القرآن الكريم، فإننا –لا شك تعلمون– لا نستطيع أن نضعه في مقارنة مع أي كتاب آخر، إذ إن القرآن كلام خالق الكون، إرشادٌ من الحكيم، إخبارٌ من علام الغيوب، تزكيةٌ من الحي القيوم، تربيةٌ من رب العالمين، ورسالته إلى ساكني هذا الوجود المترامي الأبعاد.. كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ (النمل ٦).. القرآن ليس فقط الاختيار الصائب لكتابك الواحد ولكنه المفترض أن يكون هو الاختيار الوحيد..!

والقرآن هو الكتاب الأمثل لفكرة الكتاب الواحد أيضًا، فلو كان هناك كتابٌ يغني عن بقية الكتب فهو قطعًا هذا الكتاب المعجز: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (العنكبوت ٥١).. إن المتبحّر في علوم القرآن هو أولى الناس بالتحذير اللاتيني: خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد..!



أريد أن أنتقل بك –اسمح لي– إلى منطقة أخرى من مناطق تقديمي لهذا الكتاب.. هل سبق لك أن شعرت أن هناك سؤالًا ما أو مجموعة أسئلة تشعر وكأنها أقرب لشفرة

موحّدة قد بُرمجت عليها كل الكائنات البشرية..؟؟

لا أقصد طبعًا الأسئلة التي سألناها كلنا ونحن صغار مثل: لماذا السماء زرقاء..؟ لماذا يجب أن أذهب للمدرسة..؟ لماذا تحب سلاحف النينجا البيتزا إلى هذا الحد..؟ فصحيح أن هذه الأسئلة يشترك في الحيرة بشأنها كل البشر إلا أن دافعها الفضول وليس أكثر..

ولكني أتحدث عن نوعية الأسئلة الوجودية التي تتعلق بفهمنا للواقع الذي وجدنا أنفسنا فيه فجأة..! تلك الأسئلة التي وجدنا أنفسنا مغموسين فيها دون أن ندري.. حيث انزلق وعينا الإنساني الذكي بشكل مفاجئ من ذلك العالم الساكن الغامض الذي كان يحيا فيه حين لم نكن بعد شيئًا مذكورًا إلى عالم مادي واقعي تمامًا يمكننا فيه أن نشعر بهواء البحر، وبطعم الحلوى، وبرائحة الأزهار، وبصوت منبهات السيارات في الشارع المزدحم.. ونشعر أيضًا فيه بمذاق الجمال، وبدفء الحب، وبرهبة العجز وألم الخيانة..

وجدنا أنفسنا في عالم مادي أقل غموضًا مما يبدو في أذهاننا السريالية المليئة بالمعاني المجردة، مع وعي فريد أكثر تعقيدًا ممّا تحتاجه المتطلبات الحياتية..! حينها بدأنا نتساءل: من أين أتينا..؟ وإلى أين سنذهب..؟ ترى ما المصير..؟ ترى من أوجدنا..؟ ترى ماذا يريده منا..؟

ثم قد تتخذ هذه الأسئلة طعم الاحتجاج أحيانًا..! لماذا رسبت في الاختبار ونجح زميلي..؟ لأنني اخترت ألا أذاكر.. إذًا لماذا أنا أقصر منه طولًا..؟ هل اخترت أنا أيضًا كذلك..؟ إذن هناك من الأشياء ما أختاره وهناك ما لا أختاره..!

هذا يذكرنا في الواقع بإحدى رباعيّات (صلاح جاهين)، المكتوبة بالعامّية المصرية:

نظرت في الملكوت كتير وانشغلت.

وبكل كلمة (ليه؟) و(عشانيه؟) سألت.

أسأل سؤال، الرد يرجع سؤال.

وأخرج وحيرتي أشد مما دخلت.

وعجبي!!



نحن إذن في هذه الأسئلة أمام اختبار مفتوح المدة، أسئلته مشتركة تمامًا في معظمها.. ولكن هناك اختلافات يسيرة فيها تبعًا لكل طالب، حيث إنك ترى أنه في النهاية كل منا لديه أسئلته الخاصة، ولربما يستعصي عليه شيء يكون يسيرًا جدًا على بقية الزملاء، ولربما العكس..!

هذا الاختبار هو أقرب لنوع الاختبار المفتوح، حيث يمكنك أن تدخل إلى لجنة الامتحان بكل ما تشاء من الكتب والمراجع والملخّصات.. ذلك النوع من الاختبارات الذي يهدف إلى اختبار فهم الطالب للمعلومة وكيفية تطبيقه لها على الواقع، وليس قدرته على الحفظ والاسترجاع.. لم نعرف هذا النوع من الاختبارات في تعليمنا المجاني على كل حال، حيث قد يكون مستقبلك مهددًا بالخطر لو لم تستطع تذكّر السبب الذي كان من أجله يحب طه حسين أن يأكل البليلة..

على أن هذا النوع من الاختبارات ليس جنة للطالب، فبحسب دراسة أعدتها جامعة (نيو ساوث ويلز) في أستراليا: (UNSW)، فإن أكبر الأفكار الخاطئة التي يحملها الطلاب نحو الاختبار المفتوح هو أنهم ليس عليهم الاستذكار له، وأنه قطعة من الكعك في السهولة.. بينما الأمر ليس كذلك على الإطلاق..!

أوضحت الدراسة أيضًا أن الطلاب الذين لا يستذكرون قبل الاختبار المفتوح يعانون من مشكلة متكررة وهي عدم قدرتهم على إيجاد المعلومة داخل الكتاب أصلًا.. للدرجة التي

تجعلهم يظنون أن المعلومة المراد الوصول إليها لا علاقة لها بموضوع الكتاب الذي دخلوا به إلى اللجنة، مع شعور بأنهم قد خُدِعوا..!

المسألة بسيطة.. أنت بالفعل لا تحتاج إلى أن تحفظ الكتاب عن ظهر قلب، ولكنك تحتاج كي تصل إلى ما تريده منه أن تفهمه فهمًا كاملًا وأن تكون قراءتك فيه متكررة وواعية ودقيقة.. فبالرغم من أنك لن تحتاج إلا إلى كتاب واحد —وقد سبق وشرحنا أهمية أن يكون لك الكتاب الواحد— إلا أن تناولك لهذا الكتاب يجب أن يكون مختلفًا حتى تحصل منه على كل أجوبة أسئلتك..

حتى لا تقع في الخطأ المتكرر الفادح وتخرج لتقول أن القرآن ليس فيه الجواب..!

بل أنت حينها فقط قد رسبت في الاختبار..!

تفاصيل وأسرار

(هي في الواقع مقدمة ثانية، ولكني أدعي العكس!)

امتلأت الثقافة الشعبية الغربية بقصص ألواح التوراة، وصارت مادة خصبة للخيال في نسج الأساطير حولها، نحن أمام الكتاب الوحيد الذي تواتر للبشر نزوله من السماء مكتوبًا كما هو، هذه قدسية خاصة بالتأكيد..

تحدثوا عن أن هذه الألواح تحتوي أسرار المخلوقات الأخرى الغيبية من غير البشر، أو أنها تحدد بوضوح موعد القيامة، وأنه ليس لأي أحد أن يقرأها..

ربما كانت من هذه المبالغات الخيالية ما وصل إلينا عن بعض التابعين من أخبار إسرائيلية واضحة أن هذه الألواح كانت تزن سبعين بعيرًا وأنه لم يطلع عليها إلا أربعة منهم موسى وعيسى عليهما السلام..

الله أعلم بحقيقة هذه الألواح، إلا أن أقل ما يمكن أن نتفق عليها أنها بالفعل مميّزة..!

مما ذُكِرَ لنا في القرآن من ميزاتها هي أنها تحوي تفاصيل كل شيء، كما قال ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ١٤٥).. حتى قيل إنها كانت سبعة أجزاء رُفِعَت ستة منها لما ألقاها موسى عليه السلام في لحظة غضب حين رأى قومه يعبدون عجلًا سمينًا لمجرد أنه له خوار..!

قيل إن هذه الأجزاء الستة كانت تحوي تفاصيل كل شيء فعلًا، وإنما بقي السبع الأخير فقط الذي يحوي المواعظ والأحكام.. على أن الأرجح عند الكثير من علماء التفاسير أن هذا غير صحيح، لقد بَقِيَت ألواح التوراة كاملة مع موسى عليه السلام، وكانت تحوي تفاصيل كل شيء بالفعل كما ذكر القرآن، ولكن ليس بالمعنى المتبادر للذهن من كلمة (كل شيء)، بل المقصود كل ما ينفع بني إسرائيل من المواعظ والأحكام..!

على هذا المعنى فالقرآن الذي بين أيدينا يحوي كل شيء أيضًا، بل وأكمل وأنفع.. اللهم إلا أنه قد يكون أقل في تفاصيل تقرير الأحكام التي جعل الله ﷻ لنا فيها مجالًا

للاجتهاد في أمة محمد ﷺ لم يكن موجودًا مثله عند بني إسرائيل، وهذه رحمة لا شك مهداة إلى الأمة التي ستبقى حتى آخر الزمان بكل ما يشهده آخر الزمان من تغيرات وتطورات تستدعي الاجتهاد وتستدعي عباءة الأحكام الواسعة التي تدل على أن هذه الأمة قد أوتيت بالفعل مع كل عسر يُسرَين..

١٣٦ مرة هي عدد مرات ذكر اسم نبي الله (موسى) عليه السلام في القرآن.. ورد ذكره في ٣٤ سورة من القرآن..! أي تقريبًا ثلث سور القرآن.. ومع ذلك أنت لا تستطيع أن تعرف إن كان له من الإخوة أحد غير هارون وأخته التي راقبته من بعيد.. لا تستطيع أن تعرف إن كان وُلِدَ له من الأولاد أحد، أو عمّا إذا كان غنيًا أو فقيرًا.. لا تستطيع أن تعرف ماذا كانت مهنته بعد أن خرج من مدين، أو ماذا كان لباسه المفضل، أو كم تزوّج من النساء..

القرآن يعلمنا إذن أن نحرص على ما ينفعنا، وأن الله يحب من الأمور معاليها ويكره سفاسفها، وأنه من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه..!



في الكتب التي نكتبها نحن البشر توجد علاقة عكسية بين كثرة التفاصيل وبين الإثارة والمتعة والتشويق.. فكلما كان المقال غارقًا في التفاصيل كان هذا معناه أنه مثير للملل.. ربما لهذا السبب تشيع في الأدب السياسي ظاهرة الـ Time lapse حين يحلل الأديب السياسي ظاهرةً ما باستخدام المرور السريع على الأحداث، بينما في علم التحليل السياسي يشيع الـ Slow motion أكثر، حين يقوم المحلل السياسي بالوقوف بك على نقطة زمنية ولا يتزحزح عنها عدة عشرات من الصفحات لتصاب أنت بنوبة ملل عصبية وتموت..

لا توجد هذه المفارقة قطعًا في كتاب الله عز وجل، فهو يحوي كافة التفاصيل التي نحتاج إليها: ﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (يوسف ١١١).. في كتاب من مجلد واحد من سِتُّمِئة صفحة يمكنك أن

تقرأه كاملًا في عدة أيام، بل ويمكنك أن تزور أصغر قرية من قرى بلدكم لتقابل الأطفال الذين لا يعرفون بعد كيف يقسمون بالعدل أربع برتقالات على اثنين، وبرغم ذلك يحفظون هذا الكتاب المعجز عن ظهر قلب، لا يتعثر لسانهم ولا تتداخل حروفه ولا تشتبه آياته على عقولهم التي لما تنضج بعد..! وهذا لأنه: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر ١٧)..!

هذه التفاصيل القرآنية تتميز بالعزة حيث لا تظهر لأي أحد..! وبمنطق شبيه بلوحات متحف اللوفر التي نراها أنا وأنت فلا نفهم ما المثير للإعجاب في هذه اللوحة التي تحوي على ما يبدو قرصًا غير مكتمل من (الفلافل) يحيط به فطر عفن الخبز، قبل أن نسمع الخبير الفني بجانبنا يصيح بانبهار من الطريقة الموجزة التي شرحت بها هذه اللوحة أزمة الإنسان الحديث في المتطلبات الروحانية..! على ما يبدو تبين أن قرص الفلافل هي عجلة الوجود وعفن الخبز كان عفنًا حقيقيًا..! ربما الفرق بين موضوعنا وبين هذا المثال أنني حين أحدثك عن إجابات القرآن المخفيّة فأنا لا أحتال عليك بخلافهم..!

لذلك قد تجد –لعجبك– أن هذه التفاصيل قد تكون داعيًا للجدال أو للكفر أو للنفور عند البعض..! كما قال ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا**﴾ (الإسراء ٤١).. ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا**﴾ (الإسراء ٨٩).. ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾ (الكهف ٥٤)..

فبالرغم من أنه كتاب لا يدخله الشك أو الريبة أو الاستثناءات إلا أنه لا ينتفع به حقًا أو يهتدي إلا من يستحق: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (البقرة ٢).. فالانتفاع (الكامل) بكتاب الله ﷻ لا يكون إلا للمؤمنين به ﷻ..!

على سبيل المثال تكثر في القرآن قصص الأنبياء التي لن ينتفع بها أحد بطبيعة الحال

بقدر ما ينتفع المؤمنون، حينها يستطيعون أن يفهموا سنن الله ﷻ المبثوثة في هذا التاريخ المحفوظ في كتابهم المطَهَّر.. لذلك انظر إلى تخصيص المؤمنين بالنفع من القصص القرآني في آخر هذه الآية: ﴿**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (هود ١٢٠).. لأن من لا يؤمن بالقرآن سيعتبر هذه القصص من البداية ضربًا من الخيال البشري وسيتعامل معها كما نتعامل نحن مع الميثولوجيا الإغريقية التي تتحدث عن رأس ميدوسا ونهر الموتى والحصان المجنّح الوفي: مصدر تسلية فقط مع بعض منثورات الحكمة..!



ولكن بهذا المنطق فجمهور القرآن سيكون من المؤمنين فقط..! إذن ما تكون وظيفة القرآن..؟! أليس هو المعجزة التي أوتيها النبي ﷺ..؟ أليس هو كلام الله ﷻ الذي يسمعه الجميع فيعرف من يريد الله أن يهديه منهم أنه ليس بكلام البشر..؟!

ذكرني ذلك بصورة وجدتها على الانترنت تظهر كيسًا عملاقًا ومكتوب عليه بحروف كبيرة: سكر، ومكتوب عليه بالأسفل بخط صغير: خالٍ من السكر..! إذن ما الذي يحويه هذا الكيس الغامض..؟! هل رأيت من قبل من يحذّر مرضى الحمى الروماتيزمية من تناول الأسبرين..؟ أو يمنع مريض السكر من حقن الأنسولين..؟ سيحوز هذا على جائزة أفشل طبيب في العصر الحديث.. الدواء إنما صُنع لاستخدام المريض، فكيف تخبرني أنه لن ينتفع به..؟!

بالمثل فإن الله ﷻ قد وصف هذا القرآن بأنه شفاء، فقال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**﴾ (يونس ٥٧).. والمريض هو أولى الناس باستخدام الترياق، فلا تخبرني أن الكافر لن ينتفع به، بل الحقيقة أنه لا يوجد ما هو أكثر نفعًا له من هذا الترياق، فكل ما سواه سيكون أقل منه، أنقص منه، أضعف بما لا يقاس،

كما قال ﷻ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (المرسلات ٥٠).. أي: بأي شيء آخر تراهم ينتفعون بعد هذا القرآن..؟؟ الإجابة: لا شيء..!

لذلك فلا عجب من أن نجد أن مهمة النبي ﷺ الدعوية تكاد تكون اقتصرت على تلاوة القرآن وتبيينه للناس..! ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (النمل ٩١-٩٢)..

ليس هذا معناه أن مجرد وقع الكلمات لها تأثير سحري على الناس، وإن كان هذا موجود بالفعل لدى الكثيرين حتى بين غير الناطقين بالعربية منهم.. إلا أن حجة الله ﷻ على عباده لا تقوم بمجرد وصول الألفاظ المجردة، ولكن بفهمها أيضًا، فنحن لا نتحدث عن تعاويذ سحرية مثل تعاويذ التحكم في قصص هاري بوتر، وإنما عن معانٍ حكيمة تشتمل على رؤوس الحجج العقليّة والمحاجات المنطقية مُدمَجة بالأحاديث العاطفية التي تمس حاجة الإنسان من الداخل ويشعر بأنها تفهمه وتجيبه دون أن يسأل، ويشعر أنه مرحّب به كضيف أتى من بعيد في بيت دافئ وسط صحراء الحياة الجرداء في ليلة باردة..

في حالة القرآن فأنت تقوم مع الكافر أو الحائر أو المسلم المتشكك أو الباحث عن الجواب (وفي هذه الحالة فإن هذا الشخص قد يكون أنت) بمهمة تهيئة جهاز المذياع الملتَقِط لموجات الراديو، أنت لا تتدخل في هذه الموجات لتغيّرها حتى تلائم طبيعة أحد، ليس لك أن تفعل ذلك، ولا يحق لك أن تتحرج مما جاء فيها أصلًا: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ (الأعراف ٢).. أنت تقوم بضبط جهاز الاستقبال للآيات الحكيمة القادمة بوقار من السماء، تشرح أنت معنىً مبهمًا، توضح لفظًا مشكلًا، تتخير من الآيات ما هو أنسب لحاله، تتخير من الحجج ما يجيب على سؤاله، ثم تترك المجال بعد ذلك لتلك المعجزة أن تقوم بأثرها.. فإن كان الله يريد أن يهديه فمن تراه سيمنع عنه ذلك..؟!

ما سبق من الكلام يمكن أن نستخلصه في أن القرآن حجة سماعية ملزمة للمؤمن إذا قيل له: قال الله كذا، قال سمعنا وأطعنا، هذا هو ما علينا أن نتوقعه من المؤمن.. وأما الكافر فلنا أن نتوقع ألّا تمثل له آيات القرآن إلزامًا في طاعته، ولكن سيبقى القرآن حجة عقلية كاملة عليه هو أيضًا، وستبقى حجج القرآن العقلية مطلقة القوة والجلاء، يختبر الله ﷻ بها العباد، أيهم يستمع الهدى فيتبعه، وأيهم يتبع هواه..! ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (الزمر ١٧–١٨)..

القرآن فيه تفصيل كل شيء للحائر عن الجواب..

فيه الهداية والإرشاد للباحث عن التقوى والرشاد..

فيه الشفاء لمن به مرض عضال..

فيه الكفاية للسائل عن الحجة..

أخبرني إذن... من أنت من هؤلاء؟ وأتيت هنا تبحث عن أي شيء؟؟

حين يتكلم الإله

(هي في الواقع مقدمة ثالثة، ولكني أحاول خداعك!)

أجديدٌ أم قديمٌ أنا
في هذا الوجودْ؟
هل أنا حرٌ طليقٌ
أم أسيرٌ في قيودْ؟
هل أنا قائدُ نفسي
في حياتي
أم مقود؟
أتمنّى أنني أدري
ولكن
لست أدري!

وطريقي ما طريقي
أطويلٌ أم قصير؟
وهل أنا أصعد
أم أهبط فيه أم أغور؟
أأنا السائر في الدرب
أم الدرب يسير؟
أم كلانا واقفٌ
والدهر يجري
لستُ أدري!

أتراني قبلما أصبحتُ

إنسانا سويًا
أتراني كنت محوًا
أم تراني كنت شيئًا؟
ألهذا اللغز حل
أم سيبقى أبديًا؟
لست أدري،
ولماذا لست أدري؟
لست أدري!

الأبيات السابقة هي جزء من (الطلاسم) لـ إيليا أبو ماضي.. ذلك الشاعر الموهوب الحائر الذي ظل ينقّب عمدًا في المكان الخطأ عن أجوبة أسئلته.. هي في الواقع أسئلتنا كلنا ولكنه أجاد التعبير عنها في قصيدته الشهيرة، أجاد أن يخرج الحالة العائمة التي يشعر بها الإنسان حين يواجه بنفسه الضئيلة بحرًا من الحيرة والشكوك..

ذكرني ذلك بزعيم المافيا الحقيقي الذي اتصل بالممثل الذي قام بتمثيل دوره في أشهر أفلام المافيا ليشكره على أدائه المشرف..! حتى أن هذا الممثل يقول: "تعرفت على بعض من أعضاء المافيا الإيطاليين، وكلهم قالوا أنهم أحبوا أني أديت الدور بتحدٍّ وأنفة، وهكذا حتى اليوم عندما أكون في إيطاليا فإنني لا أستطيع أن أدفع شيكًا وإقامتي هناك تكاد تكون مجانية".. حاز هذا الممثل على جائزة الأوسكار عن نفس الدور، لكنه اعتبر هذه التزكية من هؤلاء المجرمين هي أكبر جائزة وتقدير لموهبته التمثيلية..!

أن تجد ما يعبر عما بداخلك تمامًا أو يفهم ما تريد قوله.. هذا هو الغرض الحقيقي لكل قارئ للأدب في العالم، ولعل شهرة (دستويفسكي) الروسي لا تنبع من متعة رواياته

المعقدة بقدر ما تنبع من قدرته الفائقة على وصف الحالة النفسية لأشخاص رواياته، تشعر أن هذا الأديب يصل إليك بالفعل، وهي الكلمة التي يفضل النقاد الأمريكيين إطلاقها على من يعجبون بعمله الأدبي فيقولون عنه: "He gets you"..!

لقد خُلقنا على هذه الحالة..! مجموعة من المشاعر المعقدة المتداخلة التي تزورنا بين الحين والآخر.. القليل منّا يجيدون التعبير عمّا بداخلنا وهؤلاء يصيرون أدباء، والقليل منّا يجيدون دمج هذه الحالة الشعوريّة بطبيعة الحياة من حولهم وهؤلاء يصيرون فلاسفة، والقليل منّا يجيدون فهم هذه المشاعر وتحليلها وتفكيكها وهؤلاء يصيرون علماء وأطباء نفس، والقليل منّا لا يجيد أن يسيطر على هذه الحالة المتداخلة ولا يقدر على أن يكبح جماح عقله السابح في الملكوت، وهؤلاء على الأرجح هم نزلاء الآن في أحد مراكز العلاج النفسي..!

على أن أكثر الناس لا يهتمون بهذه الرفاهية..! ولا يكون لديهم الوقت أو الفراغ النفسي الكافي للبحث عن الطنين النفسي الذي يعتريهم، هؤلاء هم الذين يجرون خلف لقمة العيش في جد وإصرار ولا يريدون من دنياهم إلا الكفاف، حينها ينظر هؤلاء للأصناف الأربعة السابقة نظرة استخفاف، بالتأكيد هم يفكرون أن أمهات هؤلاء تنفق عليهم فيجلسون طوال اليوم ليأكلوا اللحم ويقضوا وقتهم في الهراء..!

هذا الاختلاف بين البشر ليس في ترجمة حالاتهم النفسية فقط، ولكن أيضًا في أنواع هذه الحالات..! لذلك أجهد علماء النفس أنفسهم في تصنيف شخصيات البشر.. خرجت نظريات تؤكد على التصنيف البيولوجي لطرائق التفكير..! فقالوا لك أنك تفكر بعقلانية لأن نصف مخك الأيسر أنشط من الأيمن وزميلك يفكر بتلقائية وتحرر لأن النصف الأيمن هو الأقوى..! وهذا هو السبب في كونك لا تستطيع أن تنام لأنك لم تحسم أمرك بعد في عدد الساعات الكافية لك في النوم كي يمكنك أن تواصل عملك في الغد بجد ونشاط، بينما صديقك لا يستطيع أن ينام أيضًا ولكن لأنه يريد بالفعل وبدون سبب واضح

أن يتأكد من (الويكيبديا) إن كانت البطاريق لديها ركبة أم لا..!

هناك نظريات أخرى تصرّ على أن البيولوجيا لا تتحكم في اختلاف الطبائع إطلاقًا وإنما البيئة هي العامل المؤثر الحقيقي على تلكم الاختلافات، حينها يمكننا أن نقسّم البشر إلى أربعة أقسام، أو ثمانية، أو ستة عشر... إلخ.. وهكذا تتوالى النظريات التي تحاول الإمساك بتصنيف مناسب للبشر، وبغض النظر عن النظرية الأصوب والأكمل فيها، فإننا في النهاية ندرك أنه مهما كثّرنا من عدد التصنيفات، يبقى البشر أكثر تعقيدًا وتنوعًا من أن تستطيع إحاطته بعدد معين من الأنواع، نحن –وعلى المستوى النفسي الوجداني– مختلفون جدًا..! وهذا لأنه ببساطة كل منا يملك عالمًا كاملًا بداخل رأسه، يعرفه ويألفه ولا يتخيل له أي عالم آخر..!

الآن المطلوب منك أن تتحدث مع هؤلاء جميعًا بحديث واحد ويصل إلى كل واحد منهم وصولًا كاملًا، ليشعر أن هذا الحديث موجه له هو دون باقي البشر.. هل تقدر..؟؟!

الله ﷻ بالطبع يقدر..

والأسلوب القرآني مناسب تمامًا للإجابة عن أسئلتك الوجوديّة..

تعالوا نتحدث عن اثنتي عشرة نقطة فقط كي نفهم هذا..!

١- أفَضّلُهَا هكذا..!

عنوان غريب بالفعل..! أقصد به أن الإنسان الذي خلقه الله ﷻ له تفضيلات خاصة فيما يتعلق بالتقديرات والنصيب والحظوظ، نريد أن نأخذ كل شيء، لا ندع للناس شيئًا.. تجد القرآن يفهمك حينها وتفهمه حين يقول ﷻ: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**

أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال ٧)..

نودّ دائمًا أن غير ذات الشوكة تكون لنا، لا نريد أن نشعر بأقل خطأ في الخطة المثاليّة التي نضعها لأنفسنا، حتى في أبسط الأشياء..! ربما هذا هو السبب الذي من أجله يرغم الآباء أولادهم على دخول كلية لا يحبونها لأنهم كانوا يحلمون بها لأولادهم منذ طفولتهم..

وربما هذا هو السبب في أننا نسعى إلى الحلول السهلة غير المكلّفة من الجهد شيئًا، فالإقبال على أدوية إنقاص الوزن أكبر دائمًا من الرياضة، والإقبال على شركات التسويق الشبكي –في مجدها– أكبر بالطبع من البحث عن عمل.. وربما هذا هو السبب في أن معظمنا يتجاوز الدعاء الذي يُروَى عن النبي ﷺ: "اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين"..!

لا نحب لأنفسنا أن نُبتلى ولا أن نذوق طعم الاختبار ومرارة الفقد، وهذه طبيعة بشريّة لا إشكال فيها حتى إن النبي ﷺ نفسه هو من يأمرنا أن نسأل الله العافية، وألا نتمنى لقاء العدو..! النص القرآني يفهمك وتفهمه حينها عندما يقول الله ﷻ: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ (يونس ١٠٧).. فحين سمعت (سيرة) الضرّ كان تفضيلك: أريده أن ينكشف، وحين سمعت (سيرة) الخير كان تفضيلك: أريده ألّا يُردّ..!

٢- المادّية والتجريديّة..!

أظن أن أطوار عمر الإنسان من الطفولة للشباب للشيخوخة تمر على مراحل مختلفة من مقادير ونسب متفاوتة من تركيب الطبيعة المادية والتجريديّة فيه.. في الأطفال مثلًا نجد أن طبيعتهم المادية مهزومة ومتهالكة أمام العاطفة، لذلك لا يرى أي طفل أنه يكذب على أبويه حين يخبرهم أن له صديق يدعى (بهلول) وله أربعة عيون وثلاثة أرجل ويعيش معه في

نفس الغرفة ولكن لا يظهر إلا له، هو في الواقع لا يكذب فعلًا، هو تخيّل وجوده، وكان هذا في نظره سببًا كافيًا جدًا لأن يؤمن أنه موجود بالفعل.. في المقابل يواجه أزمة في فهم لماذا والده حزين ومكتئب لأنه ليس معه مال كافٍ للإنفاق.. ما المشكلة ألا يكون مع والده مال طالما هم يحبون بعضهم البعض..؟!

في مرحلة الشباب والكهولة يغلب الظهير المادي أكثر ويمسك هو بزمام الأمور ويردف أخاه التجريدي خلفه، لذلك فالعمل والإنتاج أهم بالطبع من زيارة الأهل والاطمئنان على الأقارب، ولذلك أيضًا يمكنه أن يفسد أيامه بالاكتئاب لأن راتبه ضئيل فلا يتسنى له أن يلاحظ أن ضحكة ولده الرفيعة بديعة بالفعل..

ربما تكون أكثر المراحل اتزانًا هي مرحلة الشيخوخة حيث يصير الرجل قادرًا على الاستمتاع بوقت فراغه متأملاً في هدوء في سنن هذه الحياة، لكنه لا ينسى أبدًا آلام ظهره التي تذكره باستمرار بطبيعته المادية التي تنتمي إلى هذا العالم..

يأتي النص القرآني ليخاطب شخصية الإنسان المادي/تجريديّة بشكل متزامن مترابط بديع..! كما يقول مثلًا ﷻ: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۞ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ**﴾ (الشورى ٣٢-٣٤).. جعلتك الآية تفكر في أن جريان السفن بفعل الريح هو ما جعلك تعبر طرفي الأطلسي في أمان وسرعة، هناك قائمة كبيرة من القوانين الفيزيائية المادية تمامًا تفكر فيها الآن..! قانون الطفو الذي جعل الماء يتحمل كل هذا الثقل على ظهره لأنه قد أزاح كمية ماء مساوية..! قانون الجاذبية الذي جعله يستقر على ظهره أصلًا بدلًا من أن يتابع رحلته إلى (الأتموسفير)..! قانون الحركة، ودوران الرياح بفعل اختلاف المناطق المناخية، والقصور الذاتي، والديناميكا الحرارية، وبقاء الطاقة.... إلخ

وقبل أن تنتهي الآيات تنبّه الجزء العاطفي بداخلك أن الله الذي خلق هذه الأشياء

وأجرى هذه القوانين، قادر تمامًا على إيقاف كل هذه القوانين وتعطيلها أو عكسها، أو أن يُجرِي عليها لائحة أخرى من القوانين التي لن تكون في صالحك.. فتظل راكدًا على ظهر البحر، أو تغرق إلى القاع بسبب ذنوبك التي ما تبت منها ولا استغفرت..

أنت حينها شعرت بالخوف من الله ﷻ، شعرت بالرهبة من مقامه، شعرت بإجلال عظمته، شعرت بالامتنان والشكر للإله الحليم الذي يعلم ما فعلتَه البارحة وبرغم ذلك جعلك تمرّ بسلام..

لقد تمت المهمة بنجاح إذن..!

تم حث هذا الإنسان على التفكير باستخدام شقّي طبيعته المختلفين بعد أن تعلما أخيرًا في ظل النص القرآني كيف يفكرا معاً ليصلا إلى نفس النتيجة: الافتقار إلى الله..!

٣- فقط، انظر بجانبك...!

تفتخر بضعة شركات كبيرة منهم شركة (رولز رويس) للسيارات وشركة (زارا) للملابس أنهم قد وصلوا إلى مرحلة شهرة وموثوقيّة لا يحتاجون معها إلى الدعاية..! ومن ثمّ لا تقوم هذه الشركات بأي دعاية لمنتجاتها، بمنطق: ومن الذي يحتاج إلى أن يقنعه أحد بأن يشتري من (زارا)..؟! وهو منطق شبيه بأساتذة الطب الذين لا يكتبون على عياداتهم أنهم قد حصلوا على درجة (الدكتوراة)..! يتركون هذه الأمور للصغار كي يتفاخروا بها بينما هم قد وصلوا إلى (الأستاذيّة) وهو ما يجعلهم يستغنون تمامًا عن هذا التفاخر الصغير بالنسبة لهم..

فكرتُ في هذا حين لاحظت أن الله ﷻ قد أنزل القرآن على البدوي العربي القابع في صحرائه فلم يقل له: لعلمك هناك مجرة وهناك ذرّة، ولكنك لا تدري..! هناك عالم خفي تمامًا عنك، هناك معجزات في الخلق لا يمكنك أن تتخيلها..!

لا، لا يحتاج الإله حين يتكلم إلى هذا..! يستطيع أن يبهر هذا العربي تمامًا من واقع صحرائه وأنعامه وخيامه، لا يحتاج إلى أن ينظر إلى ما وراء زمنه وكأنه لا يوجد معجزات كافية في زمنه..! لا يحتاج إلى أن يقدّر قدرة الله في مخلوقات بعيدة تمامًا عنه مكانًا وزمانًا، وكأن ما خلقه الله من حوله غير كافٍ..!

في المقابل كان ما قاله الله ﷻ لهذا العربي القديم: فقط، انظر بجانبك..! ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ (الغاشية ١٧–٢٠)..

وحين أراد الله ﷻ أن يجعله يعتبر بمن سبقه لم يقص عليه القصص التي لا ندري عنها شيئًا والخاصة بالأنبياء الذين أرسلوا إلى أستراليا أو النبي الذي بُعِثَ في الهنود الحمر.. بل حدّثه عن القوم الذين كانوا يسكنون المساكن التي يسكنها الآن، الذين تبلغ ديارهم مسافة عدة أيام من داره، الذين يمر على آثارهم في أسفاره: ﴿**وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۞ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۞ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۞ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (الصافات ١٣٣–١٣٨).. ﴿**وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ**﴾ (إبراهيم ٤٥)..

لماذا..؟؟ لأن الإله لا يحتاج إلى أن يتفاخر بما لا يعلمه هذا الأعرابي ولا يبلغ عقله.. بل كل خلقه معجز، كل عقابه شديد، كل سننه ماضية، كل عِبَرِه مبكية..! فقط، انظر بجانبك..!

٤- الرمزيّة...!

جرّب أن تبحث في أي محرك بحثي عن صورة بعنوان (work)، ستظهر لك آلاف الصور.. ولأن خوارزميّة البحث تقضي بأن تأتيك النتائج بكل الصور المتعلقة بالكلمة

المبحوث عنها، فإنك ستجد هذه الصور مختلفة جدًا ومتباينة.. قد تجد مكتب عمل، أو مجموعة من الأشخاص يمثلون شركاء العمل، أو شاب يبتسم بسماجة ويمثّل زميل العمل، أو ورقة عليها خطة عمل، أو إضراب قام به مجموعة من الأشخاص احتجاجًا على قواعد العمل...إلخ

جرّب بعدها أن تبحث في نفس المحرك البحثي عن صورة بعنوان (work symbol)، ستظهر لك صور أقل بكثير في العدد وفي التباين، معظم هذه الصور ستكون صورة أيقونيّة تمثل شخصًا بلا وجه يلبس قبعة عمل واقية، أو يمسك حقيبة، أو تجد صورة ترسين متقاطعين، أو لافتة الطريق التي تقول احذر منطقة عمل... إلخ

الرمزيّة تقوم باختزال المعنى في أقل حجم ممكن، تعطيك الصورة التي تصلح بمفردها على إيصال المعنى المطلوب، وتنجح في إشعارك بكل التجريديات والمفردات التي تقبع خلفها..

ولأننا اعتدنا معشر البشر على الشعور بهذه الرمزيّة وفهمها في حياتنا اليومية، ولأننا نفهمها أسرع ونتفق عليها أكثر، تجد القرآن يحوي عددًا لا بأس به من الصور الرمزيّة التي تجدها تعبر عن الكثير من الكلمات والمعاني في صورة صغيرة..

على سبيل المثال اقرأ قول الله ﷻ: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾ (الأنبياء ١٠٤).. لا بد أنك تخيّلت ناطحات سحاب نيويورك ومصانع طوكيو وجامعات هارفارد وكامبريدج وكل رموز الحضارة المادية الحالية، وهي تُطوى بعد أن دُمّرت..! لا بد أنك تخيّلت المرأة الجميلة التي تكاد تفتنك، والهاتف الذكي ذا السبعة آلاف، والسيارة الفارهة التي تجسّد حلم حياتك وهي يتم طيّها..! لا بد أنك تخيلت الأحقاد والضغائن والخلافات والتكبر والغرور والكذب والخيانة وهي يتم طيها..! لا بد أنك تخيلت التعب والحزن والألم وابتلاء الدنيا وحرقة فوات لذة المعصية ومشقة الطاعة وهي يتم طيها..!

صورة رمزيّة تعني أن الحياة بأكملها صارت ماضيًا متهالكًا، انتهى من دون رجعة، وانتهت معه الكثير من الأشياء التي تعد الآن هامة، ولكنك تعلم كقارئ للقرآن أنه سيتم طيّها..!

خذ عندك مثالًا آخر، في قول الله ﷻ: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**﴾ (القمر ٣١).. يتكلم الله ﷻ عن الحال التي صار عليها قوم ثمود بعد ما أنزل الله عليهم العذاب.. صاروا مثل بقايا الحشائش الجافة التي تهشمت من دهس أقدام الراعي لها حين احتظر ماشيته في المكان..! صورة رمزيّة فائقة الجمال تجعلك في كل مرة تدوس فيها على حشائش جافة أن تتذكر ثمود الذين جابوا الصخر بالواد..!

كمثال ثالث، تأمل قول الله ﷻ: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۞ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المائدة ٣١-٣٢)..

لا تحاول إقناعي أن عقلك الآن لا يحوي صورة ابن آدم المسجى على الأرض بدمائه وبجانبه أخيه يبكي على صخرة مغطيًا وجهه في ندم، ثم يقوم ويحاول أن يقلّد الغراب في دفنه لأول قتيل في تاريخ البشريّة، بينما تتجلى في الأفق الآية الكريمة التي تخبرك أن من قتل نفسًا فكأنما قتل كل الناس..! هذه صورة ذهنيّة رمزيّة قويّة للغاية، اختزلت عدة صفحات في علوم النفس والاجتماع والقيم، تشرّبها ذهنك بسهولة ويسر حينما تكلم الإله..!

٥- كما يحب أن يقولها..!

حين تراقب الكثير من الإعجابات على تعليقٍ ما على أحد مواقع التواصل الاجتماعي، فأنت حينها تعاصر خبرة بشريّة شهيرة اسمها الكوديّ: (كانت على طرف لساني)، أن تجد من يقول ما تودّ قوله كما تريد أن تقوله..! بل وأحيانًا كثيرة أفضل حتى مما كنت ستقوله..

في قول الله ﷻ: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (الأعراف ١٧٣).. يتحدث الله ﷻ عن الشبهة التي سيرددها بنو آدم يوم القيامة لو لم يكن قد أخذ الله عليهم الميثاق، كانوا سيقولون لقد وُلِدنا على الشرك، آباؤنا هم المخطئون وليس نحن..!

تشعر أنه لم يكن سيخطر على ذهنهم أن يصيغوها بهذه الصيغة، هذه صياغة ممتازة جدًا، كما يريد الكافر صاحب هذه الشبهة أن يقولها تمامًا.. ثم تُفاجأ بأن هذه الشبهة ذات الصياغة الممتازة ليست فقط مردودة يوم القيامة، ولكنها مردودة في الدنيا وفي الكتاب الذي بين يديك نفسه، أي أنها أفضل ما يمكنهم قوله من شبهات، وهي خائبة تمامًا ولا تصمد أمام حجة الله القائمة عليهم..!

وعند العذاب والعياذ بالله يقولون: ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾ (المؤمنون ١٠٦-١٠٧).. من جديد، كما يودّ أي واحد منهم أن يقولها، هذا هو تمامًا ما يتخيل أنه كبشري اعتاد طوال حياته أن يعتذر للناس بـ (غصبًا عني) و (أنا آسف لن أعود) ستكون هذه الجملة بهذه الصياغة تمامًا ما يودّ قوله..! ولكنه يتحسّر ويخاف ويتوجع لو علم أن رد الله عليه حينها سيكون: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ (المؤمنون ١٠٨)..! خيبة الأمل الكاملة حين يعلم أن أفضل حججه لم تأتِ بأي نتيجة.. حينها تتذكر أنت أنك في الدنيا متروك للعمل والاختيار، بينما يوم القيامة لا يوجد إلا الحساب على ما سبق تقديمه من العمل، كما يقول الله ﷻ عن ذلك اليوم أنه: ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (النحل ٨٤).. !

٦- حديثٌ من المتعالِ..!

روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "إنكم تفعلون أفضل العبادة: التواضع".. وقال يوسف بن أسباط: "يجزي قليل التواضع عن كثير الاجتهاد".. وقال ابن السمآك لعيسى بن موسى: "تواضعك في شرفك خيرٌ لك من شرفك"..! ويقول ستيف ماكريش: "تذكر دائمًا عندما تكون على قمة العالم أن الأرض تنقلب كل ٢٤ ساعة"..! ويقول سينيكا: "التواضع يمنع ما يبيحه القانون".. وقالوا لـ تشرشل: فلان متواضع، فقال: "إنه لديه الكثير مما يتواضع بسببه"..! بينما كان رد جولدا مائير على موقف مشابه: "إنه ليس هامًّا أصلًا كي يتواضع"..!

في موقع الإنسان من الإله، ربما تكون كلمة جولدا مائير هي الأنسب: أنت لست هامًّا أصلًا كي تتواضع..! لذا فحين تقرأ القرآن تشعر بحديث استعلائي استغنائي من الدرجة الأولى..! صاحب هذا الكلام لن ينزل عن إرادته قيد أنملة من أجل أي واحد منّا..! لن يقرر إنزال آية فقط لأن أحدنا طلبها..! لن يعجّل أو يؤجّل قدرًا قدّره لأننا نريد ذلك..!

يظهر هذا الخطاب الاستعلائي في بعض آية موجزة: ﴿**فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**﴾ (النساء ١٥٣).. كلمات يسيرة تتمتمها بلسانك ثم تسارع بعدها إلى الأخذ بطرف ثوبك وتعتدل في جلستك خوفًا وهيبَة وإجلالًا..

يظهر أيضًا في نبرة الاستغناء الواضحة والمتكررة في هذا الكتاب، فيقول مثلًا جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا**﴾ (الإسراء ١٠٧).. ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف ٢٩).. هذا منطقي إذ إننا أقل من الهباء في ملكوت الرب، لا يكاد يبالي بنا: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ (الفرقان ٧٧)..!

يظهر أيضًا من خلال بعض الشبهات التي يقولها الكفار بالله عَزَّ وَجَلَّ ثم لا يُرد عليها في هذا السياق، ربما لأنها أسخف من اللازم مثل قولهم: ﴿**رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ**

الْحِسَابِ﴾ (ص ١٦).. أي: عجل لنا عذابنا في الدنيا حتى نصدق أنه يوجد عذاب في الآخرة..! مستوى متدنٍّ للغاية من الـ I.Q ..! فأغفلهم الله ﷻ وكانت الآية التي تليها: ﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ (ص ١٧).. فلنستمع إذن قصة القرآن عن داوود عليه السلام ولندع هؤلاء السفهاء..!



حكايات الأخوين (جريم) كانت من تراث حكايات الجدّات الألمانيات لأحفادهنّ من عامة الشعب ولكن لسبب ما كانت لا تدور غالبًا إلا حول بلاط الملوك والأمراء، وزواجاتهم وصراعاتهم وأحوالهم، ربما كان هذا من تأثيرات سطوة الملك في القرون الوسطى والتي جعلت البسطاء من العامة يهتمون كل هذا الحد بسعادة الأمراء الذين لا يبالون بهم..!

في إحدى هذه الحكايات تم التعرّف على الأمير الذي كان يلبس ملابس الصعاليك من وسط العامة، فقط من طريقة حديثه وكلامه والثقة البالغة التي يتعامل بها مع حراس الملك وحاشيته.. شيء ما في هيبة شخصيته جعل الناس يظنون أنه في أقل الأحيان هذا رجل يصدقُ نفسه بأنه أمير، ولأنه لا يبدو عليه آثار الجنون، فلا بد إذن أن هذا حقيقي..!

أكبر ما يظهر فيه العلوّ من كلام الكبير المتعال أن في بعض الآيات تشعر أنه لا يمكن إلا أن يكون صادرًا إلا من عند ملك الأكوان..! حين تسمع مثلًا قول الله ﷻ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾ (الرعد ١٢-١٣)..

فالنظرة المعتادة التي ينظر بها البشر -وخصوصًا هؤلاء الذين عاشوا في عصر ما قبل الثورة العلمية- إلى البرق والرعد والملائكة كانت نظرة الإجلال والخوف والرهبة.. لا عجب إذن من أن الإغريق قد جعلوا كعادتهم إلهًا للرعد والبرق، وجعل وثنيّو العرب الملائكةَ بناتَ

الله، وجعل النصارى واحدًا من هذه الملائكة (الروح القدس) أقنومًا من أقانيم الإله..!

كل هؤلاء تأثروا بالنظرة المرتاعة المعتادة من البشر لهذه القوى العاتية.. بينما المتعال يتحدث عنها باعتبارها أشياء منكسرة لسيدها، تعظّمه وتخاف منه وتصطف مع باقي جنوده ساعيةً في خدمته وإمرار إرادته..

٧- الواقعيّة الحكيمة..!

في اللحظات التي تستيقظ فيها من نومك في الصباح تمرّ بمرحلة من حياتك أحب أن أسميها: (الدَهْوَلة)..! أنت لا تعلم من أنت ولا ما أنت..؟ هل أنا جزء منفصل عن السرير الذي أنام عليه؟؟ نعم بدأت أتذكر، أنا كائن مستقل له وجود منفصل..! ثم من هي هذه المرأة التي توقظك والتي لم ترها من قبل في حياتك..؟ هي تصرّ على أنها أمك منذ فترة لا بأس بها من الزمن..!

تنظر لها بعينين حمراوين كالبنجر محاولًا أن تتذكر ما كانت خطة (تيمور لانك) في محاربة (دارث فيدر) على ظهر (الفيل دامبو) قبل أن تدرك أن هذا كله حلم متخلّف، وأن هذه هي أمك بالفعل..! وتبدأ حواسك كلها في العودة ببطء لتدرك أنك تحتاج إلى ملء معدتك وإفراغ مثانتك ومطّ عضلاتك..!

على مائدة الإفطار، تعال نحلل ظاهرة (الدَهْوَلَة) هذه.. أنت كنت في حالة هلامية غير مفهومة، عالم الأحلام والسبات النومي الذي هو انقطاع بحق عن الحياة التي اعتدناها.. طوال حياتي كنت أسخر من كُتّاب الروايات الذين يجعلون بطل روايتهم يحاول التأكد إن كان هو في حلم أم حقيقة، ويضيّع الأحمق نصف الرواية في محاولة التفكير في هذا اللغز بينما لا أحد يخلط في يقظته بين الحقيقة والحلم حقًا إلا لو كان مصابًا بـDelirium كامل..!

أنت في واقعك تشعر بالموجودات كلها حولك وتشعر بنفسك لتدرك أن هذا كله

حقيقي تمامًا، وهو الفرق بين الحالة التي أنت فيها الآن تستمتع بأكل لقيمات البيض المقليّ وبين الحالة التي كنت فيها تطير فوق فيل مكتنز كبير الأذنين لتشارك في حرب النجوم.. الحالة الواقعية التي تَخبُرُها الآن مميزة تمامًا تجعلك تفصل بين الحلم واليقظة، بين المرض والصحة.. هي الأساس الواقعي الذي تقيس عليه كل ما سواه إن كان واقعيًا أم لا..

فالقرآن كما اعتدنا يفهمك وتفهمه حين يقول الله ﷻ: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾ (الذاريات ٢٣).. أي أن ما نعدكم به من الحياة الآخرة، لا شك فيه، سيكون الأمر حقيقيًا تمامًا وواقعيًا بشدة كمثل يقينكم في أنكم تنطقون الآن وتتكلمون..! كمثل ثقتكم في حواسكم التي تشعركم بأنكم موجودون في هذا العالم.. أليست هذه اللغة التي نتحدث بها..؟ أليس هذا هو الذي نقيس عليه واقعيّة الأمور..؟

ليس هذا وفقط، ولكن القرآن أيضًا يؤكد لك أنك ستعيش مثل هذه الحالة الواقعية في الدار الآخرة للدرجة التي ستشعر فيها أنها إكمال لحياتك التي تعيشها الآن.. ستشعر وكأن الفرق بين معيشتك في الجنة إن شاء الله ومعيشتك في تلك الغرفة الصغيرة في أحد أحياء (بولاق) كالفرق بين الأمس واليوم، حتى إنك ستتذكر كل التفاصيل، بل ستتذكر مشاعرك التي كانت وقتها، حياة واقعيّة هنا، وحياة واقعيّة هناك.. ﴿**قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ (الطور ٢٦–٢٨).. ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۞ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۞ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ۞ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۞ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ**﴾ (الصافات ٥١–٥٦)..

٨- البلاغة التي ننتظرها..!

لا يوجد من يعقّد الفن مثل هؤلاء الذين يحاولون تقعيده..! مثلًا حين تشاهد لوحة جميلة مريحة للعين والأعصاب، فهذا منظر جميل، لقد صنعها الفنان ليبهجني وحصل على

مبتغاه، وانتهت القصة عند هذا الحد، تصبحون على خير.. لكن يصر واحد من هؤلاء على أن يذكرك بأن هذه اللوحة رُسِمَت في العصر كذا والذي كان لا يؤمن بـ كذا.. لذلك فهي تعبر عن بلابلابلابلا.. أجزم أن ذلك الذي رسمها لم يكن يعلم كل ذلك، لقد رسمها من أجل أن يبيعها ليطعم أولاده، وهذه البقعة لا تمثل إيمانه بالبوهيمية وإنما كانت بقعة زيت من بقايا البطاطس أيها البائس..! من فضلك دعنا نستمتع بهدوء، لقد عقّدتم الحياة بأكملها، وترفضون أن تتركوا لنا بقعة واحدة هادئة بسيطة..

بالمثل لا أذكر أني استمتعت أبدًا بدروس (تاريخ الأدب) في الثانوية العامة، شعر (البحتري) رائع حين تقرؤه عل فراشك في ليلة ممطرة، لكنه يتحول إلى كتلة من التعاسة في رأيي حين يندمج بتاريخ الدولة العباسية والصراعات السياسية التي أثرت عليه وتظهر آثارها في قصيدة وصف الربيع.. لماذا تكرهني..؟!

بالطبع لا أُقلّل قيمة الدراسة الأكاديميّة للفنّ، ولا النقد الأدبي التاريخي، هي بالطبع علوم محترمة ولها مريدوها، ولكن من منظوري أنا الشخصي لا أستمتع بهما قدر استمتاعي بالفن أو بالأدب نفسه..!

الحد الأدنى من تذوّق البلاغة قد لا يحتاج بالضرورة إلى شاعر ولا إلى لغوي ولا إلى فصيح، وبالتأكيد لا يحتاج إلى مؤرخ أو أكاديمي.. البلاغة مخلوق في الإنسان جهاز استقبال لها يعرفها وهي قادمة ويهشّ لها ويبشّ، وترحل وهو قد تم إطرابه وإنعاشه.. وربما لهذا اعتاد الشعراء أن يحتلوا الجهاز الإعلامي كله بين العامة من الناس في العصور الوسطى والقديمة، انحسر هذا الدور الآن عنهم وتخلوا عنه للأفلام الهوليودية التي بالتأكيد ستتفوق عليهم في سحر مؤثراتها الآخذة..

المحسنات البديعية والجناس والاختصار والقصر والتقديم والتأخير والتشبيهات البلاغية والصور والقوافي يعشقها الناس جميعًا، خصوصًا هؤلاء الذين يعشقونها من دون أن يعلموا أن اسمها المحسنات البديعية..! يمكنك أن تختبر ذلك بالنظر إلى القصائد والأغاني الهابطة

التي تشتهر وسط العوام لترى أنها مليئة بالقوافي، والتقطيعات الموسيقية للألفاظ..!

ولأن القرآن قد نزل ليخاطب الناس على اختلاف مشاربهم، تجده أبلغ ما يكون حتى يوافق حبهم لهذه البلاغة، ولأن الذي خلقهم يعلم ذلك منهم: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير ١٥-١٨).. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۞ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق ١٦-١٩)..

لم يتكلم الله ﷻ بالقرآن بشكل بلاغي لأنه يحتاج إلى ذلك، أو لأن التقسيمات الموسيقية للعبارات تُغير من مدى اتصاف كلام ما بالحق أو الباطل..! بل لأن هذا مما يوافق الطبيعة التي خلق الله ﷻ عليها الناس، وبنفس الطريقة التي اختار الله ﷻ بها القرآن باللغة العربية حين نزل على العرب، هذا غير أن البلاغة من أعمدة اللغة العربية بالمناسبة، وهذه لغة أساطين الشعر العربي الذين نزل القرآن كي يتحداهم..

٩- قشعريرة متقطّعة..!

لو كنت تسكن في مدينة ساحلية وكنت تقرأ هذا الكتاب في وقت الصيف فعليك أن تذهب إلى البحر الآن لتراقب الأطفال وهم يلعبون بطائراتهم الورقيّة.. انظر إلى هذه الطائرة، لماذا لا تسقط على الأرض..؟! هذا لأن قوة الرياح ومقاومة الهواء كانا أكبر في حالتها من قوة الجاذبية، بينما الرياح لا تستطيع أن تحمل جسدك ذا الثمانين كيلو جرامًا بهذه السهولة، في حالتك فقوة الجاذبية أكبر.. لكنك بالطبع لا تسكن في مدينة ساحليّة لأن الحياة ليست بهذا السخاء، وعلى الأرجح تقرأ هذا الكلام في الشتاء، لذلك انس كل شيء قلته..!

حين نشاهد الموجودات من حولنا في الحياة نلاحظ أن ثبات هذه الموجودات إنما يكون بفعل التوازن بين قوتين مختلفتين، الأرض تحب أن تطيش لتصطدم بالزهرة وتهلكنا جميعًا،

لكن قوة الطرد المركزية الناتجة عن دورانها حول الشمس تمنعها من ذلك، وهي أيضًا تحب أن تحتضن المريخ من آن لآخر، إلا أن قوة جاذبية الشمس لها لا تسمح..! وبالمثل فإن كل خلية من أجسادنا تحتفظ بمقدار ثابت من المياه بداخلها في الحالات الطبيعية لأن تركيز الأملاح بها متناسب ومتوازن مع تركيز الأملاح خارجها، أعدك أنه حين يحدث اختلال في هذا فأنت ستزور الطبيب الباطني قريبًا.. عافاني الله وإياك من كل سوء..

حين تقرأ القرآن فإنك تجد تأرجحًا دائمًا في حالتك الشعوريّة بين الإحساس بالتهديد والاطمئنان.. والجمع بينهما عسير عمومًا حين تتعامل مع واحد من البشر له صفات ناقصة فيغلب عليه إما الشدة أو اللين، أما مع الإله فإن رحمته كاملة وكذلك عزته، هو حليم إلى أقصى درجة قد تتخيلها وأعلى من ذلك، وإن عذابه شديد إلى درجة لا يتحملها بشر..!

هذا التأرجح الشعوري يصفه الله ﷻ في كتابه فيقول: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (الزمر ٢٣)..

إن المؤمن الكامل إيمانه يفترض أن يصاب بقشعريرة حين يسمع آيات الله ﷻ والتهديد الذي يملأها، إنها قشعريرة حقيقية كتلك التي يصاب بها جلدك حين يفاجئك قط مذعور يجري نحوك في فناء بيتكم المظلم في ليل ساكن.. لكن ما أن تكمل سماع آيات الكتاب الحكيم حتى يتم استبدال هذه القشعريرة بلين كامل واطمئنان نفسي هادئ كذلك الذي تشعر به مع نسمات الصباح الدافئة والشمس المنيرة وحركة الناس إلى أعمالهم بعد أن قضيت ليلة سوداء مع رواية رعب بارعة قرأتها وأنت تسكن في البيت وحدك بدون سبب واضح.. كل شيء على ما يرام، الحياة هادئة وساكنة..!

ينبع هذا التردد الشعوري من الطريقة المتداخلة التي تصف بها الآيات العذاب والنعيم معًا، يمكنك أن تعود إلى رشدك وتتوب من ذنبك فتحصل على هذا النعيم، ويمكنك أن

تمادى في ضلالك فتقع في هذا العذاب..! آيات مثل قوله ﷻ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۞ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۞ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۞ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۞ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ۞ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ۞ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۞ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۞ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (ص ٤٩–٥٨)..

أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۞ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۞ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ۞ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۞ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (الدخان ٤٣–٥٦)..

لكني أراك تسأل عن دخل هذا في أمر جواب القرآن عن أسئلتك..!!

في الحقيقة أن هذا التردد الشعوري وهذه القشعريرة المتقطعة تنقلك باستمرار بين حالتيْ الترغيب والترهيب، يبقيك هذا في موضعك دون أن تطيش نحو اليمين أو الشمال، وبنفس الطريقة التي تبقى فيها الأشياء حين يؤثر عليها قوتان متضادتان في الاتجاه متساويتان في القوة..! أنت في هذه الحالة أكثر اتزانًا وعقلًا واستيعابًا لحقائق الوجود.. أنت في هذه الحالة لا يغلب عليك اليأس العدمي (النيتشوِي) إياه، ولا يغلب عليك المرح البوهيمي المنحلّ، أنت تشعر بالخوف من أن تضيع حياتك في الاتجاه الخاطيء، وتشعر بالأمل لكونك تدرك أن هناك أصلًا اتجاه صحيح.. هذا يدفعك ليس فقط لتقبّل الإجابات التي يلقيها القرآن في نفسك عن أسئلتك وتصديقها، ولكنه أيضًا يفتح لك المزيد من هذه الأسئلة..!

١٠- الثنائيّات الداعمة..

لا أذكر أني استخدمت من قبل أيّة ورقة أو قلم في كتابة الاحتياجات البيتيّة التي كانت تطلبها أمي ومن بعدها زوجتي، كثيرًا ما كان يندهش أحدهم مني من قدرتي على حفظ هذه اللائحة الطويلة من الطلبات بسهولة.. بالطبع أمي لم تكن تندهش لأنها تعلم أني أنسى في الواقع أكثر من نصف هذه اللائحة..!

الطريقة التي كنت أتبعها لتذكر هذه اللائحة (أو تذكر نصفها في حالة أمي كانت تقرأ الآن وتتهمني بالنصب..!) أني كنت أحولهم إلى (ثنائيّات) في ذهني.. لماذا تحفظ عشرة أشياء بينما يمكنك أن تحفظ خمسة..؟! هذه الثنائيات تتكون من أشياء شبيهة، بحيث يكون عليك أن تتذكر واحدة فقط منهما وهي تجرّ الأخرى بشكل تلقائي..! يعني مثلًا الخبز والفطير ثنائية، لأنهما من المخبز.. واللبن والزبادي ثنائية، وهذا أوضح من أن أشرحه.. بالطبع الجبن الرومي واللانشون ثنائية لأني أعشق وضعهما معًا في نفس الشطيرة.. بينما المناديل الورقية ومسحوق التنظيف ثنائية لأن كليهما من طائفة المنظفات في التصنيف الدماغي الخاص بي لمحتويات المطبخ..

نستخدم هذه الثنائيات في حياتنا بشكل أعمق بالفعل مما أفعله في محل البقالة ولأسباب أهم من حفظ لائحة المشتريات اليومية.. مثلًا نستخدمها جميعًا في ربط الملاحظة والتوقع، أو السبب والنتيجة، أو الربط الزماني والمكاني لحدث ما..

في القرآن نجد عددًا لا بأس به من هذه الثنائيات الداعمة، تدعم أحدها الآخر، فيكفي أن تتأمل في صحته حتى توقن بصحة أخيه..!

كمثال على ذلك دعونا نتأمل هذه الآيات: ﴿**عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۞ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۞ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۞ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ**

لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۞ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۞ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۞ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۞ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (النبأ ١-١٧)..

بدأت الآيات باستنكار سؤالهم عن البعث، ثم مرت على بعض ملامح الخلق في الكون ثم انتهت بالتأكيد على البعث..! ما العلاقة..؟! إنها الثنائية الداعمة التي تخبرك أنه لكي تؤمن بوجود غيب لا تراه، لكي تؤمن بوجود شيء لا تدركه الآن، لكي تستدل على حدوث أمر جلل أنت لا تتخيل كيفية حدوثه.. فعليك إذن أن تأخذ جولة في هذا الكون الفسيح لتتأمل في رفاهية الأرض وصلاحيتها للحياة، وفي تشييد الجبال ووظيفتها المحكمة، وفي الطريقة التي اختارها الله ﷻ لبقاء النسل، والطريقة التي اختارها لتجديد الطاقة الإنسانية، والطريقة التي اختارها لتقسيم الزمان وتوزيع الأدوار عليها، وفي السماوات البعيدة، والشمس المانحة للحياة، والسحاب المحمّل بالرزق، والأرض الموزّعة للطعام، والمناظر البهيجة للجنات الملتفة..

هل انتهيت من جولتك..؟؟ إذن أخبرنا، هل الذي فعل كل هذا يعجز عن البعث..؟! لا، إذن فالبعث في أقل أحواله أنه مُحتَمل.. ثم أخبرنا، هل يمكن أن يكون كل هذا من قبيل العبث وتزجية الفراغ والعياذ بالله..؟! لا، إذن فالبعث منطقي ومفهوم، وغير مُستغرَب إلى هذا الحد..

ماذا كانت العلاقة بين السحب الكثيفة في السماء وبين اليقين في أن يوم الفصل كان ميقاتًا..؟؟ إنها الثنائية الداعمة التي جعلتك تنظر إلى خلق الله ﷻ في الوجود فارتبطت نفسك ليس فقط بقدرة الله جل جلاله، وليس فقط بجماله سبحانه، وليس فقط بإتقانه وإحسان خلقه، ولكن أيضًا بخبرة الله وحكمته الذي لا يخلق خلقًا عبثًا، ولا يتركهم من بعد ذلك سدًى..!

١١- إنه يَقرَؤُني..!

هناك قصة قديمة لرجل ادّعى أنه يقرأ عقول الناس ويعرف ما الذي يفكرون به، نظر له الناس من حوله بريبة وشك ثم قال له أحدهم: إذن أخبرني لو كنت صادقًا فيمَ أفكر الآن.. قال له: تفكر أني نصاب..!

هذا رجل لا يقرأ عقول الناس ولكنه عبقري بالتأكيد..! ذكّرني بنبوءات (حظك اليوم) المثيرة للغثيان التي تخبرك أنك برج (الجدي) لذلك عليك أن تتوقع اليوم (خبرًا سعيدًا ولكن يصيبك بالتوتر).. بينما زوجتك برج (القوس) فعليها أن تحذر من (استغلال أدعياء المحبة المحيطين بها).. ستجد في النهاية أن هذا وذاك ينطبقان عليكما معًا في النهاية، وأنهما ينطبقان على كل شيء في الحياة، هو نوع من الشرك بالله الذي وحده يعلم ما في الغيوب، وضرب من ضروب الاحتيال السخيف الذي يستحقه كل من يظن أن كرات غازيّة عملاقة متناثرة في الفضاء تتحكم بمصيره على الأرض..!

ولكن في حالة القرآن فإنه بالفعل يقرؤك.. هذا بديهيّ إذ إنه الكلمة الصادرة من البديع الذي قام بإنشائك.. وبنفس الطريقة التي تقوم بها أنت حينما تعود باستمرار إلى تعليمات المصنع (الكاتالوج) لمعرفة ما الخطب الذي في غسالتك يجعلها تأكل إحدى فردتي جوربك باستمرار..!

فخطاب القرآن قائم على التفاعل، فبالرغم من أنه لا يحوي إلا كلام الله ﷻ إلا أن الله قد ضمّن فيه الرد على كلامك الذي كنت تود قوله..! وأجاب عن أسئلتك التي أردت طرحها..! ﴿**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (الملك ١٣-١٤)..

تأمل مثلًا قول الله جلاله: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۞ أَمْ**

تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۞ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۞ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۞ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور ٢٩-٤٣)..

يتبين لك وكأنها إجابة عن أسئلة لم تُذكر.. وكأن هناك أحد المعاندين يحاور الله ﷻ ويطرح أسئلته والله يجيب عليها.. وكأن هناك تفاعل وسؤال وجواب..

إنه بالضبط وكأن القرآن يقرؤك..!

١٢- الأجزاء الصغيرة..!

من الصعب تحديد ما هو أبلغ ما قاله شعراء العرب، على أن معلّقة امرؤ القيس من ضمن المرشّحات لذلك بالتأكيد، تلك التي تبدأ بالبيت الشهير:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ... بسقط اللوى بين الدخول فحوْملِ...

هذا رجل قد هام حبًا بحبيبته، بمنطق: إذا كان يحفظ العنوان التفصيلي للبيت الذي كانت تسكنه، فما بالك بما هو أهم من ذلك وأعظم..؟!

يشيع هذا المنطق لدينا ويعرفه كل واحد منّا حين يقال له: (فلان يحضّر الدكتوراه في لبن العصفور).. فما دام يعرف في لبن العصفور فلا بد أنه يعرف إذن كل شيء..!

حين يحدثنا القرآن عن مثل هذه الأجزاء الصغيرة فإنه لا شك يترك المجال لخيالنا البشري

—وما أوسع الخيال— لتخيّل ما أكبر منه من الأجزاء.. وما خفي كان أعظم..

مثلًا يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (الأنعام ١٣).. وهو هنا يوجّه فكرك إلى امتلاك الله وإحاطته لتلك الأشياء الساكنة الخفية الصغيرة في الليل، مثل دبيب أقدام النمل على رمال الصحراء، أو حفيف أوراق الشجر اليابس في غابة مهملة على حدود سيبريا.. فما بالك بامتلاكه لما يتحرك في وضح النهار، لما هو أظهر لأعيننا ووعينا..؟!

ويقول الله ﷻ: ﴿**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ**﴾ (فصلت ٤٧).. حينها لا تتساءل عمّا هو أكبر من ذلك، تقلبات الأمم، ونزوات الأفراد، وغلبات الشهوات، وتضرعات الليل.. كل ذلك كان أظهر وأسهل في أن يعمله الله ﷿ من علمه لتلك الثمرات التي تخرج من قشرتها..!

وفي مجال الإنعام والفضل والتكرّم من الخالق، فحين تسمع قول الله ﷻ: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ**﴾ (التين ١).. تفكر في كرم الله ﷿ الذي يذكرك بفضله في خلق هذا النبات البسيط وتلك الفاكهة الصغيرة حلوة المذاق والتي لو لم تكن موجودة لما أثّر ذلك على حياتك المادية ولا وجودك في شيء.. ولكن منّ الله عليك بها لأنه هو الأكرم الذي يعطي بسبب وبلا سبب، يعطي من يستحق ومن لا يستحق، يعطيك ما تحتاجه وما لا تحتاجه..! حينها تتذكر كرم الله ﷿ في ما هو أكبر من التين ومن الزيتون.. وهذا كثير لا يحصى..!

أجزاء صغيرة نبهك القرآن إليها لتنظر إلى الصورة الأكبر والأشمل من باب الأولى، حينها يصل لك الجواب في نفسك بشكل أضخم بكثير مما قيل في اللفظ بالفعل..! وتصل إلى الجواب عن سؤالك بشكل أوضح مما كان يبدو ظاهرًا على هذه الآية أو تلك..!



اثنتا عشرة نقطة حاولتُ من خلالها إقناعك أن أسلوب القرآن في إجابة أسئلتك ملائم لك -أنت الإنسان- تمامًا، وكأن هذا تفصيل وتدقيق من علام الغيوب.. ولا عجب فهو ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف ٥٤).. ولا عجب فهو الذي قال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود ١).. ولا عجب فهو الذي قال عن المعتصمين بهذا القرآن: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النساء ١٧٥)..

يبقى لنا أن أريك بعضًا من هذه الأسئلة وكيف أجاب القرآن عنها..!

هل الله موجود..؟! كيف لنا أن نتأكد من ذلك..؟!

ومن أوجده إذن..؟! كيف نستوعب صفاته الكاملة المثيرة للعجب..؟!

ولماذا تسلّم أنه إله معبود..؟! أليس من الممكن أن يكون خالقًا وفقط، تركنا بعد أن أوجدنا ولم يتصل بنا قط..؟!

إن رفضت تلك الفكرة، فأخبرني إذن لماذا لا يظهر لنا..؟! لماذا عليّ أن أؤمن به وهو في غيب عني..؟! لماذا لا تكون الآيات التي أنزلها قاطعة ساحرة لا يكفر بها أحد..؟!

وهل هو واحد أم ثلاثة أم أكثر من ذلك..؟! تقول: واحد، لماذا بالضرورة تجزم بذلك..؟!

بل وقبل ذلك كله: لماذا خلقنا أصلًا..؟! لنعبده، وهل يحتاج لعبادتنا..؟! ليختبرنا، وهل يهمه نتيجة اختبارنا..؟!

وعلى ذكر الاختبار، لما يفشل أحدنا في الاختبار، هل هو من أراد له أن يفشل أم أن هذا الفاشل هو من اختار..؟!

وما أدرانا بأنه يوجد يومٌ للنتيجة..؟! لماذا تجزم بكل هذه الجرأة بأن هناك يومًا سنُبعث فيه..؟!

الأنبياء قالوا لنا، جيد أنك طرحت هذه النقطة، من أدراك بصدق هؤلاء الأنبياء..؟! وعلى الأخص من أدراك بصدق النبي محمد ﷺ..؟!

وإن أنهيت كل ما سبق من أسئلة فعليك أن تجيبني عن مسألة وجود الشرور في الدنيا.. هل الله يقدر أن يمنعها..؟! لماذا لا يفعل إذن..؟! أليس أرحم بنا من أمهاتنا..؟! وهل هناك عدل في توزيع الأرزاق في الدنيا..؟!

بل هل هناك عدل في وصول حجته إلى كل العباد..؟! لماذا يوجد عذاب في الآخرة..؟! ولماذا هو بكل هذه الشناعة والأبديّة..؟!

ألا يعد ذلك ظلمًا..؟! أن يتم تعذيب الكافر لأنه وُلدَ على دين آخر..؟! لماذا لا تسلم بصحة أي دين غير الإسلام..؟! ولماذا سمح الإله بكل هذا التفرق والتنوع في الأديان..؟!

على أني في النهاية لن أدعك أيضًا إلا بأن أسألك عن النتائج العلمية الأخيرة..؟! تزعم أن القرآن به كل شيء، فأخبرني عن نظرية التطور والانفجار الكبير العشوائي.. لماذا لا يكون هذا هو التفسير الأصوب للحياة..؟!

كيف تؤمن بوجود إله مع علمك بسيادة القوانين الفيزيائية، أليس إيماني بالإله هكذا يعد شيئًا غير علمي..؟! العلم قد فسر لنا معظم أسباب الظواهر المعروفة، لماذا ما زلت تحتاج إلى إله..؟!

أسئلة كثيرة هي..! فلنبدأ إذن دون إبطاء..!

السؤال الأحمق

(عن سؤال: هل يوجد إله)

لا يفهم الطفل ما المضحك حين يسأل: لماذا كان الناس يعيشون في زمان (إسماعيل ياسين) بدون ألوان..؟ لماذا لم يفكر أحدهم قط في أن يلبس ملابس ملوّنة على سبيل التغيير بدلًا من اللونين الأبيض والأسود المعتادَين..!

يسمعه أبواه يردد ذلك فينفجران ضحكًا، وحين تجتمع العائلة يصرّان على إعادة فتح هذه المسألة أمامهم، "قل لعمّك يا حبيبي السؤال الذي سألته أمس"، ومن جديد ينفجر (عمّو) في الضحك دون أن يفهم الطفل ما المضحك إلى هذا الحد..

مسألة حماقة سؤال ما هي مسألة نسبية في النهاية، أذكر أني رأيت مقالة على الانترنت تتحدث عن أغبى عشرين سؤالًا تم سؤالهم على (تويتر).. كانت هناك أسئلة حمقاء بالفعل، مثل: "هل الأفريقيّة ديانة..؟!" –"ما هو الاسم الأخير للرئيس أوباما..؟!"– "لماذا نقول الساعة الآن أربعة إلا ربع..؟! أليس الربع هو خمسة وعشرين سنتًا، إذًا لماذا نطلقه على الخمس عشرة دقيقة..؟!"..

على أن هناك بضعة أسئلة لم أفهم لماذا تم اعتبارها غبية، وهذا كان لأني لست على علم بموضوع هذه الأسئلة، مثلًا كان هناك سؤال: "ما المسافة بين ميامي وفلوريدا..؟؟" لم أفهم لماذا يعتبر هذا غباء، هذه امرأة تريد أن تعرف المسافة بين ميامي وفلوريدا..! لكني عرفت بعد ذلك أن ميامي جزء من فلوريدا أصلًا، هذا مثل أن تسأل عن المسافة بين المهندسين والقاهرة..! حسنًا، لقد تبين أنه كان بالفعل سؤال أحمق، فقط كان عليّ أن أكون عالمًا بجغرافيا الولايات المتحدة حتى أدرك ذلك..!

بالمثل أؤكد لك أنك لو دخلت إلى أحد مدارس تعليم القرآن وسألت: هل هناك قلقلة على حرف الذال..؟ وقتها سينظرون لك في برود محاولين إخفاء ضحكاتهم.. ولو دخلت إلى أحد محاضرات الفيسيولوجيا في أقرب كلية طب وسألتهم: "هل الغدة النخاميّة مسؤولة عن تكوين نخامة الأنف..؟؟" فإني أؤكد لك أنه سيتم طردك من المكان سريعًا.. ولو دخلت

إلى أحد فصول الفيزياء في معهد MIT وسألتهم: "ما الفرق بين الوزن والكتلة..؟؟" فإنه سيتم ترحيلك إلى مدينتك في أقرب وقت..!

كل هذه الأسئلة تبدو لغير المختصين بها أسئلة معقولة، ربما يعرفون إجاباتها ولكن يقدّرون حق أولئك في السؤال، يرون اتهامك لهؤلاء بالسخف أمرًا شديد التعصب والغرور.. بينما في الحقيقة أنت كمختص على حق، وكل طبيب سيؤيدك في أن تلكم كل من يسأل سؤال الغدة النخاميّة إياه في أنفه لكمة يستحقها..

فبالنسبة للمؤمنين والمتأملين في الوجود لن يجدوا أسخف ولا أحمق من ذلك الذي يتساءل عن الدليل على وجود الله ﷻ.. ورحم الله أولئك الرسل الذين واجهوا شكًا من قومهم في الله ﷻ فما كان جوابهم إلا: ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (إبراهيم ١٠).. تشعرك الآية أنهم كانوا يضربون كفًا على كف، ولا يتصورون كيف يتساءل أحدهم عن الله..!

المؤمن لا يقف في مسألة وجود الله ﷻ موقفًا محايدًا أو مترددًا أو ضعيفًا حتى، بالنسبة له فالله أوضح شيء في الوجود يمكنه أن يشك حرفيًا في وجوده هو، ولا يشك في وجود صانع هذه الحياة بأكملها.. وهو يقرأ قول الله ﷻ: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ (الحديد ٣).. ويتذكر حينها التفسير النبوي في الحديث الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله: "أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء"..!

بالنسبة له، فالله أظهر من أي شيء.. يمكنه أن ينظر من حوله في كل مكان فلا يرى إلا فعلًا أو صفةً لله قد تجلت في الأشياء من حوله، القوة والجمال والرحمة والحكمة وغيرها من صفات البشر، يعرف أنها إبداع من الله ﷻ الذي اتصف بأصل هذه الصفات بشكل كامل صافٍ لا يشوبه الضعف البشري.. هو قد وصل إلى بعض صفات الله ﷻ وأفعاله

فقط من تأمله في الوجود من حوله، وما زال الذي بجانبه يردد: هل الله موجود..؟!

لذلك تتأمل رد إبراهيم عليه السلام على قومه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الأنبياء ٥٥-٥٦).. هي رسالة لكل من يرددون أنه لا توجد حقيقة مطلقة، بل كل واحد من المؤمنين يشهد تمامًا على هذه الحقيقة المطلقة..

على أن القرآن لا يخاطب المؤمنين بالله فقط، فكما ناقشنا في الفصول السابقة، سيكون لديه الجواب الكامل غير المنقوص على هؤلاء الذين يشككون في هذه الحقيقة، وسواء كان ملحدًا يدّعي أنه متيقن من عدم وجود الله: Atheist.. أو واقفًا في المنتصف مدّعيًا أنه لا يوجد ثمة سبيل علمي أو عقلي يمكننا من التيقن بوجود الله أو عدمه: Agnostic.. أو كان مؤمنًا متشككًا يراوده هذا السؤال من آن لآخر ولما يصل بعد إلى حالة الاطمئنان التي تسود صدور غالب المؤمنين..

والقسم الأعجب ممّن يخاطبهم القرآن بأدلة وجوده هم هؤلاء المعتقدين في وجوده ولكنهم لا يفعلون ما يدل على هذه العقيدة..! مثل الكفار الذين كانوا عامّة من خاطبهم النبي ﷺ والذين كانوا إذا سُئلوا: ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ﴾: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف ٨٧)..

لماذا يخاطب الله ﷻ بأدلة وجوده إذن من لا يشكك في ذلك ابتداءً..؟ لأنهم لم يؤمنوا بالرسل ولا باليوم الآخر، ولم يحرّموا ما حرّم الله، ولم يحلّوا ما أحل الله، لأنهم كانوا من المجرمين الذي لا يبالون بحدود الله ولا يرقبون في المؤمن إلًّا ولا ذمة، لأنهم كانوا يقولون أنها حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين..

كل هذا يدل على أنهم لم يؤمنوا بالله حقًّا، وعلمهم بوجوده علم ناقص.. لا يمكن أن يكونوا على يقين كامل بوجود الله ثم يكبر عليهم إلى هذا الحد ما ندعوهم إليه، لذلك قال ﷻ: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۞ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي

﴿وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (الدخان ٧-٩).. فحتى لو لم يكونوا في شك من وجود الله ﷻ، فهم في شك من بقية سلسلة الإيمان..!

لذلك فإن التيقن الكامل بحقيقة وجود الله ﷻ يثبّت قمة الهرم العقدي فيكون ما بعده أمرًا سهلًا.. كيف أقنعك بترك الحرام السهل اللذيذ أمامك أو فعل الطاعة الشاقة باستمرار لو لم تكن متيقنًا تمامًا بوجود الله ﷻ، ومن ثم التيقن بعذابه وبنعيمه..؟!

كما روى لنا ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله جمع الناس يومًا وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، أيها الناس، فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك"..! ثم نزل.. والمقصود، كما يقول ابن كثير رحمه الله من قوله "المصدّق بهذا الأمر أحمق": "أي لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى في لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار"..

لذلك لربما كان التعرّف على أدلة وجوده من الحلول الناجعة لذلك المؤمن ضعيف الإيمان المداوم على المعاصي الهاجر للطاعات، أن يتذكر أن الله موجود حقًا.. موجود جدًا..!

وبالرغم من أن هناك من يتحرّج من إطلاق كلمة (موجود) على الله باعتبار أنها (اسم مفعول) من جهة النحو، إلا أن هذا من باب الإخبار عن الله ﷻ، فالأمر واسع..

والآن كفانا استطرادًا ولنتجه إلى استطراد آخر..

أريد أن أسألك: ما هو حاصل جمع ١+١ .. بالطبع الناتج = ٢.. لكن في علم الأدوية الطبي، فالناتج ربما يكون ٣ أو ٤..!

هذا ببساطة لأن هناك ظاهرة في علم العقاقير والأدوية تسمّى: synergism ومعناها: التآزر.. وتعني أن هناك عقارًا يعطينا نتيجة، وعقارًا يعطينا نتيجة أخرى، ولكن عند استخدامهما معًا تحصل على نتيجة أكبر من مجموع كليهما..! في هذه الحالة ١+١=٣..!

هذا هو السبب أن الكثيرين من مدمني الخمر الأوروبيين (الذين تسبب إدمانهم للخمر في أرق مزمن واعتادوا استخدام المنوّمات) يموتون من جرّاء خلط الخمر بالمنوّمات فلا يستيقظون من نومهم أبدًا.. في الماضي كانوا يظنون أن هذه حالات انتحار، قبل أن يكتشفوا ويفهموا ظاهرة التآزر هذه، هم بالفعل لم يأخذوا جرعة منوّم زائدة، ولكن جهازهم العصبي المركزي تأثر كثيرًا من هذا التآزر العنيف بين الكحول والمنومات (Barbiturates) ..

نشاهد ظاهرة التآزر هذه في التعاون والتناسق الملحوظ بين آيات القرآن وبين آيات الله في الكون.. القرآن ينبهك على جمال السماء، ولكنك لن تدرك ذلك بسهولة حتى تنظر إلى الأعلى فترى هذه السماء المحكمة..!

لذلك كانت من ضمن الوسائل التي تقودك إلى الإيمان: السمع والبصر والعقل، وعدم استخدامك لهم بالشكل الصحيح الذي يقودك للإيمان يعني أنك لم تقم بالوظيفة الأساسية التي خُلِقوا من أجلها، كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾ (الأحقاف ٢٦).. ويكون حالك حينها كمن استخدم الـ I–Pad كصينيّة لتقديم الشاي عليه للضيوف، أو كمن أهداها حبيبها ببغاءً، ثم سألها في اليوم التالي إن كان أعجبها أم لا، فأبدت تململًا حيث إن طعمه لا يختلف عن طعم الدجاج..!

ولذلك تجد أن عنصر الإبهار الكوني يتكرر في القرآن، كدعوة صريحة لك بأن تدعك من كسلك، وأن تذهب إلى أقرب شرفة وتتأمل قليلًا في خلق الله ﷻ.. ﴿**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ**

إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ (الأنعام ٩٩).. ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس ١٠١).. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت ٢٠)..

والله ﷻ قد تكفّل بذلك..! تكفّل بأن يريك هذه الآيات، بل تكفّل بأن تعرفها..! كما قال ﷻ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل ٩٣).. وعليك أنت فقط ألا تتجاهلها، ألا تعاندها، ألا تنكرها..! ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (غافر ٨١).. ؟!

فلنأخذ جولة سريعة إذن في هذا القرآن المبهر لنرى كيف حدّثنا كتاب الله عن وجود الله ﷻ...!

١- الامتلاك المتفرّد..

في ١٩٦٧ تم إطلاق معاهدة الأمم المتحدة للفضاء الخارجي، كان من ضمن بنودها بند غريب ينص على أن القمر لا يُعدّ ملكية خاصة بأي دولة من الدول..! من هي تلك الدولة البلهاء التي ستدعي أن لها الحق في القمر..؟! فكرتُ وقتها أن هذه من الأمثلة الغريبة التي تدل على أن القوانين البشرية ساذجة بحق..

ولكن الحقيقة أنه في بداية الثمانينات أرسل بائع سيارات مستعملة أمريكي يُدعى (دينيس هوب) إلى منظمة الأمم المتحدة يخبرهم أن هناك ثغرة في القانون الخاص بهم والذي ينص على عدم جواز ملكية القمر لأي دولة من الدول لكنه لم يتحدث عن الأفراد، فبالتالي هو يدّعي حق الملكية للقمر لنفسه ويطالبهم بإثبات خطئه القانوني..! بالطبع لم يردّ أحد على خطابه المتخلف ومن ثمّ أعلن دينيس هوب لنفسه بالفعل أنه يملك القمر..! أمر ظريف للغاية ولكنه سيزداد ظرفًا بعد ذلك..

قام بطباعة حقوق للملكية لبيع فدان القمر الواحد بـ ١٩،٩٥ دولار.. تغيّر السعر

بعد ذلك إلى ٣٦،٥ دولار بعد إضافة تكاليف الشحن والتوصيل لشهادة البيع وبعد إضافة (الضريبة القمريّة) التي وضعها..! ولكن يوجد تخفيضات كبيرة بالطبع لمن يشتري أكثر، مثلًا هناك من اشترى منه ٢ مليون ونصف فدان بربع مليون دولار أمريكي فقط.. صفقة ممتازة..!

أعلن هوب (الجمهورية الديمقراطية) لمالكي القمر، وعيّن نفسه (الرئيس المجَرِّي) لها، وتوسّع في تجارته بعد ذلك، وبدأ في بيع كواكب المجموعة الشمسية بعد أن ادعى ملكيتها هي الأخرى..! بالطبع كلما بعدت عن الأرض كانت أرخص، وبنفس منطق تدنّي سعر الأرض في (العاشر) بالنسبة إلى (التجمّع الخامس)..! لذلك يمكنك شراء كوكب بلوتو بأكمله من هوب بربع مليون دولار..

لقد كسب هوب أحد عشر مليونًا من الدولارات من بيع أراضي القمر، من الذي لا يريد أن يدفع عشرين دولارًا فقط لشراء فدان من القمر ويأخذ شهادة أنيقة ويعلقها في غرفة مكتبه ليمزح حولها مع الأصدقاء، هذا شيء Fantastic بالتأكيد، لذلك يُقال أن من ضمن زبائنه رؤساء سابقين مثل: جورج بوش وجيمي كارتر ورونالد ريجان، ونجوم هوليود مثل: توم كروز وتوم هانكس وجورج لوكاس، بل وشركات كبرى مثل ماريوت وفنادق هلتون..!

وبغض النظر عن كل هذه القصة المسلّية فإني أؤكد لك أن أحدًا لا يمتلك القمر بالفعل، ولا الشمس ولا الكواكب ولا النجوم.. بل ولا يمتلك أحد أي قطعة من الأرض فعلًا، فيومًا ما سيموت ويتركها لمن خلفه، وفي لحظة من اللحظات سيبيعها أحد ورثته، أو سينقطع نسله أو يضيع نسبه أو تقوم ثورة تأميم، فتأخذها الحكومة لتبيعها لمن يدفع أكثر، في النهاية فإن مليارات البشر ستتعاقب في آلاف السنين على نفس القطع من الأرض لتعيش عليها قليلًا ثم تتركها..

لا يمكنك يا هوب أن تكون مالكًا للقمر لأنه كان موجودًا دائمًا من قبل أن يتعرف جدك على جدتك، وسيظل موجودًا بعد أن تصطحب ملايينك العشرة إلى القبر.. لا يمكنك أن تزعم أنه ملكك لأنك لا تملك حتى سياراتك المستعملة القديمة بشكل كامل، فما الحديد الذي صُنِعَ منها إلا جزء من تركة الحديد التي تركها الله ﷻ للبشر يتوارثونها..!

يخبرنا القرآن بمبدأ الملكية المتفردة لله ﷻ حين يقول الله ﷻ: ﴿**قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (المؤمنون ٨٤–٨٥).. في الواقع لم تكن ثمّة إجابة أخرى يمكنهم أن يجيبوا بها غير هذه الإجابة..!

عندما وُجدنا في هذا الكون رأينا أننا موجودون في ملكية خاصة بالفعل ولكنها لا تعود إلى أي واحد منا.. هناك بالتأكيد من يملك كل هذه الثروات والمنافع ومصادر الطاقة التي تتقاتل عليها الدول، ومصادر الطاقة الأخرى التي تتنافس عليها البحوث العلمية لكي تمكّن الإنسان من الانتفاع بها..!

هذه الملكيّة لا يمكن أن تعود لأي واحد من البشر لأنهم ولدوا جميعًا بعدها.. ولسبب أقوى: أنهم لا يستطيعون التحكم فيها من الأساس.. لن يمكنني أن أزعم أنني أملك الدنيا طالما أصاب بقشعريرة ثلجيّة في ديسمبر، وأتصبب من العرق في يونيو، وأصاب بالتهاب بكتيري في جهازي التنفسي على سبيل العادة، وعيني مصابة بحساسية من ضوء الشمس الشديد..! لو كنت أنا الملك لهيَأت الأرض لتوائم ظروفي تمامًا..!

لذلك لا يستطيع أي واحدٌ منّا أن يدعي ذلك بحق، كلنا سكتنا وانتظرنا أن يدعيها أحد، فلم يتكلم غير الله ﷻ وقال: أنا المالك، حينها لم يأتِ أحد ليعارضه في ذلك، إنه الذي يملكها إذن..! كما قال ﷻ: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ (مريم ٦٥).. ؟!

٢- الهشاشة..!

في ١٩٨٨ نشر (فرانك كلوز) كتاب: (النهاية، الكوارث الكونيّة وأثرها في مسار الكون)، هذا كتاب لطيف ومبشّر جدًا، هو يشرح لك فقط بالتفصيل كيف أن الحياة على الأرض على الأرجح ستنتهي في يوم من الأيام حين ترتطم بكويكب أو نيزك عملاق من تلك المليارات التي تسير في الفضاء بشكل عشوائي –مثلما حدث مع الديناصورات منذ ملايين السنين حسب آخر النظريات قبولًا– لتسبب انفجار يقضي على الحياة في نصف الأرض ثم ينشر سحابة سوداء كثيفة من التراب إلى طبقات الغلاف الجوي لتعلق هناك لمئات السنين فتقضي على ما تبقى من حياة على الأرض ببطء.. هذا ما لم يكن الجسم الذي ترتطم به الأرض أكبر من الأرض نفسها، مثل ارتطام مجرّتين يتقاطعان في المسار الذي يدوران فيه.. حينها لحسن الحظ لن تكون هناك أي سحابات سوداء، ولكن ستفنى الأرض كلها في لحظة بالطبع..!

على أن هذا من الممكن ألا يحدث، ولكن يذكّرنا (كلوز) في نهاية الكتاب أن ما هو أكيد ومضمون أن يحدث أن الشمس ستفنى في النهاية وتتضخم للمرة الأخيرة قبل أن تنفجر تمامًا.. هذا مصير محتوم للشمس اتفق عليه كل علماء الفضاء، ويبقى أن ننتظر حدوث ذلك.. نسيت أن أقول أن تضخم الشمس يعني أن تسيح الأرض بما عليها في ثوانٍ معدودة لأن قرص الشمس ستصل حدوده إلى حدود كوكب المشترى.. وبالطبع نحن كبشر لا نملك أن نفعل شيئًا إلا أن نحاول أن نهرب قبل حدوث ذلك إلى كوكب آخر على منظومة شمسيّة أخرى ويكون مؤهلًا للحياة، وحظ سعيد لنا في فعل ذلك..!

أخبار مبشّرة، شكرًا لك يا كلوز..

بالنسبة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر فنحن نعلم يقينًا أن هناك يومًا للنهاية، وهذا اليوم معلّق بمشيئة الله وحده، تتغيّر فيه كل القوانين الفيزيائية ويتم تخريب العالم فيه تمامًا كعقد

منظّم متناسق يتم فرطه بشكل مفاجئ..

لكن ليس عليك أن تكون بالضرورة مؤمنًا حتى تعلم أننا في غاية الهشاشة، وموقفنا من ناحية القوة والضعف في غاية السوء.. التكنولوجيا الحديثة رائعة لكنها لا تصمد أمام زلازل اليابان ولا تسونامي المحيط الهادي.. والسيارات الحديثة ذات معدلات أمان عالية إلا أنها لن تسعفك إذا سقطت بها من فوق جبل أو ارتطمت بشاحنة عملاقة.. والمحافظة على الصحة بالرياضة والطعام الصحي خيار موفّق لكن بالطبع هذا لا يمنع الإصابة بالسرطان أو بمرض فيروسي غامض يقضي عليك بسرعة قبل أن يتسنى للأطباء حتى معرفة ما أصابك.. وفي اللحظة التي تجلس فيها متأملًا في ثرواتك أو أملاكك أو القرارات الحكيمة التي أصدرتها للسيطرة على المنطقة التي تحكمها في العالم، قد تكون هناك قطعة دماء متخثرة في طريقها الآن لغلق شريان رئيسي في المخ، قد لا تستطيع بسببها السير أو الكلام أو الأكل حتى بعد ذلك..

نحن في غاية المسكنة والضعف، كائنات هشّة تمامًا في هذا الكون الفسيح، وليس الفضاء المرعب بأخطر علينا من أوعيتنا الدموية التي نظن أننا نمتلكها..! وبين هذا وذاك توجد الآلاف من المخاطر والانكسارات التي قد تصيب هذا الكائن الهش: الإنسان..

هذا الفقر الكوني للإنسان والضعف المتأصّل فيه عبّر عنه القرآن بقول الله ﷻ: ﴿**إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**﴾ (سبأ ٩)..

إنها قلة الحيلة الإنسانية التي ينبني عليها ألا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا أن يقف متفرّجًا إذا أراد الله أن يهلكه..! ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ**﴾ (الرحمن ٣٣-٣٥)..

هذا الضعف وهذه الهشاشة، ليست في العجز عن منع الكوارث فقط، ولكن أيضًا في العجز عن جلب المنافع إن أراد الله ﷻ أن يوقفها.. فمن ذا الذي استطاع أن ينقذ الآلاف من رؤوس الماشية التي أُعدِمت بينما الإنسان في حاجة إلى لحمها ولبنها حين تفشّى فيها مرض كروتزفيلد جاكوب (جنون البقر)..؟! ومن الذي استطاع أن يحمي الحقول الخضراء من هجمات الجراد التي تأكل المحاصيل والإنسان في أمسّ الحاجة إليها.. بكل التكنولوجيا التي معنا ما زلنا عاجزين.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**﴾ (الواقعة ٦٣-٦٥).. لن يكون في جعبتنا إلا الصراخ والعويل..!

حين تشرب الماء من أحد زجاجات المياه المعدنية القائمة على استخلاص المياه الجوفيّة، فأنت أمام محاولة بشريّة للتخلص من السموم والكيماويات التي أهدتها الثورة الصناعية لمياه الأنهار.. والآن تخيّل لو تخلخلت طبقات الأرض وغارت بداخلها كل هذه المياه، هل تقدر أن تعيد استخراجها..؟ إن آلات التنقيب والحفر البشرية حتى الآن لا تستطيع أن تصل إلى أعماق أبعد من عدة كيلومترات.. حينها تستطيع أن تفهم قوله ﷻ: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ**﴾ (الملك ٣٠)..



بل أحيانًا أشعر أن الإنسان أكثر هشاشةً من شركائه في الخليقة، وأنه كائن دخيل على بقية الكائنات في الكوكب..! كل الكائنات من حوله تتأقلم تمامًا مع ظروفها بلا مشاكل، بينما نحن نحتاج إلى الكثير من الضبط والتغيير حتى نستطيع النجاة..

فأنت ترى الدُبة القطبية تعيش في درجات حرارة أسطورية دون أن تحتاج إلى معطف صوفي أو جورب شتوي.. وترى الثعلب الاستوائي يعيش في مناخ مجرم في حرارته دون أن تبدو عليه أعراض الـ (فرهدة) التي نراها على أوجه الناس في أتوبيسات شهر يونيو..!

تستطيع أن تتبين أن قطة منزلك قد تعيش عمرها بأكمله على البسكويت الخاص بها موحد الطعم دون أن تملّ منه، وبالطبع لم تُجرّب سمكة القرش أي أطعمة أخرى بخلاف الـ (Seafood) دون أن تشعر بأنها بحاجة إلى كوب شاي أو بعض الحلوى الجيلاتينية لتغيير مذاق الفم..

أظن والله أعلم أن البكتيريا لا تُصاب بالانهيار العصبي، وأن صرصور الحقل لا يشعر بالوحدة وبأنه لا أحد يفهمه في العالم..! أحسب كذلك أن إجراءات التزاوج بين عصافير الكناريا لا تشتمل زيارة (دمياط) ولا دهانات (يوتن)، وأن السناجب لا تفهم العلاقة الغامضة التي نفهمها نحن بين المولود الجديد وحلوى (الملبّس)..

الفكرة أننا كبشر نعاني من (الاحتياج) أكثر بكثير من أي كائن آخر، دائمًا هناك شيء ما نحتاجه كي نبقى على قيد الحياة، ثم هناك أشياء أخرى نحتاجها حتى نشعر بكمال الرفاهية التي نحتاج إليها.. وعندما تُلبّى كل رغباتنا نقوم بابتكار عادات وحاجات جديدة، ونبكي عندما لا نحصّلها..!

هذا يتفق فيه الجميع بالمناسبة، فصاحب أعلى شهادة علمية في الفيزياء التجريبية يحتاج إلى سخان ماء في حمامه، وصاحب النصيب الأكبر في أسهم مطاعم (ماكدونالدز) يحتاج إلى (ملّاحة) على سفرته، ورئيس أقوى الدول يحتاج إلى صديق أو حبيب حتى يحتفظ بمستويات الدوبامين والسيروتونين اللازمة كي لا يُصاب باكتئاب حاد..

إذًا من بين سكان الأرض نحن الأحوج والأنقص والأضعف، نحن أكثر الكائنات امتلاكًا لخلل واضح في ملكيتها لأنفسها..! لو كان أذكى كائن في الأرض بكل هذه المسكنة وقلة الحيلة، فنحن نعيش إذن في غابة مليئة بالكائنات المسكينة غير المسيطرة، وأشدهم مسكنةً هو —يا للعجب— أكثرهم غرورًا..!

هذا وحده كفيل بشعورك بوجود إله فوقك، كما يقول تعالى: ﴿**وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**

وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ۞ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل ٥٢–٥٣)..



لذلك كان هذا الفقر وهذه الهشاشة من أدلة وجود الله ﷻ، فإنك لا تشعر بقدرة الله أكبر ما تشعر بها إلا وأنت غارق في العجز حتى أذنيك، وبنفس منطق من قد لا ينبهر بأستاذه إلا حين يفك في سهولة ويسر طلاسم المسألة الرياضية العويصة التي قضى معها الليلة كاملة دون أن يهتدي للحل..! حين تتيقن من فقرك ومن فقر كل شيء حولك، يكون يسيرًا عليك أن تشعر بشعور غامض يقضي بأن هناك قوة مطلقة ما، تلجأ إليها..! كما يقول الله ﷻ: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (يونس ٢٢)..

٣- العناية..!

يقتنص طائر النوْرَس طعامه من المحيط بسهولة، وذلك لأن الله ﷻ أهداه عينين في مقدمة رأسه متجاورين كعيني الإنسان، كل واحدة من هاتين العينين ترى ثلثي الصورة ببعدين فقط: الطول والعرض.. مما يمكنه من أن يركبهما في مخه ليرى صورة ثلاثية متداخلة: الطول والعرض والارتفاع.. هذه الظاهرة تُدعى في علم البصريات: Stereopsis ، أي القدرة المخّية على إدراك العمق وخلق صورة ثلاثيّة الأبعاد من صورتيْن ثنائيتي الأبعاد.. بواسطة هذه القدرة فقط يستطيع النوْرَس أن يقتنص السمكة من المحيط بسهولة لأنه يحدد مدى العمق الذي تسبح فيه تحت سطح البحر..

على أن هذا ليس كل شيء، فلأن شعاع الضوء الصادر من السمكة ينكسر عند

خروجه من الماء إلى الهواء فإن من يراها بشكل جانبي سينخدع في عمقها الحقيقي.. أنت هنا تتعامل مع ظاهرة انكسار الضوء وهي ظاهرة يعرفها كل من يرى ملعقة في كوب من الماء فيشعر أنها مكسورة.. ما الحل لكي ترى هذه الملعقة غير مكسورة؟؟ أسمعك تقول: أنظر إليها من أعلى كوب الماء وليس من الجانب.. وهذا هو بالضبط ما يقوم به النوْرَس حيث لا ينزل للاصطياد إلا حين يرى فريسته بزاوية رأسية..!

من الذي اعتنى بهذا النورس فجعل لديه العينين المتجاورتيْن ثم علّمه أن ينظر إلى فريسته بهذه الطريقة..؟؟ ربما تقول أن هذه هي الطريقة التي خلقت عليها كل الخلائق.. لكن في الحقيقة الغزال سيخالفك الرأي.. الغزال والأرنب وغيرها من الفرائس اللذيذة التي تعيش في الغابات يملك كل منهم عينين على جانبي رأسه متباعدين، كل واحدة من هاتين العينين تشاهد صورة مختلفة عن التي تشاهدها الأخرى، هذا لا يصنع لديها صورة مجسّمة ثلاثية الأبعاد مثل التي تحتاجها الحيوانات الصيّادة، حيث إنها لا تحتاج إلى ذلك لأنها تأكل النبات أصلًا، ولو لاحظت، فالنبات لا يتحرك.. بينما عيناها وبهذه الطريقة تصنع لها صورة بانورامية واسعة المجال، يمكنها أن ترى ما يزيد عن الـ ١٨٠ درجة من مجال الإبصار بهذه البانوراما بالمقارنة بـ ١٢٠ درجة تقريبًا للحيوانات ذوات العيون المتجاورة.. هذا هو بالضبط عين ما يحتاجه الغزال كي يفر من هجمات الفهد الذي يشتهيه..!

يا لها من عناية من الله ﷻ بمخلوقاته، نجد القرآن يحدثنا عنها حين يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود ٦).. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت ٦٠)..



يمكنني أن أجول بك طوال الكتاب في أمثلة لا تُعد على عناية الله ﷻ بمخلوقاته في خلقه لهم تبعًا لما ينفعهم.. والإنسان له نصيب الأسد من هذه العناية الفائقة..!

أجهدنا أنفسنا في كلية الطب لحفظ الوضعيّة المعقدة الغريبة التي يتخذها الجنين في بطن أمه عند لحظة الولادة، هناك ميكانيزمات غامضة غير مفهومة لعلماء الفيسيولوجيا حتى الآن تجعل هذا الجنين يلتف عدة مرات على نفسه فقط حتى يتوافق مع الهيئة التشريحية لعظام حوض المرأة..! وبمناسبة حوض المرأة، فهو مليء بالأربطة والعضلات الداعمة المخصصة لتحمل ضغط التوسّع الذي يحدث له حين الولادة..

حين ينزل الطفل من بطن أمه يحصل على أجمل هديّة سيتلقاها في حياته ومع ذلك يتلقاها مجانًا، متمثلة في لبن (السرسوب) الذي نراه مقززًا متغيرًا في الشكل والسماكة، لكنه في الحقيقة مليء بكمية لا تحصى من الأجسام المضادة التي كونتها الأم على مدار حياتها وتعطيها الآن لطفلها لحمايته من الجيش الشرس الذي يتربص به من البكتيريا والطفيليات الساكنة في الأجواء المحيطة وتتمنى بالظفر بجسده الصغير..

ولو تخيلت أني وضعت أمام عينيك (فلاش كاميرا) لأصبت بحالة من العمى المؤقت.. هذا هو بالضبط ما كان سيحدث لك لو كانت كمية الضوء الداخلة إلى عينيك أكبر من اللازم، لذلك اعتنى الله ﷻ بنا وخلق لنا طبقة القزحيّة التي تسد طريق كل الضوء الداخل للعين باستثناء فتحة صغيرة قطرها ٢ مللي.. مع القدرة على الانقباض والانبساط التلقائي حسب كمية الضوء الداخلة، ففي النهار تضيق هذه الفتحة لتحميك من الهالات الشديدة، وفي الليل تتسع لتجعلك تمتص أكبر قدر ممكن من الضوء الشحيح من حولك..!

هذه الأمثلة من العناية لا يمكنها أن تقترب من جزء من الألف من الأمثلة المبثوثة بالفعل في كتب الطب والأحياء وسائر العلوم الطبيعية.. بتنا الآن على يقين من أن هناك اعتناء كامل بالإنسان.. هذا الاعتناء الذي نجده في القرآن، كما يقول الله ﷻ: ﴿**قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾ (الأنبياء ٤٢).. وقال ﷻ: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ (لقمان ٢٠).. عدة الآلاف من الأمثلة التي حدثتك عن أنها مبثوثة في الكتب،

كل هذا —مع بقية نعم الله ﷻ التي نعرفها— من جملة الأمثلة الظاهرة.. وما لم نعلمه بعد وما لن نعلمه أبدًا هو من النعم الباطنة..!



هذه العناية هي من أدلة وجود الله ﷻ.. كما تسير في الصحراء فتجد من أعدّ لك مأدبة عظيمة مليئة باللذيذ من المأكولات والمشروبات.. لحظة، بل باللذيذ الذي تحبه أنت دون غيرك من المأكولات والمشروبات..! من تراه أعدها..؟؟ ولأي غرض غير رعايتك..؟؟

لو تخيلنا أن هذا كون عشوائي لا إله فيه، فلماذا أجد فيه الماء الذي أحتاج إليه..؟! ومن أدرى هذا الكون أن هناك إنسانًا سيحتاج إلى الماء..؟؟ ولماذا هناك كل هذه الأطعمة التي أحب مذاقها وأحتاج إليها..؟؟

فتأمل معي قول الله ﷻ: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾ (عبس ٢٤-٣٢).. أصناف المأكولات التي سوف تأكلها في هذه المأدبة تم إعدادها في وقت أطول مما تظن، وكل هذا من أجل غرض واحد فقط: (متاعًا لكم ولأنعامكم)..!

تأمل مثلًا شطيرة (الشاورما) ذات الشعبية الكبيرة..! —أتحدث عن واقع مصر بشكل خاص— لا بد أن كثيرًا ممن يأكل هذه الشطيرة يشعر بمقدار من اللذة تجعله ممتنًّا بالفعل لذلك الشيف العظيم الذي مسّ شغاف قلبه، وبشكل أكبر لِتلكُمُ الجنيهات العشرة التي وجدها في جيبه صباح اليوم..

ولكني أتساءل عن عدد هؤلاء الذين سيمتنّون لسنابل القمح التي أنتجت هذا الخبز الرقيق الهشّ.. ولحمض الخلّيك الذي سمح لهم بالاستمتاع بطعم (المخلّل).. ولاجتهاد ضوء

الشمس في دوام عمله الذي لو قلّ عن ١٢ ساعة ما كانت نبتت أي حبّة بصل.. ولدرجات الحرارة العالية التي سمحت بنموّ حقول الفلفل الأخضر.. ولدرجة حموضة تربة الطماطم والتي لم تزد عن ٧ أبدًا ولو على سبيل السهو فسمحت بنموّه.. ولتلك العلاقة الحسابيّة غير المتوازنة بين وزن الدجاجة الثقيل وقوة أجنحتها الضعيفة، فجعلت ذلك الطائر اللذيذ من الدواجن الرخيصة التي تقدر على شرائها، فلا بدّ أن (شاورما الحمام) كان سيكون أغلى ثمنًا بكثير..!

كم من الناس سيفطن إلى كمّ المخلوقات التي خلقها الله ﷻ، وكم الظروف، والشروط، والمعايرة، التي ضبطها وهيّأها الله ﷻ، حتى تستطيع أن تأكل هذه الشطيرة فتشعر بلذة الشبع وانتشاء الطعم اللذيذ..!



هناك نوع آخر من العناية لا نلحظه، برغم أننا نراه عشرات المرات..! وهو العناية الإلهية بخلقه في إنزال المطر لهم..! إن الله ﷻ دائم الامتنان على خلقه بهذه النعمة في القرآن كما يقول ﷻ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام ٩٩).. غير أن الحياة المدنيّة قد أخفت عنا تلك العبرة بكل هذه المربعات الخرسانيّة والتطبيقات الذكيّة على هاتفنا المحمول والتي تصحبنا في كل مكان نذهب إليه.. حتى جعلتنا قد نتعجب أو لا نصدق الحقيقة القائلة أن كل ما نحن فيه من الحياة إنما قد نشأ عن ماء المطر..!

فسواء كنت تشرب ماءك من صنبور بيتكم أو كنت تشربه من زجاجة مياه معدنيّة، ففي كل الأحوال أنت لا تشرب إلا ماء المطر..! فمنبع نهر النيل عبارة عن بحيرة فيكتوريا العملاقة التي تتكون من الأمطار الاستوائية الغزيرة، وبنفس الطريقة التي ينبع بها نهر الأمازون من أمطار جبال الإنديز الكثيفة..! وتدّعي شركات المياه المعدنية أنها استخلصت ماءها من الآبار العميقة وليس من (الترعة) أمام مصنعهم، وعلى فرض أننا صدقناهم فمياه الآبار

ليست إلا تجمعات الأمطار التي تساقطت فوق حيوان الماموث من آلاف السنين فأسكنها الله الأرض..! كما قال ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ (المؤمنون ١٨)..

أنت تشتري عشاءك من البقالة في صورة بعض معلبات الفول والجبن الرومي وشرائح البطاطس المقليّة، لكنك في الحقيقة لم تكن لتنعم بهذا العشاء لولا ماء المطر الذي أنبت البطاطس والفول والعشب الذي تغذت عليه أنثى البقر التي تأكل لبنها في صورة قطعة جبن رومية صفراء..!

ماء المطر مسئول أيضًا عن هذا الكتاب الذي تقرأ فيه الآن، فهو الذي أنبت الشجر الذي أُخِذَ لحاؤه ليُصنع منه هذا الورق الأبيض، وهو الذي أنبت العشب الذي تغذى عليه الجاموس قبل أن نأخذ حافره ونصنع منه الغراء اللاصق الذي يربط كعب هذا الكتاب ببعضه..! وماء المطر مسئول أيضًا عن معطفك الذي تلبسه وسواء كان من الكتّان المزروع أو من الصوف المأخوذ من خروف لم يكن ليحيا لولاه.. وعن الخشب الذي يكوّن أجزاء سريرك أو مقعدك الذي تجلس عليه الآن.. وعن أصواف السجادة التي تزيّن غرفتك.. بل وحتى عن الوقود الذي يملأ خزان سيارتك، فما هو إلا زواحف عملاقة مدفونة منذ ملايين السنين كانت في شبابها أيضًا تحيا بماء المطر..!

إنها القوة التي أودعها الله ﷻ في قطراتٍ بسيطة.. إنه الخيط الذي يربط دُمَى (الماريونيت) المغرورة التي تدعي أنها كائنات ذكيّة قادرة على غزو الكون.. إنه دليل الرحمة الذي لم يقطعه الله عنا منذ خلقنا برغم كل ما نقوم به من إمعان في الفساد في الأرض.. إنه برهان الفقر والضعف، إنه دليل العجز والحاجة، إنه التذكير لنا بأننا وبرغم شهادات بوسطن ومصانع موسكو وناطحات سحاب دبيّ، سنظل دائمًا في حاجة إلى إمدادات السماء التي اختص الله وحده بعلمها ولم يجعل علمها عند أحد، لا مَلَك مُقرَّب ولا نبيّ مُرسَل..! إنه الدليل على أننا لا نملك شيئًا ولكننا برغم ذلك لا نحتاج إلا لله..! كما يذكرنا

الله ﷻ بذلك في قرآنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ (لقمان ٣٤).. وكما يمتنّ علينا سبحانه فيقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر ٢٢)..



المرض له قصة أخرى أكبر وأعجب.. لماذا يجد الإنسان نبات (ستّ الحسن) Atropa belladonna فيستخلص منه الأتروبين القادر على إنقاذ الآلاف من الناس حين يصابوا بنوبة اعتلالية تثبيطية عن طريق الجهاز العصبي الباراسيمبثاوي..! من جديد تتلاقى الحاجة الإنسانية مع وجود بُغيته في الطبيعة..!

لماذا نجد نبات الأفيون Opium فنصنع منه معظم المسكّنات القوية التي يعرفها الإنسان..؟؟ حين ترى مريض السرطان الذي يئنّ من الألم ثم يأخذ قرص المسكن السحري فيصير قادرًا على مواصلة حياته الباقية في سلام، فلتعلم أنها رحمة الله ﷻ الذي خلق له هذا النبات منذ الأزل وأسكنه ذات الأرض التي يعيش عليها..!

بل لماذا هناك شفاء للأمراض أصلًا..؟ وسواء كانت تُشفى من تلقاء نفسها مثل نوبات الالتهاب الرئوي، أو كانت تُشفى بسبب الجهاز المناعي الجبار الذي نتمتع به مثل معظم أمراض العدوى والطفيليات، أو كانت تُشفى بسبب هذه العقاقير المستخلصة من النباتات أو الحيوانات أو الكيماويات المبثوثة أيضًا في الوجود..؟! إنها عناية كاملة من الله ﷻ والذي قال عنه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء ٨٠)..



ماذا عن الصناعات المتقدمة..؟؟! منذ أن بدأ الإنسان يكثر في عدده علم أنه يحتاج إلى المزيد من الصناعة لملاقاة حاجة كل هؤلاء، بحث في الطبيعة فوجد فيها ما يلائمه..! مثل السيليكون الذي صنّع منه الترانزستور واستخدمه بعد ذلك في كل صناعاته

الإلكترونية.. مثل لحاء الشجر الذي صنّع منه الورق واستخدمه في تخليد المعرفة الإنسانيّة.. مثل الإيثيلين الذي استخلصه من النفط وصنّع منه أوعيته البلاستيكية.. ومثل الحديد الذي يصنع منه سياراته وقطاراته وآلات مصانعه العملاقة.. من جديد يحدثنا القرآن أن الله ﷻ قد اعتنى هذه المرة بالإنسان أيضًا ووفّر له ما يلائمه من هذه المتطلبات الصناعيّة.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ (الحديد ٢٥)..



وحين تسير بسيارتك الحديثة على الطريق الصحراوي وتضطر إلى الوقوف في صحراء مقفرة لأن سيارتك قد نفد منها الوقود.. حينها تفكر في أهمية مصادر الطاقة حقًا.. لم تكن تعيرها هذا الاهتمام حتى لاحظت أنك بدونها ضائع في الصحراء تمامًا بينما جالون صغير من الوقود كان سيوصلك بأمان إلى بيتك..! حتى لاحظت أنه لا يوجد شيء واحد يتحرك في هذا الكون من دون أن تكون هناك طاقة نابعة من إحدى قوى الكون الأربعة..! حتى لاحظت أن الدول إنما تتصارع وتتقاتل وتقوم وتسقط لتسيطر على مصادر الطاقة..!

ماذا عن هذه الطاقة..؟ أين هي من عناية الله ﷻ..؟ يمكنك أن تلاحظ أن هذه العناية لم تنقطع، منذ أن كان اعتماد الإنسان في مصادر طاقته على نار الحطب البسيطة، فخاطبهم الله ﷻ في القرآن وقال: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ**﴾ (الواقعة ٧١-٧٢)..

هي عنايةٌ من الله ﷻ حين أنشأ هذه الشجرة وجعل جذعها يحتوي على المواد العضوية الكافية لكي يطيل عملية الاحتراق، يستطيع حينها الإنسان أن يشعلها ليطهو عليها طعامه أو يحصل منها على دفئه في الشتاء أو يصنع منها ما يحتاج إليه..

وبعد أن تقدم الإنسان بدأ يحتاج إلى ما ينتج الطاقة الأكبر، فاكتشف أن عناية الله الفائقة كانت أسبق حين أسكن الله ﷻ الملايين من هذه الأشجار في باطن الأرض منذ

آلاف السنين فتحولت إلى فحم قامت بسببه وعلى أثره الثورة الصناعية..

ما زال الإنسان يحتاج إلى المزيد.. وما زال يكتشف أن الله ﷻ لم تنقطع عنايته عنه لحظة، ها هو يكتشف المزيد والمزيد من بحيرات النفط في باطن الأرض الناتجة عن تحلل الحيوانات المقبورة في باطنه منذ آلاف السنين.. ليستخلص منه الكيروسين والغاز الطبيعي وأنواع الوقود المختلفة للسيارات والطائرات... إلخ

نظر حوله فوجد أن شلالات المياه والرياح والطاقة الشمسيّة هي طاقة مخلوقة منذ القدم ولكنه لم يدرك ذلك، بدأ يولد منها الكهرباء ويستخدمها لإدارة مصانعه ومنازله..

وحين يفنى هذا النفط فإن الإنسان ما زال محاطًا بعناية الله من خلال حقول اليورانيوم التي يمكنه أن يخصّبها ليحصل منها على طاقة نووية جبارة تفوق كل ما سبق.. وحين يحتاج إلى المزيد والمزيد في المستقبل فالله أعلم كم ما سيكتشفه من مصادر طاقة خلقها الله ﷻ وأودعها في أرضه لعناية ذلك الإنسان الهشّ..!



كل تلك العناية إنما تدل على أن الإنسان ليس بمفرده، وإنما هناك إله يحوطه ويرعاه، ويعطيه كل ما يريد من قبل حتى أن يسأله، إنه وكأن كل حاجة كانت عندك قد أجابك الله ﷻ عنها من قبل حتى أن تعاني من فقدها..! إنه وكأن كل رغبة لديك وجدتها وقد لُبّيت كانت سؤالًا سمعه الله منك وأجابك، كما قال سبحانه في كتابه: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (إبراهيم ٣٤)..

الفرق الوحيد أنه لم يضطرّك فعلًا إلى السؤال قط..!

٤- الوجود كما اعتدناه..!

يدّعي (طه حسين) في رواية الأيام أنه يدرك أول لحظة وعى فيها على الوجود، لا أعلم إن كان ذلك صحيحًا أم لا، ولا أعلم إن كان ممكنًا أصلًا أم لا.. عن نفسي، فأنا قطعًا لا أملك الذاكرة لتلك اللحظة الحدّية التي تفصل بين اللاوعي والوعي، أو بين النسيان والتذكر، ولا أستطيع أن أجزم بأول ذكرى لي أو أول شعور كان عندي..! أنا موجود منذ فترة لا بأس بها، هذا هو كل ما أعلمه..!

أثناء هذه الفترة وجدت الكثير من الأشياء التي اعتدتُ على وجودها، الكثير من الخلائق من حولي.. أسير في زحام ميدان (العتبة)، أو في الحرم في إحدى ليالي رمضان، أو في أحد الأسواق التجارية الحافلة بالبشر، لأدرك أن هذا خلق كثير.. ومن صُنع مقارنة يسيرة بين هذا العدد وبين العدد المفترض في كل بقاع العالم، أدرك أننا أكثر بكثير مما نتخيل، ويتبين لي حينها أن رقم (سبعة مليارات) –الذي نقرأه عن تعداد البشر دون أن نتخيله فعلًا– هو رقم كبير بالفعل..!

عليك حينها أن تفكر في كل هؤلاء البشر الذين ماتوا في طاعون القرون الوسطى وحروب التتار والحروب العالمية الناتجة عن غرور قادة أوروبا المخابيل، أو الذين ماتوا في ظروف عاديّة، أو هؤلاء الذين عاشوا قبل أن يتعلم التاريخ التسجيل.. الأعداد مخيفة.. تتناسب هذه الأعداد مع الآية التي تذكرنا بأن: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ (البقرة ٢١).. ونفهم حينها رد موسى عليه السلام الذي سُئِلَ: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الشعراء ٢٣).. قال: ﴿**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ (الشعراء ٢٦)..!



على أن أكثر ما يثير العجب أن كل هؤلاء البشر، إنما صُنعوا بنفس الطريقة المعتادة، طريقة التناسل والتكاثر التي نعرفها جميعًا.. ولا توجد وسيلة أخرى لصنع كائن بشري غيرها،

اللهم إلا أن يكون معجزة من الله ﷻ قد أتت لتحدي البشر بأسباب أخرى غير الأسباب المعتادة لهم كحالة عيسى ابن مريم عليهما السلام..

وكان من نتاج هذه الطريقة أن كان التواصل البشري قائمًا على قاعدة الأرحام المتفق عليها بين جميع البشر، هذه من أمثلة الوجود المعتاد الذي لا نعرف غيره..! هذه الطريقة التي تحدث عنها الله ﷻ فقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾ (الفرقان ٥٤)..



ليس هذا وفقط، ولكننا لاحظنا أيضًا في دروس الأحياء أن جميع المخلوقات الحية تحتاج إلى الماء كي تبقى على قيد الحياة، هناك مثال أو مثالَيْن لكائنات تكسر هذه القاعدة فقط لأن أجسامهما تحتوي كل كمية الماء المرَادَة، لذلك تقتصر مهمة ناسا الآن في البحث عن الماء على كوكب المريخ، لأن جميع علماء الأحياء يعلمون أن الماء = إمكانية الحياة..

يمكنك أن تتعرف على أن هذه هي الطريقة التي خلق الله ﷻ عليها المخلوقات من قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنبياء ٣٠)..



ثم ماذا عن الأزواج..؟ هذه الطبيعة الزوجيّة لكل الكائنات..! مثل الذكر والأنثى من كل شيء تقريبًا من النباتات والحيوانات باستثناءات قليلة.. ومثل النور والظلمة، الجمال والقبح، الشغل والفراغ، الصحة والمرض، الموت والحياة، الحق والباطل، الصدق والكذب، حتى الخلية الحية تحوي أيونات الصوديوم الموجبة وأيونات الكالسيوم السالبة، حتى الذرة تحوي البروتونات والإلكترونات، بل وحتى المادة وضديد المادة، والطاقة الموجبة والطاقة السالبة..!

إننا أمام نظام زوجي متكامل للحياة بأكملها، واحد من الأمثلة الكثيرة على أناقة الكون Elegancy ونظامه وتحديه للعشوائية.. هذه بالتأكيد طريقة مختارة من الله اعتدنا على وجودها، كما يقول ﷻ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات ٤٩).. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس ٣٦)..



ممّا اعتدنا عليه في الوجود أيضًا الطريقة التي نحسب بها الأيام والشهور والسنين، والطريقة التي نقسّم بها ساعات اليوم تبعًا للنهار والليل، الطريقة التي تجعلك تعلم ما المقصود من أن تقول لك محطة القطار: سينطلق القطار في السابعة مساءً، أو ما المقصود من أن يُذكّرك المحاضر أن الاختبار سيكون في يوليو القادم، أو ما الذي يعنيه أبوك حين يعدك بأن يزوّجك في العام القادم..! ما الذي يعنيه الزمان وتقسيماته، لماذا اعتدنا على أن نقسّمه بهذه الطريقة..؟؟

هذا الزمن لم نكن نستطيع تقسيمه لولا أننا نعلم المدة التي تدور بها الأرض حول نفسها فحددت لنا مقدار ما نعنيه بكلمة (اليوم)، والمدة التي تدور بها حول الشمس، فحددت لنا ما المقصود بكلمة (السنة).. وما كنا لنتفق على هذا لولا أن هذه المدة ثابتة لا تتغير..

ربما اعتدنا ذلك بسبب الطريقة التي خلق الله ﷻ عليها الوجود حين قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (يونس ٥)..

على أن هذا غير كافٍ، لا بد من نوع اتفاق بين البشر على الطريقة التي سيقسّمون بها هذا الزمان، وإني أظن أنك مهما رجعت للزمن لن تستطيع أن تجد أول من استخدم

أيام الأسبوع السبعة التي نعرفها، ولا أول من قسّم السنة إلى اثني عشر شهرًا..! كل هذا من الوجود المعتاد الذي خلقه الله ﷻ ولا دخل للإنسان بتحديده، كما قال ﷻ: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾ (التوبة ٣٦)..



يأخذنا القرآن إلى ما هو أبعد من ذلك.. إلى الملاحظات اليومية التي نراها في الحياة، وسواء لم نعرف سببها في حالة الأعرابي الذي نزل عليه القرآن أو عرفنا سببها في حالة الإنسان الحديث الذي منّ الله ﷻ عليه وعرّفه على قواعد علم الفيزياء.. فإن كلًا منا يعرف أن هذه الظواهر موجودة منذ خلق الله ﷻ لهذا الوجود الذي نعرفه...

تأمّل مثلًا قول الله ﷻ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۞ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**﴾ (الفرقان ٤٥–٤٦).. ينبهك إلى مشاهدة فعل الله ﷻ في حركة الظل الذي اختار للضوء حين خلقه ألا يمرّ من الأجسام المعتمة تاركًا وراءه بقعة كبيرة غير مضاءة تتحرك مع حركة الجسم.. من الذي اختار للضوء أن يسلك هذا السلوك..؟؟ إنما هي هكذا..!



وهكذا، تلاحظ أنه الوجود المعتاد الذي لا نعرف غيره منذ أن تعرفنا على الحياة.. إنها الطريقة التي اختارها الله ﷻ لتصريف هذه الدنيا ولا بد لنا من اتباعها.. ألا يدل ذلك على إرادة عليا تقف وراءها..؟! ألا يدل ذلك على إله لطيف يسيطر على كل هذا..؟!

٥- الجمال..!

لا يوجد ما يمنع من أن تضع تخيلًا بديلًا في ذهنك لمظاهر الحياة من حولك.. تخيّل مثلًا لو صحوْت من نومك على صوت رديء مثير للاشمئزاز، هو صوت العصافير على الشجرة القريبة من نافذة غرفتك..! تخيل لو قمت وفتحت النافذة ثم وجدت ملمس الهواء على بشرتك مقززًا وغير مريح على الإطلاق..!

تخيل لو نظرت إلى السماء فوجدت لونها (فوشيا)..! ثم نظرت إلى الأشجار فوجدت لونها أسود..! تخيل لو أصلًا لا توجد ألوان، وكل شيء درجة من درجات الرمادي..!

تخيل لو أن كل البشر يشبهون القردة، أو أن كل الحيوانات تشبه الفأر..! تخيل لو كان أنفك تحت إبطك..! أو كانت عيناك فوق سرّتك..! تخيل لو كل ما تأكله له طعم واحد، يبقيك على قيد الحياة ولكن له طعم الطين..! تخيل لو كل المشروبات الساخنة بطعم زيت الخرْوَع، أو أن كل الأزهار لها رائحة السمك..!

تخيل لو كانت الحياة بدون جمال..؟ هل تستقيم..؟ بالطبع تستقيم..! كل شيء سيكون في موضعه، كل الحياة المادية ستستمر كما هي، كل الحياة ستمضي ولن يعطلها شيء..

لماذا لم يحدث ذلك إذن..؟؟ الحقيقة أن هذا الجمال إنما هو من أدلة وجود الله ﷻ، الذي هو جميل يحب الجمال سبحانه.. لذلك تجد أن القرآن يحدثنا عن مظاهر هذا الجمال..!

سواء كان جمال الحيوانات: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾ (النحل ٦).. أو كان جمال النباتات والأشجار: ﴿**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ (ق ٧).. أو كان جمال الحدائق الملتفّة والمتنزّهات: ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا**﴾ (النمل ٦٠).. أو كان

جمال السماء: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق ٦).. أو كان جمال اختلاف الألوان وبهجتها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ (فاطر ٢٧-٢٨).. أو جمال الإنسان نفسه وصورته: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن ٣)..

الأعجب من هذا الجمال هو إحساسك به..! لماذا تشعر بجمال اختلاف الألوان في أزهار الربيع بينما تتقزز من نفس الاختلاف اللوني في مقلب القمامة..؟! إنه جهاز الاستقبال الإنساني المضبوط على كيفية فهم الجمال والشعور به..! كما يحدثنا القرآن فيقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر ١٦).. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة ٦٩)..

لماذا عليك أن تؤمن بوجود إله..؟؟

أعطني تفسيرًا آخر لوجود الجمال في الحياة إذن..!

٦- روعة الاتّزان..!

في عام ١٧٩٨ نشر القسّ الإنجليزي (توماس روبرت مالتوس) كتابه الشهير جدًا: مقالة عن السكان، وسبب أنه شهير جدًا أن (داروين) قد تأثر به إلى أبعد حد مما جعله يصل إلى نظريته الخاصة بأن الصراع من أجل البقاء كان هو السبب وراء حدوث التطور من هذا الكتاب..!

قال مالتوس في الكتاب أن أعداد السكان تتزايد في العالم بشكل رأسي، بينما تتزايد الموارد الغذائية والرقعة المزروعة فيه بشكل أفقي، ومن ثمّ -حسب مالتوس- سيأتي على

البشر زمان يتقاتلون فيه من أجل لقمة العيش، وتشتعل الحروب من أجل السيطرة على الغذاء.. نظرية مثيرة للاهتمام عمومًا، غير أن مالتوس كان مخطئًا في ثلاثة أشياء..!

أول هذه الأخطاء أنه أساء تقدير القدرة الاستيعابية للأرض، فحسب مالتوس مثلًا لا يمكن أن تستوعب الجزيرة البريطانية أكثر من عشرين مليون إنسان.. بينما بعد صدور كتابه بمئة وخمسين عامًا استوعبت الجزيرة البريطانية ثلاثة أضعاف هذا العدد..

الخطأ الثاني كان الافتراض القائم على أنه طالما نحن نزداد في العدد الآن فسنظل نزداد إلى ما لا نهاية حتى يأكل بعضنا بعضًا..! وهو افتراض لدى الكثيرين الآن ممن يصرخون باستمرار: العالم كان ثلاثة مليارات في ١٩٦٠ وصار سبعة مليارات في ٢٠١٥ مما يعني أننا سنصير أربعة عشر مليارًا خلال الأربعين سنة القادمة..!

علماء الإحصاء الآن يتحدثون عن نظرية بديلة، فكما يقول عالم الإحصاء السويدي (هانز روزلينج) فإن هناك انخفاضًا شديدًا حدث بالفعل منذ ١٩٨٠، وهذا الانخفاض استمر منذ ذلك الحين ولم ينكسر في الثلاثين سنة الأخيرة..! والسبب الذي يجعلنا لا نشعر بهذا الانخفاض، بل نشعر بالزيادة، أننا نعيش الآن ما يسمّى بالفجوة الإحلالية الكبرى، وسببها الرئيسي انخفاض معدل الوفيات.. وأن هذا سيؤدي بنا إلى الوصول إلى رقم عشرة مليارات ومن ثمّ يغلب الظن أن عدد البشرية سيثبت تقريبًا على ذلك.. يُتوقع لنا أن نصل إلى (التوازن) خلال الثلاثين سنة القادمة..!

على أن الخطأ الأكبر الذي وقع فيه مالتوس في توقعاته، أنه توقع الزيادة الغذائية ستكون بطيئة خطية تزداد بشكل أفقي فقط رغم أن التطور الكبير الذي حدث في التكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية فيما يعرف باسم الثورة الزراعيّة أتاح للبشرية أن يحصلوا على أضعاف الإنتاج الغذائي من نفس المساحة الزراعية..!

على سبيل المثال اجتاحت أيرلندا في أربعينيات القرن التاسع عشر مجاعة رهيبة كان

سببها أن فطرًا أصاب البطاطس بـ (اللفحة)، هذه المجاعة عُرِفت باسم (مجاعة البطاطس)، وكان سببها أن الظروف الاقتصادية السيئة دفعت ثلث سكان أيرلندا إلى الاعتماد على البطاطس كغذاء رئيسي.. نتج عن هذه المجاعة موت مليون أيرلندي وتهجير مليون آخر..! أي فقدت ربع سكانها مرة واحدة.. وتسبب هذا في تغيير فاصل في تاريخ أيرلندا، بسبب هذه اللفحة..!

بينما تمكن العلماء مؤخرًا باستخدام (البيوتكنولوجي) من أن ينقلوا جينًا من البرسيم إلى البطاطس يجعلها مقاومة لهذا الفطر، وهكذا تم الحفاظ على المحصول..! المشكلة التي سببت كارثة إنسانيّة، قد تمكن الإنسان بفضل ربه من القضاء عليها تمامًا..! هذه تجربة شبيهة بنقل الجينات المسئولة عن تكوين (البيتاكاروتين) إلى الأرز فيجعله غنيًا بفيتامين أ مما يكفي لتحصين الكثير من أطفال دول العالم الثالث من العمى..

هذا غير التهجين الطبيعي الذي جعلنا نتعرف على سلالة القمح الصلد مثلًا (الذي تفصل منه قشوره بسهولة والذي يصنع منه المكرونة)، ثم تهجين آخر نتج عنه قمح الخبز العادي الذي نأكله ويعطي لعجينة القمح الخصائص المتفردة التي تجعلنا نشكله في الكثير من المخبوزات المختلفة..!

عندما وصل العالم إلى حدود فوضويّة في ظنهم اكتشفوا أنهم كانوا فقط على أعتاب طفرة جديدة من التوازن الإلهي الذي أقرّه الله ﷻ على هذه الأرض.. والذي قد يختل في ظروف معيّنة وأوقات معيّنة أمام أعيننا ظاهرًا لحكمة يعملها سبحانه.. ولكن تبقى سنته الماضية وبشكل إجمالي عام لكل ما يخص هذه الأرض هي التوازن..!

هذا التوازن الذي أخبرنا القرآن أن الله ﷻ لا يسمح بنقيضه، والذي يتغلغل كل شيء في هذه الحياة بدءًا بأعداد الأحياء والأموات على الأرض وقابليّتها لاستيعاب الناس جميعًا: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**﴾ (المرسلات ٢٥-٢٦).. وانتهاءً بالتوازن في

كميات النباتات والزروع: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر ١٩)..

التوازن الذي يتجلى أيضًا في التقدير الحكيم لكل شيء خلقه الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان ٢).. كمثال على هذا التقدير تأمّل في دورة المياه..!

لو كانت الكمية النازلة لنا من السماء من الماء أكبر لصار هذا معناه مدن غارقة، ومحطات لتوليد الكهرباء فاسدة، وبيوت مهدّمة.. ولو كانت أقل فهذا معناه مواسم جافّة يشعر بها الفلاح الذي يريد أن يروي حقول أرزه بدون تقتير..! لذلك فهذا التقدير المحكوم قد ذكرنا الله ﷻ به فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (المؤمنون ١٨)..



يمكنك أن تتأكد بنفسك من هذا التقدير بزيارة جناح الحضّانات Neonates في أي مستشفى للولادة، ستلاحظ عدة أطفال متراصّين في علب بلاستيكية كبيرة تخرج منها الخراطيم ويكادون يشبهون مخلوقات روزويل الفضائية، وقبل أن تشعر بالفزع منهم سأذكّرك أن هؤلاء أطفال طبيعيين ولكنهم مضطرين للبقاء هنا عدة أيام أو أسابيع أو شهور للإبقاء على حياتهم، فقط لأنهم وُلِدوا مبكرين عن موعدهم بأسابيع قليلة Preterm لذلك هم غير قادرين على مواصلة الحياة كما يقدر غيرهم.. حينها يجب عليك أن تتذكر ما قاله لنا القرآن من تقدير الوقت في خلق هذه الأجنّة: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (المرسلات ٢٠-٢٣)..

هناك من يرعى هذا التوازن بالتأكيد.. هناك من يحرس هذه المقادير..!

٧- إحكامٌ فائق..

اعتقد السكان القدماء لجنوب أستراليا أن خالق الشمس إنما قذف بيضة نعامة إلى

السماء، فأضرمت النيران في مجموعة حطب كانت تتسكع هناك لسبب ما، فكانت هذه هي قصة نشأة الشمس..! هذه قصة عظيمة تبيّن المحاولات البشريّة الذكيّة لتفسير الظواهر الطبيعية..

لكن (البوشمان) الذين يعيشون في صحراء كالاهاري قد تفوقوا عليهم باكتساح، فهم يعتقدون أن (الإله) قذف بحذائه إلى السماء فثبت هناك وأصبح هو (القمر) الذي نعرفه..! الجميل أنهم يقولون أن الإله قد اعتزل منصبه بعد هذه الحركة..! يبدو أن إلههم لم يستطع احتمال أعباء الحكم دون حذائه المفضّل..

أصحاب هذه الأساطير كانت لديهم على ما يبدو مشاكل عقليّة خطيرة، إلا أنهم كانوا يملكون مقدارًا كافيًا من الحكمة ليعلموا أن الحياة لا يمكن أن تستمر إلا لو كانت مضبوطة تمامًا بنفس الظروف التي عهدناها عليه..

خذ عندك مثلًا الصينيين الذين يحكون عن زمن أثناء حكم سلالة (هيسا) قبل ميلاد المسيح عليه السلام بألفي عام، أنه حدث تغير مفاجئ في السماء وظهرت عشرات الشموس في الفضاء مما جعل حياة الناس على الأرض مستحيلة، فأمر الإمبراطور أحد رماة الأسهم المهرة أن يقوم بإسقاط هذه الشموس بواسطة أسهمه..! الغريب أنه قد نجح في هذا بالفعل بزعمهم، فكافأه الإمبراطور بحبّة نباتية لو تناولها لنال بسببها الخلود، ولكن زوجته سرقتها منه فقام بنفيها بسبب ذلك إلى القمر..! يا له من حظ حسن أن يملك إمبراطور صيني قديم معاهدات تحالف عسكرية مع القمر، فلتنعم هذه الخائنة بخلودها على سطح القمر البارد إذن..!

ولكن ما الذي جعل هؤلاء الصينيين –العاكفين على الأفيون فيما يبدو– يفهمون الأضرار الحاصلة على الحياة الأرضية لو ظهرت عشرات الشموس في السماء..؟! بالتأكيد لم يكونوا على دراية بالتأثيرات الخطيرة لعدة شموس حول الأرض على التشوّه الزمكاني تبعًا

لنظرية النسبية العامة، ولم يكونوا يعرفون أن وقوع الأرض في عدة مدارات حول عدة نجوم سيمنع انتظام الحرارة على سطحها، ويجعلها تدمن الوقوع في مناطق متطرفة الحرارة إما باردة جدًا أو ساخنة جدًا..! ولم يكونوا حتى يعرفون بخطر زيادة الأشعة فوق البنفسجية UV والتي تسبب عتامات في عدسة العين وسرطان في الجلد وتغيّرات مزاجيّة.. لربما فقط كل ما يعلمونه ما يبدو من الظاهر من أن عدة شموس ستجعل الكوكب أكثر حرارة بما لا يحتمله البشر، وبرغم أن هذا ليس بالضرورة صحيح، إلا أنه يبقى أمرًا محتملًا بقوة..

لكن لم يكن علينا أيها الصينيون أن نبتكر كل هذه القصة لنثبت أننا محظوظون بشمسنا..! فنحن نعلم الآن أن وقوع (حظنا) في نجم متوسط الحجم كان مناسبًا تمامًا للمعدّل المتوازن الذي تفنى فيه الغازات المكوّنة للشمس، هذا المعدل يتناسب بشكل طردي مباشر مع حجمها، بمعنى أن لو كانت الشمس أكبر لجعلها ذلك تفنى قبل أن يتسنى للأرض أن تكون عليها حياة مستقرة دافئة..!

هذا ليس كل شيء، فالأرض أيضًا في موضع مثالي تمامًا بالنسبة إليها.. الشريط الصغير الذي تقع فيه الأرض حول الشمس والذي يُدعى باسم Goldilocks Zone ضيق للغاية، لا بد للأرض أن توجد في هذا الشريط –الذي هو صغير جدًا بالمقارنة بالمسافة التي تفصلها عن الشمس– بحيث لا ترتفع الحرارة فيها للدرجة التي تتبخر بسببها مياه المحيطات ولا تنخفض للدرجة التي يتجمد بسببها كل شيء عليها.. وجود الأرض في هذا الشريط الضيّق كان بسبب حسابات دقيقة جدًا تمت لكتلتها وحجمها وشكلها شبه الكروي، لو كانت هذه الأشياء مختلفة لاختلفت سرعتها وتغير موقعها حول الشمس.. فهل يمكننا أن نعتبرها صدفة سعيدة أخرى..؟!



هناك مثال آخر، وهو ما يعرفه علماء الفيزياء باسم (ثابت الجاذبيّة)، وهو عبارة عن

رقم دقيق جدًا مسئول عن اتّزان المعادلات التي نستخلص منها قوة جاذبيّة جسم ما لجسم آخر.. هذا الثابت أدقّ مما تتخيل بكثير، حيث إنه لو تم الاختلاف فيه بمقدار جزء واحد من $١٠^{٦٠}$ جزء، لكان هذا معناه ألّا يكون هناك أي واحد منا على قيد الحياة..!

لكي تتصور ذلك، تخيّل لو أتينا إلى رجل وعهدنا إليه بمهمة أن يكتب في كل (ثانية) تمرّ عليه رقمًا على ورقة، وظل يفعل ذلك لمدة... ٤٠ مليار عامًا..! العدد الذي سيقوم بكتابته في النهاية (لك أن تتخيل ضخامته)، لو اختلّ فيه رقم واحد فقط عن رقم آخر، لكان هذا معناه أن يتغيّر ثابت الجاذبية..! أي يتضخّم الكون كله بشكل أسرع ممّا يسمح بتكوّن حياة، أو أن ينهار سريًعا وينكمش على نفسه.. بمعنى آخر كون غير مستقرّ أصلًا بالقدر الكافي لوجود حياة بداخله..!



ليس هذا هو المكان المناسب لذكر الأمثلة والشواهد على الكون المضبوط..! فالواقع أن هذه حقيقة مسلّم بها بين علماء الفيزياء والفضاء وبغض النظر عن موقفهم الديني: الكون بكل ما يحويه من فضاء شاسع وغازات متناثرة وأغلفة واقية وأجسامنا الحية التي تمثل عوالم متعددة في حد ذاتها، كل هذا مضبوط تمامًا على مقاساتنا..!

فكما يقول عالم الفيزياء الفلكية البريطاني (مارتن ريس): "أينما ينظر الفيزيائيّون يروا أمثلة على المعايرة الدقيقة".. ويقول عالم الفيزياء الملحد الشهير (ستيفن هوكنج): "الحقيقة الملحوظة أن قيم هذه الأرقام تبدو وكأنها مضبوطة بشكل جيد للغاية حتى تسمح بإمكانية صنع الحياة"..! ويقول العالم الفيزيائي البريطاني أيضًا (ديفيد دويتش): "لو ادّعى أي أحد أنه غير مندهش بالمواصفات الخاصة التي يملكها الكون، فهو يدفن رأسه في الرمال..! هذه المواصفات الخاصة مُدهِشة وغير مُحتَمَلة"..!

بينما أبرز علماء الفضاء في القرن العشرين (فريد هويل) والذي كان من أنصار فكرة

الكون الثابت –الموجود منذ الأزل بطريقة ما– حتى إنه عارض بشدة نظرية الانفجار الكبير والتي تفترض أن الكون المشاهَد له بداية، وكان هويل نفسه هو الذي أطلق عليها هذا الاسم: (الانفجار الكبير Big Bang) على سبيل السخرية منها، دون أن يعرف أن هذا الاسم سيثبت على النظرية للأبد..! برغم أنه كان غير مؤمن بالله ﷻ، إلا أن (هويل) كان يرى أن الضبط المحكم للكون لا يمكن إلا أن يعني وجود ذكاء خارق في مكان ما من الفضاء هو المسئول عن ذلك..! مع ذلك لم يكن يحب – لسبب ما – أن يعترف بوجود الله..! كما يقول : "التفسير العقلي السليم للحقائق يقترح أن هناك ذكاءً خارقًا يسخر من الفيزياء..! وأن الأمر لا يستحق أن نتكلم حتى عن احتمالية وجود قوى طبيعية عمياء في الكون..! الأرقام التي يحسبها المرء من الحقائق الموجودة تبدو لي ساحقة للغاية لدرجة أن تجعل هذا الاستنتاج مُنزّهًا عن مجرد السؤال"..!

هذه الدهشة العارمة التي تصيب هؤلاء – الملحدين منهم قبل المؤمنين بوجود الله – كانت وستظل أبدًا الغصّة الأمرّ في حلوق كل من ينكر وجود مُدبِّر حكيم لهذا الكون..! بينما المؤمنون لا يزدادون بهذه الحقائق إلا طمأنينة ويقينًا بإلههم الذي أحسن كل شيء خَلَقه..!



فيحدّثنا القرآن عن هذه الحقيقة حين يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الملك ٣).. ويقول ﷻ في آية أخرى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة ٦–٧)..

بل ويشرح لنا ما السبب في هذا الإحكام الذي نراه من حولنا..! كما يقول الله ﷻ: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل ٨٨).. إنه العلم والحكمة والإتقان والإحسان الذي يتجلى في خلق الله ﷻ كله..

فحين تتأمل في كل ما هو مضبوط في هذه الحياة، في كل ما هو محكم الصنع ومتقن الإنشاء، في كل عيب كان من الممكن أن يكون هناك ولم يوجد قط، حينها لا تتيقن فقط في وجود الله ﷻ ولكن أيضًا في خبرته وحكمته وإحسانه.. حينها لا يبقى من درن شكوكك شيء..!

٨- اخـتلاف..!

من بين أجمل الأكلات في الحياة: البيتزا الإيطالية..! وبرغم أنها تبدو طعامًا (إمبرياليًّا) للغاية، وتكاد تشعر في مذاقها طعم الحياة الغربية نفسه، إلا أنه في النهاية لا يوجد ما قد يمنعني من هذه الأكلة اللهم إلا أن تكون بطعم التونة التعيس..

في المرة القادمة التي تأكل فيها إحدى شرائح البيتزا فعليك أن تلاحظ ذلك المزيج الجميل في طعم المكوّنات المختلفة من صلصة الطماطم وشرائح الفلفل الأخضر وقطع الزيتون الأسود وعجين الدقيق وفطر عيش الغراب.. ما يصنع هذا المذاق الفريد هو التجاور بين المذاقات المختلفة لهذه النباتات المتباينة في فمك..

وهو أمر يثير العجب لو لاحظت في الكيفية التي نبتت بها كل هذه النباتات من نفس التربة ونفس الماء الذي يرويها ونفس الطلّة الشمسيّة التي تمدها بالطاقة كل صباح..!

هذه المعجزة التي تحدث عنها القرآن، حين قال الله ﷻ: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (الرعد ٤)..



تنظر إلى لمحة أخرى من هذا الإبداع وهذا الاختلاف والتنوّع حين تتأمل في كم

المخلوقات الموجودة في الأرض..! ربما أنت تسكن في المدن فلا تكاد تعلم غير (الدجاج والكلب والحمار والخيل وأنواع الماشية).. ربما أنت تسكن في إحدى قرى الصعيد فرأيت (البط والأوز والحمام) أيضًا.. ربما أنت من أهل دول الخليج فتعرف (الصقر والضبّ والإبل).. على كل حال فمهما كان محل سكنك فإنك تستطيع أن تمسك بموسوعة (التاريخ الطبيعي) من إنتاج مؤسسة (سميثسونيان) المشرفة على متحف التاريخ الطبيعي في واشنطن.. وقتها ستعلم أنك لا تعرف شيئًا حقًا عن العالم الطبيعي الموجود من حولنا على الأرض..

هذه المخلوقات منها ما يعيش في الماء ومنها ما يعيش على الأرض ومنها ما يتجول بين الإثنين.. منها ما يطير ومنها ما يمشي ومنها ما يسبح ومنها ما يجمع بين جميع تلك المواهب.. منها ما هو لذيذ الطعم ومنها ما هو شرس الطبع ومنها ما هو سام اللدغات ومنها ما هو سريع الخطى.. منها ما يصطاد بالحيلة ومنها ما يصطاد بالقوة ومنها ما لا يصطاد أصلًا ولكن يأكل من خشاش الأرض.. وفي أعماق البحار هناك عالم آخر لم نكتشف معظمه بعد..! وأما ما في السماوات من هذه المخلوقات فالله به عليم..!

هذا التنوّع الخلقي الكبير تحدث عنه الله ﷻ فقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ**﴾ (الشورى ٢٩).. بل وتحدث القرآن عن الإعجاز في الاختلافات بينهم فقال ﷻ: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (النور ٤٥)..



إنه الإبداع الإلهي الذي جعل في الحياة كل هذا التنوّع والاختلاف.. التنوّع الذي يمكنك الشعور به في التأمل في وجوه البشر، سبعة مليارات من البشر لا يتطابقون شكلًا مع بعضهم البعض..! فحتى التوائم المتماثلة تستطيع أمهاتهم التفريق بينهم بلمحة خفيّة

تحت الحاجب أو فوق الشفة العليا..! إنه الإبداع التصويري مرة أخرى والذي تحدث عنه الله ﷻ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران ٦)..

ماذا عن بصمة اليد..؟! كل الخبراء الجنائيين يعلمون أن الخطوط والدوائر الصغيرة التي تشكّل شكلًا مميزًا على جلد الإنسان لا يتكرر إلى يوم الدين، كل البشر حيّهم وميّتهم يملك كل واحد منهم بصمة متفرّدة تميّزه عن الآخرين، وبنفس الطريقة التي يتميز بها بالنمط الفريد للاختلاف التضاريسي الدقيق على قزحيّة عينه، أو في بصمة صوته، أو في طريقة مشيته..! كل هذه اختلافات بين البشر، يبدع الله ﷻ مع كل خلق من خلقه فيها..



وماذا عن اختلاف لغات البشر ولهجاتهم..؟ ليس فقط بين اللغات المختلفة التي يقال أن عددها يصل إلى سبعة آلاف بحسب منظمة اليونسكو.. ولكن أيضًا في اللكنات واللهجات بين أبناء اللغة الواحدة..!

كنا نظن أن هناك إنجليزيّة واحدة مثلًا، ولكننا اكتشفنا أن هناك الـ (Posh accent) التي يتحدثها بعض الإنجليز الذين يُشار لهم بالرقي وهم يشربون شاي الساعة الخامسة، وهناك اللهجة التي كانت خاصة بطبقة العمال الفقيرة (Cockney accent)، واللهجة الدارجة (Standard English)، ولهجة السود (BVE).. ناهيك عن أهل مقاطعة (ويلز) الذين ليسوا فقط ذوي لكنة إنجليزية خاصة، وإنما لهم لغة أخرى مغايرة للإنجليزية تمامًا..

ثم هناك الإنجليزية الأسكتلندية وهي نوع من إلقاء الطوب وليس الكلام..! وهناك الإنجليزية الأيرلندية وهي نوع من السباب الغليظ لا أكثر..! وهناك الإنجليزية الأسترالية التي هي شيء مختلف تمامًا برغم أنها نفس المصطلحات اللغوية..! حين يكون (الحصان الميّت) تعبير يعني (الكاتشب)، و(لا تبصق الدمية) معناه: (أشعر بالأسف من أجلك)..

ثم هناك بالطبع الإنجليزية الأمريكية، والتي تختلف تمامًا تبعًا للجهة الشرقية أو الغربية من أمريكا، وإني أؤكد لك أن سكان (تكساس) يتم التعرف عليهم في (نيويورك) بالسهولة ذاتها التي تتعرف فيها على مصري سوهاجي في الإسكندرية..!

ما سبب هذا الاختلاف اللغوي الشاسع..؟ في سفر التكوين العبراني وردت محاولات لتفسير كيفية اختلاف ألسنة البشر إلى هذا الحد.. زعموا أن هذا كان عقابًا من الإله الذي لم يحب محاولات صنع برج بابل الذي ينوي الوصول إلى السماء، فقام الله ﷻ بـ (بلبلبة) لسانهم وفرّقهم في الأرض: (وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً، وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ...... قَالَ الرَّبُّ: «هُوَ ذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ.. هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ»...... لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ) (سفر التكوين ١١: ١-٩)..

بدأت الفقرة بالحديث عن ارتحال مجموعة من البشر، من هم..؟ بالتأكيد هؤلاء الذين كانوا في الفقرة الأخيرة التي سبقت هذه مباشرة: (هؤُلاَءِ بَنُو سَامٍ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَأَلْسِنَتِهِمْ بِأَرَاضِيهِمْ حَسَبَ أُمَمِهِمْ.. هؤُلاَءِ قَبَائِلُ بَنِي نُوحٍ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ بِأُمَمِهِمْ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَفَرَّقَتِ الأُمَمُ فِي الأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ) (سفر التكوين ١٠: ٣١-٣٢).. فبحسب سفر التكوين نفسه هؤلاء الذين بنوا برج بابل كانوا متفرّقين في الأرض بلغات وأنسال مختلفة بالفعل.. هذا تناقض بيّن يجعلنا نتشكك في صحة القصة كلها..!

الحقيقة أن هذا (التبلبل) اللساني قد تم غالبًا على مر العصور المختلفة، فكما انحدر البشر كلهم من نسل آدم عليه السلام، انحدرت كل اللغات من لغة واحدة، واختلفت وتنوعت وأثر بعضها على بعض، كل ذلك جزء من عظمة الوعي الإنساني القادر على الابتكار

والتنويع والتكيف مع متطلبات بيئة جديدة تتطلب لهجة مختلفة أسرع أو أبطأ، أغنى بالمصطلحات المعقدة أو أفقر، مليئة أكثر بالمقاطع الصوتية أو أقل..!

مرة أخرى نحن أمام معجزة تنويعية من الله ﷻ بديع السماوات والأرض، القائل ﷻ في قرآنه: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾ (الروم ٢٢)..



هذا التنويع لا يشتمل على اللون واللغة فقط، ولكن في الطباع والعادات والأعراف بين أهل الثقافات المختلفة، مما يجعلها تدخل في باب الغرائب والنوادر من كثرة ما يتعجب أهل الثقافات المختلفة حين يتعرفون على بعضهم البعض..!

ولا أظن أن صدرك قد يتسع لاستطراد آخر في وصف هذا التنويع الذي تجده مبثوثًا في كتب علم الاجتماع بشكل معقد ممل وتجده في أدب الرحلات بشكل أكثر بساطة ومتعة.. ولكن هذا لا يعني أن أتركك قبل أن تسمح لي باستطراد صغير في ذلك..!

فلديك مثلًا أهل البادية والصحراء في موريتانيا فإنهم اعتادوا أن يتعاملوا بالملح الجبلي محل العملات والذهب والفضة لقيمته الكبيرة عندهم.. بينما الصوماليون يقسّمون الذبيحة لأفراد العائلة حسب مواقعهم، فمن المعروف أن فخذ الذبيحة للفتيات العازبات، بينما الرقبة والحلقوم للمتزوجات..! وهذا خبر غير سعيد للمرأة المتزوجة في الصومال ويعني أنها ستموت من الجوع على الأرجح..

ربما تكون المتزوجات في قبائل (الهوتنتوت) الأفريقية لها مكانة أعلى حيث يقتصر حضور حفلات الزفاف عليهنّ دون العازبات، تلك الحفلات التي يُعد فيها طقسًا أساسيًا أن يقدّم كل من الزوجين (بقرة) لحماته كنوع من إظهار الاحترام..!

هذه لا شك من لمحات هذا الخالق العظيم الذي قد نوّع بيننا إلى هذا الحد، كما قال ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح ١٣-١٤).. أي خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أو أنه قد نوّع بينكم في الأخلاق والأحوال والصفات..



ولكن هذه الاختلافات ليست بين القبائل والمجتمعات المنفصلة فحسب، وليست حتى فقط بين أبناء المدينة الواحدة، ولكن أيضًا بين الإنسان وبين نفسه..! فهناك نوع من التغيّر والتطوير لا شك يخبره هذا الإنسان في نفسه دون أن يفطن مع مرور الوقت..!

مثل الاختلاف في المرحلة العمريّة وما ينتج عنه ذلك من تغيّر في القوة والضعف: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم ٥٤)..

والاختلاف في أحوال هذا الإنسان نفسه، وهذا أوضح من أن أشرحه، فكل إنسان يشعر به حتمًا..! فعبور ذلك الحاجز الشفاف الموضوع بدقة بالغة بين مرحلة (الشباب النفسي) وبين (الكهولة النفسية)، هذا العبور لا تفطن له في البداية ولكنك تفاجأ بعد التغير رقم ١٣٦ أنك لم تعد نفسك بشكل كامل..!

مرحلة الكهولة النفسية تشعر بها حين تدرك أنك لم تعد تفضل مشروب (الشيكولاتة الساخنة) كثيرًا، وأنك بدلًا من هذا بدأت تفهم كيف تتلذذ باليانسون والقرفة.. حين يتغير نمط قراءاتك، فتبدأ في التلذذ بالكتاب الدسم المعقد عن ذلك الكتاب البسيط الواضح.. حين تبدأ في الاهتمام بأقوال ابن عباس في الآية أكثر من أقوال ابن عاشور.. حين تبدأ في النفور الطبعي من المبالغات وأصحابها، وتبدأ في التشكك من ذلك الذي يبدو واثقًا في رأيه أكثر من اللازم.. حين تتعلم كيف تجتنب مواطن الجدل لأنك تعلم أنها تنتهي دائمًا بانتصار الطرفين وبخسارتهما أيضًا..! حين تكون قد أخذت بعض دروس الحياة، وتنتظر في قلق

باقيها.. حين يمتلئ غلاف قلبك الداخلي بالكثير من الندوب والعلامات التي أحيانًا تعبر عن أناس وضعوا على شفتيك ابتسامة، وأحيانًا يضعون الدموع.. تعبر عن آمالك الخائبة، وعن نجاحاتك غير المتوقعة.. تعبر عن ذكرياتك السعيدة وتلك التي كانت مؤلمة أكثر من اللازم.. تعبر عن مفاجآتك بالكثير من البشر، ومفاجآتك أكثر بنفسك أنت..! مرحلة تذكرك بأنك لست متحكمًا في نفسك ولا ذاتك.. بل أنت بذاتك تتغير..!

فكيف لا تؤمن أنك مفطور على الحاجة، مقهور على الضعف، مجبور حين تنكسر، مكسور حين تتجبر، مسرور وقت الطاعة، مستور وقت العصيان..؟! كيف لا تتذكر حينها قول الله ﷻ: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۝ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الانشقاق ١٦-٢٠)..؟؟! كيف بعدما ترى المتغيرات من حولك، وترى كل شيء يركب طبقًا آخر بعد طبقه.. وتعرف أنك نفسك من الآفلين، كيف لا تؤمن بعد ذلك بدوام وجه رب العالمين..؟!



هذا الإله البديع الذي ليست لديه طريقة واحدة ولا شكل واحد للخلق ولا طريقة واحدة للأحياء في معيشتهم.. هذا الإله الذي أرانا هذا التنويع في أنفسنا قبل أن نراه في غيرنا.. هذا الإله الذي يبدع في كل حين شكلًا جديدًا ونمطًا جديدًا للحياة.. هذا إله يحب أن يرينا من آياته، ولكن الكثيرين منا غافلون..!

٩- طاعة الوجود..

(راندال مونرو) هو شخص أمريكي ظريف وفيزيائي شاب، قام بإخراج كتاب في ٢٠٠٩ عنوانه: (ماذا لو..؟؟) في هذا الكتاب فائق المتعة يحاول الإجابة بشكل علمي بحت

عن الأسئلة الغريبة (المتخلّفة) التي قد تراود أذهاننا..! استقبل أسئلة الناس فعلًا على بريده الإلكتروني، وبدأ في الإجابة عنها بشكل دقيق..

أسئلة مثل: ماذا سيحدث لو ضرب البرق رصاصة منطلقة في الهواء..؟! لو اختفى DNA شخص فجأة، كم من الوقت سيمضي حتى يموت..؟! لو قفزت من طائرة ومعي أنبوبة هيليوم وبالون لنفخه، من أي ارتفاع علي أن أسقط حتى يتسنى للهيليوم نفخ البالون بشكل كافٍ كي أهبط بسلام..؟! ومن أي ارتفاع عليّ أن ألقي بقطعة لحم حتى تهبط إلأى الأرض مطهوّة من حرارة الاحتكاك..؟! كم مكعبات الليجو التي تحتاجها لبناء جسر من لندن لنيويورك..؟! وما هو أطول غروب للشمس يمكنك مشاهدته في حالة قيادتك على الطريق بالالتزام بحدود السرعة القانونية..؟! وماذا لو اتصلت برقم تليفون عشوائي وقلت: (يرحمكم الله)، ما هي احتمالية أن يكون هذا الشخص بالفعل كان قد عطس للتو..؟!

كان راندال ينطلق بعدها في وضع القوانين والأرقام والمعادلات والرسوم التوضيحية، ليصل في النهاية لإجابة كل سؤال بشكل حاسم.. طوال الكتاب كان ينتابني شعور بالانبهار.. منبهر بخيال البشر الذي أوصلهم لهذه الدرجة من الغباء..! ومنبهر ببراعة الكاتب الذي كتب هذا الكتاب في وقت فراغه أثناء دراسته، بدلًا من أن ينشغل بمحاولة تحطيم النسبية كأي طالب آخر في بلادنا يحاول إثبات نفسه.. ومنبهر بالعلم التجريبي الذي يعرف الكثير ويبدو كموظف أرشيف في أواخر الخمسينيات ينظر لك بمزيج من الخبرة والملل من فوق نظارة القراءة.. ومنبهر قبل ذلك كله بأناقة الكون نفسه..!

لماذا توجد أحكام سائدة في كل ركن من أركان هذا الكون العملاق..؟! لماذا تحكمه نفس القوانين..؟! لماذا يستطيع طالب جامعي أن يحسب مصير رصاصة منطلقة من مسدس (تسعة مللي) حين تضربها صاعقة برق..؟ لماذا يتصرف البرق أصلًا في كل مرة بنفس سرعته

ونفس طاقته المعلومة..؟ لماذا يمكننا حساب الرقم الدقيق لقوة الجاذبيّة الشمسيّة أو حجم الأرض أو المقدار الدقيق لثابت (بلانك)..؟! لماذا نعرف أن سرعة الضوء تساوي تمامًا: ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ متر في الثانية، وأن نسبة كتلة البروتون إلى كتلة الإلكترون في الذرة تساوي تمامًا: ١٨٣٦،١٥..؟! لماذا لا تجرؤ أي واحدة من قوى الطبيعة على مخالفة القانون الثابت الموجود في كتاب فيزياء مهترئ في حقيبة طالب نحيل ذاهب لمدرسته على ظهر (توكتوك)..؟!

إنها نفس الدهشة التي أصابت (آينشتاين) حين قال أن أكثر ما أدهشه في الكون أنه مفهوم..! إنها نفس الأناقة الكونية التي خلبت لُب (ستيفن هوكنج) فلا يكف عن الحديث عنها بصوته المعدني ونظرته المترددة.. إنها نفس المشاعر التي وقعت في قلب (كارل ساجان) لما انطلق يكتب الكتب والوثائقيات ليعرّف الناس على عظمة الكون ويبرر ذلك بأنه قد وقع في الحب..!

إتقانٌ كامل من مُوجد هذا العالم في إسباغ قوانينه، وإقرار سيادتها، وإحكام فاعليتها في خلقه..! إتقانٌ في (تقعيد) كل حركات الطبيعة، ووضع الحدود الملزِمة لكل قواها فلا تقدر على مخالفة سيدها..! حين نرى الفيزياء شاهدةً على طاعة كل الوجود..!



لا يجب عليك أن تكون مثل داندال ولا آينشتاين كي تدرك سيادة القوانين في الكون..! يمكنك أن تلمس ذلك بنفسك في الواقع حين تضطر إلى تغيير أسلوب حياتك بالكامل مع بداية كل صيف أو شتاء، بعد أن تكون قد تعودت عليه أخيرًا..! حين يتغير المناخ فتضطر إلى أن تغير موعد نومك، واستيقاظك، ومشروبك المفضل، والفاكهة التي تصحبها إلى فراشك، والملابس المعلقة وراء الباب، وعدد المرات التي تضطر فيها لزيارة (حمّام) بيتكم..!

ما يثير الإعجاب حقًا أن كل هذه التغيرات التي يضطر كل منا إلى صنعها بحياته كانت

نتاج تغير زاوية ميل أشعة الشمس على أحد نصفي الكرة الأرضية..! فقط زاوية الميل تصنع بنا كل هذا..! قانون واحد بسيط صغير أودعه الله ﷻ الكون وقت خلقه.. ولكنه يتحكم في كل شيء يتعلق بك وعمّا إن كانت رائحة المانجو ستنبعث من أصابعك مساءً أم رائحة البرتقال..!

عندما تسمع عن الراكب المسكين الذي غرقت به سفينته في عرض البحر فمات من الظمأ على قطعة خشب طافية، فتذكّر مدى قوة قانون مشاكس صغير كقانون الذوبان والذي جعل ملايين الأمتار المكعبة حوله من مياه البحر الذائب فيه الملح غير صالحة لإرواء عطش من يحتاج إلى كوب واحد..! عندما ترى ممثلة كانت تخلب لب الرجال، وقد بلغت من العمر المئتين من السنين وقد صار وجهها يخيف صغار السن وكبار السن ومتوسطي السن، فتذكّر حينها مدى فاعلية وثبات قانون الشيخوخة الذي سنّه الله تعالى في خلقه..!

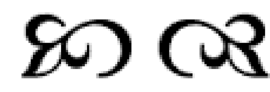
حاول أن تلحظ بسمة قانون الجاذبية المتشفية في هاتفك (الآيفون) الجديد بعد تهشمه على الأرض.. أو تلحظ النظرات الشريرة على وجه قانون القصور الذاتي بعد أن تسبب لتوه في قتل شاب نسي أن يربط حزام أمانه.. أو تلحظ روعة قانون الغليان في كوب الشاي الممتع وقت العصاري..!

طاعة الوجود هذه قد نبهنا إليها القرآن ونبهنا على مدى دلالتها على وجود إله حاكم يخاف منه الجميع ولا يجرؤون على مخالفته.. بالأحرى هم لا يستطيعون مخالفته، فطاعته هي الشيء الوحيد الذي يجيدون فعله..! كما قال ﷻ: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾ (آل عمران ٨٣).. ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (فصلت ١١)..

هذه هي الشفرة التي خلق الله ﷻ الكون عليها، كل قانون من هذه القوانين هو مظهر لقيّومية الله ﷻ لخلقه وقهره فوقهم ورعايته لهم.. لذلك يحدثنا القرآن عن أفعال الله ﷻ

والتي تعرّفنا على (جزء) من الأسباب الكامنة وراءها من خلال هذه القوانين..!

يمكننا أن نقرأ الآية: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**﴾ (الملك ١٩).. فنفكر في قوانين الحركة الميكانيكية والقصور الذاتي التي وصفها نيوتن والتي سنّها الله ﷻ وجعلت هذا الطائر لا يقع على الأرض حين يقبض جناحيه..! ونقرأ الآية: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ (يونس ٢٢).. فنفكر في حفظ الله لنا من خلال قانوني الجاذبيّة والطفو وغيرهما..



حتى في غير القوانين الفيزيائية يمكننا أن نلحظ السيطرة الربوبيّة على كل شيء في الكون من حولنا.. هذا الكون الذي يخبرنا القرآن أنه سيصير إلى الزوال الفوري في اللحظة التي يمنع الله عنا فيها قيّوميته وحفظه..! كما قال ﷻ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾ (فاطر ٤١)..

لذلك يمكنك أن تتأمل من حولك فلا ترى في هذا الوجود إلا آثار هذا الحفظ وهذه الرعاية الربوبيّة منه سبحانه..!

تلبس قميصك الأبيض قبل الذهاب للعمل فتفكر في حقول القطن التي رواها الله ﷻ بالمطر..! تجلس على مائدة طعامك فتفكر في البحر الهادر الذي سخره الله لنا والذي لولا ما يمدنا به من ملح لكنت تأكل الآن شيئًا شبيهًا بالصابون..! تقرأ في صفحات كتابك البيضاء فتفكر في الدبابير التي أوحى الله إليها بأن تمضغ لحاء الأشجار ثم تصنع منه بيوتًا كرتونية، ليتعلم منها البشر كيف يصنعون الورق..! تتحكم في درجة حرارة غرفتك بالـ (ريموت كونترول) فتفكر في العلاقة بين الكهربيّة والمغناطيسية التي حددها الله ﷻ فأنتجت هذه الموجات الكهرومغناطيسية البديعة.. تعبث بأصابعك على شاشة هاتفك الذكيّ فتفكر في السليكون الذي أسكنه الله ﷻ الأرض وجعل له صفاتٍ كهربائية خاصة للغاية، ليتمكن

البشر من تحويله إلى الترانزستور الذي تقوم عليه صناعاتهم الإلكترونية.. تتأمل في واجهة بنائك العملاق لتفكر في الصحراء التي خلقها الله ﷻ غنيّة بال (زلط) الذي ساهم في تكوين هذه الخرسانة المسلّحة.. تشرب من زجاجة المياه المعدنية فتفكر في الغزال الذي خلقه الله ﷻ ثم أقبره في باطن الأرض من ملايين السنين ليتحول إلى نفط يستخلص منه البشر (الإيثيلين) ويحولوه إلى تلك الزجاجات البلاستيكية الصغيرة.. تنظر إلى مرآة سيارتك الجانبيّة لتتفادى الصدام مع هذه الشاحنة العملاقة فتحمد الله على أنه قد خلق لك ضوءًا يتمتع بخاصية الانعكاس على الأسطح اللامعة..!

يمكنك أن تقوم بهذا التأمُّل طوال اليوم.. تنظر إلى كل شيء في حياتك بنظرة مختلفة، نظرة خارج الصندوق بحق كما يقولون..! تتجاوز حواسك التي تضع تصوّرًا محدودًا جدًا للموجودات من حولك.. وتتجاوز حدود تفكيرك القديمة إلى حدود أبعد.. وتصل في النهاية إلى الحقيقة التي أودعها اللهُ الكونَ من حولنا..

وهي أن كل شيء منه وإليه.. وأن له الملك وحده.. وأن له الأمر وحده.. وأن له الحمد وحده.. حينها تفهم مدى عظمة هذا التساؤل القرآني: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللّه أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام ١٦٤)..؟!

١٠- الاهتداء..!

كانت درجاتي في الثانوية العامة هي درجة الكلية بالضبط... وأتذكر أنه في امتحان مادة (اللغة الألمانية) كان هناك سؤال: اختر mcQ، حللته بأسلوب أقرب لل (حادي بادي) ثم تبيّن أن حلي كان صحيحًا..! أي أن كل حياتي في هذه الكلية بأشخاص عرفتهم ومعلومات أثرت فيّ ومشاكل اجتذبتني ومزايا اكتسبتها.. كل هذا كان ليتغير فقط لو أن أغنيّة (حادي بادي) أدت إلى اختيار آخر..!

أحيانًا يأخذني تفكيري إلى ما هو أبعد من هذا.. فأنا أشعر أنني موجود.. موجود بشدة لو صح التعبير..! لكن ماذا عن أبي وأمي اللذيْن هما من محافظتين مختلفتين وتعرّفا على بعضهما البعض في محافظة ثالثة في ظروف شديدة الندرة..؟! كل تلك المسارات التي أدت إلى التقاء أمي بأبي وهي كثيرة بحق.. ماذا لو كان تغيّر منها مسارٌ واحد..؟!

وماذا عن تلك المسابقة الشرسة بين ملايين الحيوانات المنوية لينجح منها واحدٌ فقط، ويكون أنا..؟ ماذا لو كان قد نجح زميله الآخر الذي تأخر عنه ببضع أجزاء من مليون من المتر..؟ كان طولي سيختلف، وجهي سيختلف، طريقة تفكيري ستختلف، كنتُ لأكون إنسانًا آخر..!

ملايين الاختيارات العشوائية والخطوات العبثية –كما قد تبدو لنا، وهي ليست كذلك– أدّت إلى تلك المجموعة المعقدة من الاحتمالات التي أدعوها مجازًا: حياتي..!

حينها أتذكر قول النبي ﷺ في دعاء الهمّ والحزن عندما يقول: (نَاصِيَتِي بِيَدِكَ).. والناصية هي مقدمة الرأس.. أشرف ما بالإنسان.. والله ﷻ يقودها كما يشاء ويوجه أفعالي حيث شاء..

يهدينا الله ﷻ جميعًا لأقدارنا.. هذه واحدة من معاني الربوبية هي اختيار الله ﷻ لمصيري بالطريقة التي يحبها، كما يقول ﷻ في القرآن على لسان نبيّه هود عليه السلام: ﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (هود ٥٦)..!



واحدةٌ أخرى من معاني هذا الاهتداء الربوبي، هي تلك الاهتداءات إلى المصالح والمنافع..! من علّم الطفل الرضيع أن غذاءه متوفّر وموجود في ثدي أمه..؟! ومن علّم

الحيوان المنوي الخريطة الجغرافيّة المعقّدة التي عليه أن يسير حسبها حتى يصل من مهبل المرأة إلى قناة فالوب لكي يلتقي بالبويضة ويخصّبها..؟! ومن عرّف العصفور بالطريقة الهندسية التي يتبعها ليبني عشّه من أعواد القشّ الجافة..؟! أو عرّف الأرنب البرّي بطريقة الالتواء والانحناء والجري في مسارات ملتوية أثناء الهرب من الثعلب، وأن هذا سيصعّب على الثعلب الذي يجري في مساره المستقيم أن يمسك به..؟! من الذي علّم أسراب الطيور المهاجرة من كل مكان في العالم إلى وجهة محددة، من علّمهم هذه الوجهة..؟! وكيف يصلون إليها..؟!

نوعيّة هذه الاهتداءات حكى عنها القرآن حين يقول الله ﷻ مثلًا: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل ٦٨-٦٩)..

إنها الهداية التي اختصّ الله ﷻ بها وبدونها لا يهتدي خلقه لما ينفعهم.. الهداية التي اعتبرها القرآن منّة ليست ككل المنن، وعطيّة ليست ككل العطايا.. فبالرغم من أنها شيء من الأشياء، إلا أنها ليست ككل شيء، تستحق عطفًا منفصلًا في قوله ﷻ: ﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ (طه ٥٠).. أي أعطى خلقه كل شيء، ثم تفضل عليهم بأن أعطاهم أيضًا الهدى..!



في قصة (هنزل) و (جريتل) الألمانية، التي هي من المفترض أنها قصة أطفال برغم بشاعتها، تحكي عن امرأة أقنعت زوجها أن يترك أولاده في الغابة ويرحل لِيَتُوها ولا يستطيعا العودة للبيت فيوفّرا لقمة عيشهما..! استطاع الطفلان الوصول في النهاية للبيت لأن الولد الصغير كان ذكيًا كفاية لأن يترك من خلفه فتات خبز على الطرق فيميّز الطريق الذي سار به مما مكّنه في النهاية من الوصول إلى بيته وإنقاذ نفسه هو وأخته.. بالطبع لقد مرّا في

المنتصف على بيت ساحرة كانت تريد شيّهما والاستمتاع بهما على العشاء لكنها في النهاية قصة لطيفة بحق..!

فتات الخبز هذه تكون دائمًا مبثوثة وبشكل طبيعي في الأرض، فالتضاريس المحفوظة التي لا تتغير، والطرق الثابتة التي لا تتبدل، والجبال التي يعرف الناس بها الطريق ثابتة لا تبرح مكانها، لولا ذلك لكان الناس يمشون في ذات الطريق عشرات المرات فلا يمكنهم حفظه أبدًا، وبنفس الطريقة التي تاهت بها امرأة في الصحراء لأنها كانت تُعلّم مكان زوجها بسحابة فوقه..! لذلك يقول الله ﷻ في كتابه: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (الأنبياء ٣١)..

والسبب الأكبر وراء هذا الاهتداء كان في الطريقة التي حدّد بها الإنسان الأول الجهات الأربع: الشمال والجنوب والغرب والشرق.. والتي اعتمد عليها بعد ذلك في عمل (البوصلة) والملاحة.. هذه الجهات الأربع عرفها الإنسان من حركة النجوم، ومن التشكيلات المميّزة التي جعلها الله ﷻ تتشكل بها وأوحى إلى الإنسان أن يستخدمها في تحديد جهاته، مثل مجموعة وعاء الدب الأكبر ومجموعة أوميجا والرجل السابح، ومعرفة النجم القطبي.. في المرة التالية التي تكون فيها على ظهر طائرة وتتعجب من الطريقة التي يستطيع بها الطيّار أن يصل إلى وجهته في هذه السماء المظلمة، فتذكّر أن الإنسان قد بنى أجهزة ملاحته اعتمادًا على هذه الجهات الأربع.. مرة أخرى يمتنّ الله ﷻ علينا بهذه الهداية، فيقول: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (النحل ١٦)..!



في عالم عشوائي متخبط لا يوجد له صاحب ولا راعي ولا رقيب، سيصبح هذا الاهتداء الكوني من المعضلات..! لماذا كل شيء مرتّب ومنظّم إلى هذا الحد..؟؟ الإجابة: لأن الله أعطى كل شيء خلقه ثم هدى..

١١- المشاعر..!

ماذا يحدث لو تم نقل المشاعر الإنسانية إلى الجماد..؟!

هذا هو ما تخيله (براين ألديس) حين كتب قصة أدبية قصيرة بعنوان: (الألعاب الفائقة تستمر طوال الصيف)، بطل هذه القصة إنسان آلي طفل تمت برمجته على فهم الحب، فأصبح يحمل للسيدة التي اشترته مشاعر الولد لأمه، غير أن (أمه) هذه لم تستطع أن تبادله نفس الحب فتخلت عنه.. هنا يبقى هذا الجماد إلى الأبد غير قادر على التوقف عن الحب، غير قادر على ملاقاة محبوبته، غير قادر على نسيانها..!

كانت قصة حزينة بحق، شبيهة إلى حد كبير برواية أخرى لكاتب الخيال العلمي الأمريكي الروسي/ إسحاق أزيموف.. الذي كتب في ١٩٧٦ رواية (رجل المِئَتي عام) وفيه يحكي عن إنسان آلي لديه حلم واحد فقط: أن يتحول إلى إنسان..! ويختبر في حياته الطويلة الإحساس بالمشاعر الإنسانية..

تلك الحيرة لدى هؤلاء الأدباء أصاب علماء الطب أضعافها وهم يحاولون وضع النظريّات لشرح المكان الذي (يشعر) في الإنسان، ما مكان الضحك أو الحزن أو الحب أو الخوف..؟؟ وضعوا بالفعل (تصوّرات) مقبولة لكنها ما زالت غير مؤكدة بعد.. وفي حالة تأكدنا من العضو المسؤول عن هذا الشعور أو ذاك، فسيبقى لدينا اللغز الأكبر: كيف تتم استثارته..؟!

يعني لماذا تحكي لصديقك دعابة فيعتبرها سمجة وينظر لك بازدراء، بينما نفس الدعابة قادرة على إغراقك في الضحك حتى الأذنين..؟ لماذا تبكي المرأة حين لا يتزوج البطل التركي الوسيم محبوبته في النهاية، بينما يبكي الرجل لأن لاعبه المفضل فشل في اقتناص ضربة جزاء في بطولة أسبانيّة..!

هذه المشاعر ليست شيئًا ماديًا بالتأكيد..! إنها لغز فلسفي أتى من نفس العالم الذي أتت منه اللغز الأكبر: الروح..! لذلك يقول الله ﷻ في كتابه: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء ٨٥)..

لذلك اعتبر القرآن هذا الضحك والبكاء مظهرًا من مظاهر القدرة الإلهية..! كما يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى**﴾ (النجم ٤٣).. واعتبر شعورك بالاطمئنان والراحة والحنين في بيتك نعمةً من نعم الله ﷻ الذي خلق لك هذا الشعور الدافئ وربطه لك بهذا المكان..! كما تقول الآية: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا**﴾ (النحل ٨٠)..



غير أن ما يأخذ نصيب الأسد من تلك الألغاز هو لغز شعور الحب نفسه..! الحب شيء محيّر وغير مفهوم لكل العلماء التجريبيين، ربما فقط يفهمه الأدباء والشعراء ولكن لا يقدر على فك ألغاز شفراته علماء الطب أو الفيزياء أبدًا..!

الحب يعني القدرة على التضحية بسعادة، والشعور بالألفة والارتباط، والشعور بأن بوصلة قلبك تتجه إلى مكان ما رغمًا عن أنفك..! الحب يعني أن ينطبع إنسان إلى الأبد في البطانة الداخلية لذاتك.. يعني أن تتلاقى نغمتك الروحيّة بمعجزة غير مفهومة مع نغمة أخرى ذات تردد مختلف تمامًا عنك وبرغم ذلك تتشكلان من جديد لبعضكما البعض..!

لذلك اعتبر القرآن الحب خصّيصة من خصائص القدرة الإلهية..! كما يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ (الأنفال ٦٣).. واعتبره آية من آياته: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الروم ٢١).. واعتبره نعمة جليلة من نعمه يمتنّ بها على عباده: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ (الأعراف ١٨٩)..

أتريد إقناعي أنك لا يتملكك الإحساس بالله ﷻ حين تَخبُر هذه المشاعر..؟!

١٢- الإنسان المُرفّه..!

منذ اللحظة الأولى التي اكتشف الإنسان فيها أنه لا شيء وسط الكون الفسيح، منذ خمسة قرون من الزمان وبعد أن اكتشف صانع النظارات الهولندي (هانز بيرشي) بالصدفة أنه يمكنه أن (يلعب) بترتيب العدسات المحدّبة والمقعّرة، ليصنع منها تلسكوبًا يكبّر الأشياء البعيدة..! وحين جاء (جاليليو) واقترح: لماذا لا نوجّه هذا التلسكوب إلى السماء.. ومع تطور هذه التليسكوبات حتى وصلت إلى تلسكوب (كيبلر) ثم (هابل)، نكتشف كل يوم أن هناك المزيد والمزيد من تلك الأجرام الضخمة التي لا نساوي شيئًا بجانبها.. نتعلم كل يوم أن الكون أوسع مما كنا نظن في اليوم الذي قبله..! وأن السبب الوحيد الذي لا يجعلنا نرى المزيد منه هو محدودية آلات فحصنا نحن..!

في المقابل، وبعد أن اكتشف (هوك) الخلية الحية، واكتشف (ليفنهوك) الأجسام الصغيرة التي تسبح في الدم، بدأ العلماء يدركون أن هناك المزيد والمزيد مما لا نراه في أجسامنا، نظرنا بالمجهر الضوئي، فوجدناه غير كافٍ، نظرنا حينها بالمجهر الإلكتروني فوجدنا أننا ببساطة لن نشبع أبدًا..! هناك في كل خلية نواة، بداخلها كروموزومات، بداخلها شريط خرافي الطول ومكدّس بعناية من الحمض النووي DNA يحتوي عدد خرافي من الجينات، وكل جين هو تتابع طويل من القواعد النيتروجينيّة..

هناك دائمًا أجزاء صغيرة تتكون من أجزاء أصغر، وهكذا، إلى أن نصل إلى الذرّات الكيميائية البسيطة فائقة الصغر والتي لا نستطيع أن نرى ما بداخلها بوساطة أي ميكروسكوب، ولكن فقط ندرك وجود البروتونات والإلكترونات من تأثيراتها الكهربية، وفي العصر الحالي فإن أقصى ما وصلنا إليه هو (الكواركات) التي تُكوِّن هذه البروتونات.. ماذا

يوجد داخل الكواركات؟ بالتأكيد عالم آخر أوسع مما نظن..! من جديد يدرك الإنسان أن هناك عالما أوسع بكثير من أن يستطيع أن يحيط به لأن آلاته ليست بالقوة الكافية..!

الوجود غير متناهٍ بالنسبة إلينا، وهو واسع للغاية على (مقاساتنا)..! إما أكبر منّا بكثير أو أصغر منّا بكثير.. لا بد إذن أننا جزء صغير في مكانة متوسطة من هذا العالم الواسع.. وما نراه منه هو وسيلة لإثارة دهشتنا بتخيّل كم ما لا نراه..

تعلمنا حينها أن الإنسان من حيث حجمه هو كائن تافه تمامًا ليس له وزن أو قيمة، نحن هباءة في الملكوت، والعالم (الماكرويّ) الكبير لا يبالي بنا، والعالم (الميكروي) الصغير لا يدري بوجودنا.. والغرور البشري العتيد إياه ليس له داعٍ على الإطلاق..!

ولكن برغم ذلك لا يوجد كائن آخر بالذكاء الكافي كي ينظر حوله ليرى حجمه الحقيقي.. نحن صغار الحجم أمام كون عملاق، ولكن كوننا ندرك حقًا أننا صغار الحجم وسط مليارات الكائنات التي لم تعرف هذا بعد يعني أننا أذكى ما في هذا الكون العملاق..!! هذا ليس لاستحقاقنا ذلك.. ولكن محض تفضيل وتكريم من خالق كل شيء: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾ (الإسراء ٧٠)..

كان الأعرابي يرى الناقة التي تفوقه بكثير في الحجم والقوة وبرغم ذلك تذعن له برأسها وتسمح له –هو الصغير الضعيف البائس– أن يركب على ظهرها ويمسك بزمامها ويقودها حيث شاء..! لذلك أمره الله ﷻ أن يلاحظ هذا التسخير العجيب الذي يدل على قدرته ﷻ: ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾ (الزخرف ١٣).. أي وما كنا نقدر ولا نطيق أن نطوّع هذه الناقة لو لم يكن الله قد سخّرها لنا..

أما نحن فلم نعد نركب الإبل –إلا في رحلات سافاري كي نشعر بالنوستالجيا والدراما–

ولكن صرنا نركب سيارات الدفع الرباعي ويخوت البحر الأحمر وطائرات البوينج، بكل هذه الميكانيكا الفائقة التي تحويها، وكل هذه الحركات الانزلاقية الناعمة، وكل هذه الروعة التنظيميّة التي قدّرنا الله عليها فصرنا نجلس على كرسي في السماء ونأكل الفول السوداني بضعة ساعات لنصل إلى النصف الآخر من العالم..! لقد صرنا إذن في حاجة أكبر إلى هذا الدعاء وهذا التذكر..! صرنا نشاهد لمحات من هذا التسخير أعظم وأجل من التي كان يراها الأعرابي القديم..

لا يتصرف الكون معنا بحجمنا الحقيقي..! بل بالمقابل لا يوجد كائن آخر في الأرض قد مكّنه الله من ثرواتها وخيراتها مثلما مكننا.. من الذي قدر بتمكين الله له على هزيمة الوباء وإلانة الحديد واستخراج النفط وغزو الفضاء..؟؟ إنه التمكين الذي هو في الحقيقة أكبر من قدرنا المنطقي..! والتسخير الذي هو واحد من مظاهر وجود الله ﷻ وإرادته في هذه الحياة.. كما يخبرنا القرآن فيقول: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾** (الجاثية ١٣).. **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾** (الملك ١٥).. **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾** (الأنعام ١٦٥)..

١٣- الفناء..!

المنجّم الفرنسي المعروف عادة باسمه اللاتيني (نوستراداموس) نشر في ١٥٥٥ كتابه: النبوءات.. كان كتابًا مليئًا بالهراء، النبوءات القريبة من زمنه أي المتوقع أن يسأله الناس عنها ويكون وقتها على قيد الحياة كان يكتبها بلغة شعريّة غامضة تصلح في تفسيرها على كل وجه ممكن، بحيث يمكن له هو وأتباعه بعدها أن يدعوا أن هذا الحدث أو ذاك هو ما قصده بتلك النبوءة الملتفّة..! بينما النبوءات البعيدة والتي ستحدث بعدما يصير هو وكل من على

الأرض وقتها في بطون الديدان، كان يكتبها بلغة واضحة حاسمة، باعتبار: Who cares..؟؟

من نبوءات نوستراداموس في العام الذي تمت كتابة الكتاب الذي تقرؤه الآن فيه (٢٠١٥) أن البشر سيتوصلون إلى ترياق الشباب فيرتفع متوسط عمر الإنسان إلى ٢٠٠ عام.. لم يحدث ذلك بالطبع ولم تحدث نبوءته الأخرى في نفس العام بأن يقوم الموتى من قبورهم..!

بشكل عام فإن إكسير الشباب من أقدم (الثيمات) وأشهرها انتشارًا في الميثولوجيا الشعبيّة.. حلم البحث عن الخلود هو حلم عتيد بالنسبة للإنسان الذي عاش في حياة كانت من سننها الدائمة أن: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ (الرحمن ٢٦).. ولم يجعل الله ﷻ هذا الحلم حقيقة لأحد في هذه الحياة الدنيا، كما قال ﷻ: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ (الأنبياء ٣٤-٣٥)..

هناك قصة قديمة لا أذكر تفاصيلها من الرعب القوطي تتحدث عن طبيب استطاع التوصل للصيغة الكيميائية الصحيحة لإكسير الخلود وقام بصنعه بالفعل وتناوله، لم يعد بوسعه أن يموت، فرح في أول الأمر، ثم سرعان ما أدرك أن هذا الإكسير لا يمنع أن تفسد كليتاه تمامًا مع التقدم في العمر ولا أن يصاب بعمى الشيخوخة والتهاب المفاصل.. في النهاية صارت حياته كابوسًا، يعيش في جسد فانٍ، لا يقدر على الحياة أو الموت..

لا يهزم أحدٌ الموت فعلًا.. في المقابل فإن دورة الحياة والموت تمسّ كل شيء في الدنيا من أول مكونات الجسد الإنساني الذي تمرح فيه الـ Free radicals لتسبب الشيخوخة في كل خلاياه، يبيضّ شعره وتترسب الدهون على أطراف قرنيّته ويتجعّد جلد وجهه، ينحني عموده الفقري وتضمر خلايا الذاكرة وتتدهور قدرة أذنه الداخليّة على إثارة أعصابه السمعيّة.. في النهاية يدرك أنه بدأ في سلسلة الفناء، ولا تقدر أعلى العنايات الطبية في

العالم من منع هذه السلسلة..



هذا ليس كل شيء، فبقليل من التأمل تفطن إلى أن الفناء قد طال ما هو أثبت من هذا، مثل حضارات الأمم العظيمة ومجدها..! حضارة الإغريق العظيمة مثلًا والتي جاء عليها وقت كانت تعلّم البشرية فيه كل شيء تقريبًا، انتهت هذه الحضارة أو كادت، ويمكنك أن تتأكد من ذلك حين تراقب بقية الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي وهي تضيق ذرعًا بإفلاسات اليونان المتكررة والمساعدات المستمرة التي يدفعونها لهم..

ماذا عن الروم الذين سيطروا على نصف العالم منذ عدة قرون من الزمان..؟ صاروا الآن مجرد دولة أوروبية وضيعة المكانة تشتهر بعصابات المافيا والأفلام الإباحية وأكلات الباستا..! والفرس الذين كانوا يسيطرون على النصف الباقي صاروا الآن دولة طائفيّة تتميز بغباء عنصري وسياسة ثيوقراطيّة وعلاقات دولية بالغة السوء..

هذا من غير أن نحتاج إلى أن نذكّر بأحفاد الفينيقيين أصحاب الصناعات البارعة الذين صاروا الآن يستوردون كل شيء تقريبًا، أو أحفاد الفايكنج المحاربين الأشدّاء الذين صاروا يصنعون الجبن الرومي، أو أحفاد الفراعنة المهرة الذين صاروا الآن يحلمون فقط بلقمة عيش نظيفة..!

عجلة الفناء تطول الحضارات وعظمة الأمم..! والقرآن دائم التذكير لنا بذلك، فيقول الله ﷻ: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾ (الأنعام ١٣٣).. ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ**﴾ (الأعراف ١٠٠)..

هذا الفناء الذي هو مصير ثابت لكل ما هو مخلوق في هذه الدنيا أقرب لقانون مسنون

على الجميع، قانون لا يمكن خداعه أو تجاوزه، قانون يعني ويؤكد الإرادة النافذة التي تقف خلفه.. لذلك جعل الله ﷻ هذا الفناء وصفًا لا ينفصل ولا يستقل عن الدنيا، كما تلاحظ في هذا المثل: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾ (الحديد ٢٠)..!

لماذا لا يبقى شيء على حاله..؟! ولماذا لا يدوم أي شيء..؟! لماذا نلاحظ حتى في قوانين الفيزياء والديناميكا الحراريّة أن الطاقة لا تبقى في مكان واحد بل دائمة الانتقال..؟! لماذا الحياة والموت مستمرَان في هذه اللعبة الدورانيّة منذ أن عرفنا الدنيا..؟!

أليست هذه الطبيعة الفلسفيّة للحياة دليلًا على إرادة عليا نافذة تأبى أن يكون الكمال إلا لها، تأبى أن يكون البقاء إلا لصاحبها..؟؟!

١٤- القيم التي بداخلك..!

اليابانيون يرون أن المرأة الجميلة لا بد أن تكون دقيقة القدمين وضيّقة الخطى، ويُفضّل أن تكون قصيرة القامة.. الأمريكيّون يختلفون في الرأي بشدة، فالمرأة الجميلة لديهم طويلة القامة وشقراء.. ومعنى هذا أن المرأة الأمريكية الجميلة لن تساوي أربعة جنيهات في دول وسط وجنوب أفريقيا الذين يعتبرون صفار الشعر عيبًا أو عقابًا إلهيًا، في المقابل هم يعشقون المرأة شديدة سواد البشرة التي تدل على جمال أصلي المنشأ، وعرق شديد الصفاء.. أهل الإسكيمو لن يبالوا بكل هذه الأشياء لأن أصل الجمال عندهم في الرائحة..!

لم نتفق على مواصفات تفصيليّة واضحة للجمال إذن.. المسألة نسبيّة في معظم هذه التفصيلات..

بالمثل يمكنك أن تجد مواصفات (الظرافة) تختلف من ثقافة لأخرى، السينما الألمانية

الصامتة، وال (سيت كوم) الأمريكي، وال (ستاند أب) البريطاني، والمشخّصاتي المصري.. كل هذه وسائل قد جادت بها المخيّلة البشريّة لإضحاك الناس.. اختلاف الثقافات لا يعني فقط اختلاف (الخلفيّة) المفترضة للنكتة، ولكن أيضًا يعني الاختلاف الكبير في الوسيلة المفضّلة لتلقّيها.. مرة أخرى نتعامل مع مسألة كنا نظن أنها عالميّة الذوق ثم تبين أنها نسبية تمامًا..!

العديد من الأشياء التي تعتبرها مقاييس عامة ومتفق عليها للأشياء يتبين لك أنها عامة فقط في المحيط الذي حولك.. بينما قيم الحرية والصدق والوفاء والعدالة والعطف على الفقير والإحسان إلى الناس هي قيم مشتركة تمامًا بين جميع البشر، إنها شفرة مكتوبة بعناية يسير عليها كل هؤلاء دون خلاف يذكر..

يمكن أن يشكك بعض الذين نكّسوا فطرتهم في أي شيء، يمكنهم أن يقنعوا الناس بعبادة الفئران كما يفعل كهنة معبد (كارنيماتا).. أو بأن يقتلوا أنفسهم لإنقاذ البشرية وجلب التوازن للعالم كما يدّعي أنصار ال Euthanasia .. أو بأنه لا توجد مشكلة في أن نقوم بإخصاء ضعاف العقول والفقراء والأغبياء من أجل مستقبل أفضل للبشرية كما يزعم جوليان هكسلي.. أو بأنه يجب عليك أن تترك منزلك وأسرتك وتعيش في الشوارع وتتعاطى المخدرات كما يؤمن الهيبيز..

على أن أحدًا من هؤلاء لن يجرؤ على أن يشكك مثلًا في قيمة العدل بمعناه المطلق، أو يدّعي أن علينا أن نكون ظالمين..! مهما بلغت غرابة معتقداتهم، لا يمكنهم أن يتملّصوا من هذه القيمة التي أخبرنا القرآن عن أن الله ﷻ قد جعلها سائدةً في الأرض يوم خلقها..! كما قال ﷻ: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ (الرحمن ٧-٨)..

مرة أخرى نحن أمام دليل وجودي على الله ﷻ، الذي خلق فينا هذه القيم، وأمر بهذه الأخلاق: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ**

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل ٩٠).. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء ٥٨)..

١٥- الإنسان الذي يتعلّم..!

حتى قرون قليلة من الزمان كان العالم كله يؤمن بأن صحة الإنسان واعتلاله قائمة على المقادير التي يحتويها جسمه من الأخلاط الأربعة: البلغم والدم والمرارة والصفراء..! ليس في الأمراض الجسديّة فقط، بل النفسية والذهنيّة أيضًا، بل وحتى في تقسيمات أنماط البشر والشخصيات المختلفة..!

لم يكن هذا أقصى ما يستطيع الإنسان الوصول إليه من خيال واسع، فقد آمن الكثير من الأطباء أيضًا في العصور الوسطى أن هذه الأخلاط الأربعة تزداد وتقل مع حركات النجوم والكواكب، فالمرارة السوداء قد تغلب على شخص ما، ولأن لها خاصيتي البرودة والجفاف، ولأن كوكب (زُحل) له نفس الخاصيتين، فبالتالي يمكننا أن نستنتج وجود ارتباط عاطفي بين المرارة السوداء وبين حركة زُحل..! لذلك يمكننا أن نعكس هذا التأثير ونعالج من غلبت عليه المرارة السوداء بنقيض كوكب زُحل والذي هو: كوكب المشترى والشمس اللّذان يتميزان بالحرارة والرطوبة..! لذلك على من يعاني من هذا المرض أن يكثر من ارتداء الملابس البرتقالية الزاهية وأن يأكل التوابل (الشمسيّة) مثل الزعفران والقرفة..!

وبذلك يذهب المريض إلى الطبيب من (إياهم) فيصف له أهمية تناول الزعفران للتخلص من آلام المرارة..! يأكل المريض أطنانًا من الزعفران ثم يموت، فيهز الطبيب رأسه في أسى بأنه على ما يبدو حركة المشترى كانت ضعيفة أكثر من اللازم، لا بد أنه لم يلبس الكثير من الملابس الصفراء الزاهية كما أمر الطبيب إذن..!

هذه النظرية تبدو لنا الآن شديدة الغباء والظرافة، على أنها في مجدها كانت تبدو للناس أقصى درجات العلم والمعرفة.. للدرجة التي جعلتها في الوجدان الجمعي البشري إلى يومنا هذا.. فأنت حين تتكلم عن أحدهم فتقول أنه في (مِزَاج) جيد —وهذا مصطلح مشترك بين اللغات المختلفة بالمناسبة— لأنه تبدو عليه آثار السعادة والأمل، فأنت حينها تتحدث من وحي نظرية الأخلاط الأربعة التي كانت تدّعي أهمية وجود تناسب مزاجي بين هذه الأخلاط لانضباط الحالة النفسية.. والكلمة الإنجليزيّة: Melancholy والتي تعني الاكتئاب والسوداويّة، إنما أصلها الكلمة اللاتينيّة: Melaina chole والتي تعني: المرارة السوداء..! وكلمة Jovial الإنجليزية التي تعني الفرح والجزل تعني حرفيًا: له علاقة بكوكب المشترى Jupiter..!



يمكنك أن تقارن بين هذا الدجل وبين كتب علم الأمراض الحديثة التي تتحدث عن علم وتجربة بأسباب المرض وكيفية علاجه.. هذا تقدّم إنساني لا شك فيه، وتطوّر معرفي كبير.. نراه نحن فننبهر ولا نعلم التاريخ الطويل لهذا التقدّم والإلهامات المتتالية لرجال كانوا حلقة الوصل بيننا وبين جزء أصيل من هذه المعرفة..

بدايةً من (إدوار جينَر) الذي نظر إلى الأبقار وهي مصابة بجدري البقر Cowpox، ولاحظ أن الأعراض التي تعاني منها تشبه إلى حد كبير الأعراض التي يعاني منها الإنسان حين يصاب بالجدري Smallpox، ففكّر: لربما يكون مسبب المرضين متشابه، ولأن جدري البقر أخفّ بكثير من جدري الإنسان ولا يسبب الوفاة، ولأن معروف عن جدري الإنسان أن من يصاب به مرة واحدة ثم لا يموت يصبح منيعًا ضد المرض، فلماذا لا نحقن السوائل الحيوانية الملوّثة بجدري الأبقار في الإنسان فيصبح منيعًا ضد كليهما..!

الفكرة غريبة وجنونيّة إلى حد كبير، ولكنها ناجحة إلى أقصى حد، لقد كانت القصة

البسيطة السابقة هي اختراع التطعيم نفسه Vaccination والذي تمت تسميته بهذا الاسم تبعًا لـ Vacca اللاتينية التي تعني: بقرة..

كان من نتاج هذا التطعيم أن فيروس الجدري الذي يجد علماء الحفريّات آثاره على أجساد المومياوات المحنّطة منذ أكثر من عشرة آلاف عام والذي كان السبب في انقراض معظم قبائل الماساي في أفريقيا والهنود الحمر في الأمريكتين، تم القضاء عليه تمامًا ليصبح المثال الوحيد المتفق عليه لفيروس تم القضاء عليه من على وجه الأرض بشكل كامل: Eradiacation كما أعلنت منظمة الصحة العالمية في ٨ مارس ١٩٨٠..! لذلك لم يتلقّ بشري واحد هذا التطعيم مجددًا منذ هذا التاريخ، لم تعد له حاجة إذن..

هذا غير طبعًا العشرات من الأمراض التي قمنا باستخدام نفس المبدأ التطعيمي معها، التهاب الغدة النكافيّة والحصبة وشلل الأطفال والالتهاب السحائي وغيرها من التطعيمات التي أنقذت الملايين من البشر..

إنه نصر عظيم إذن مبنيّ على الفكرة البسيطة الملهمة التي دخلت إلى عقل إنسان عن طريق ما، شبيه بالفكرة العظيمة الأخرى التي خطرت على بال ألكسندر فلمنج حين لاحظ بالصدفة البحتة أن مادة البنيسللين سببت إزالة جزء من مزرعة البكتيريا التي كان يقوم بعمل أبحاثه عليها، فاستنتج أن هذه المادة يمكن أن تصنع منها أدوية فعالة ضد البكتيريا، إنه اكتشاف المضادات الحيوية التي سببت طفرة عظيمة في علم الأدوية والوقاية الطبية..!

هناك طفرات أخرى تمت في علم الجراحة الطبية، كمثل تلك التي كانت على يد الطبيب المسلم الأندلسي/ أبو القاسم الزهراوي، المعروف في الغرب عادة باسم Albucasis.. اخترع أبو القاسم وبشكل بديع مبتكر للغاية أدوات جراحة دقيقة، حتى إن بعضها ما زال يستخدم إلى يومنا هذا بعد مرور أكثر من ألف عام..



في غير الطب هناك المئات من هذه الأمثلة، مثل حياتنا المدنيّة التي انتهت بنا إلى هذه اللحظة بأن يستطيع كل إنسان أن يسجّل بصمته على الإنسانيّة — وبغض النظر عن رأينا نحن في قيمة هذه البصمة — بأصابع يده على حائط فيسبوك، بدلًا من أن يسجلها بأصابع طباشيريّة على حائط كهف حقيقي..

كل هذه الاكتشافات والاختراعات والمنجزات العلميّة تدل على قدرة الإنسان على تخطي حدود الموجود، والقفز فوق أسوار الواقع الذي يحوطه، إنه دليل على اتساع الأفق الإنساني ولا محدوديّة الخيال البشري والكم غير المتوقع من المنجزات الناتجة عن إثارة هذا الوعي.. إلهامٌ كامل من الله ﷻ للبشريّة لنفعها كما قال سبحانه عن نبيه داوود ﵇: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء ٨٠)..

من علّم الإنسان كل هذا..؟ ذلك الذي خرج من بطن أمه لا يعلم كيف يفعل أي شيء غير البكاء.. هذه الطفرة المعرفيّة بين الحال التي بدأ عليها الحياة وبين الحال التي يصل إليها بعد عدة أعوام يسيرة كفيلة بإشعارنا بحجم المعجزة، كما يقول ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل ٧٨)..

ربما تظن أن التعليم البشري فقط هو ما أوصله إلى هذه الحالة، ولكنك حينها لن تجد تفسيرًا للكيفية التي نبتت بها كل العلوم، أو الطريقة التي نشأت بها قيمة العلم نفسه في عالم مادي عشوائي لا صاحب له، ولن تجد حتمًا وسيلة لتفسير القدرة الإنسانية على إضافة المزيد والمزيد إلى هذه المعرفة، والقدرة الفرديّة على الإنتاج والزيادة، لربما بعد أن تحتار في ذلك تهتدي بهذه الآية، حين يقول الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ٣–٥)..

١٦- البدائل المستحيلة..!

سأقوم معك بلعبة تشبه ألعاب برامج المسابقات..

خذ عشر قطع من النقود المعدنية والصق على كل واحدة منها رقمًا من ١ إلى ١٠، الآن لديك عشر قطع من النقود كل منها يحمل رقمًا مختلفًا ويتساوون تمامًا في ملمسهم مما يعني أنك لا تستطيع التفرقة بينهم بلمسة يدك.. حسنًا، ضعهم في جيبك واخلطهم جيدًا..

المطلوب أن تخرج لي العملة التي تحمل رقم (١).. ما احتمال أن تنجح في فعل ذلك..؟ لو كنت تصغي لمدرس الإحصاء في الثانوية العامة لعلمت أن هذا الاحتمال هو ١/١٠.. أي من ضمن كل عشر محاولات (يُتوقع) لك أن تحظى بنتيجة واحدة صحيحة مقابل تسع محاولات فاشلة..

ستحاول، وبعد عدة محاولات تزيد أو تقل عن العشرة ستحصل على عملتك.. الآن المطلوب منك أن تعيدها إلى جيبك وتكرر التجربة، ولكن هذه المرة فإني سأطلب منك أن تنزع من جيبك عملتين، بحيث الأولى تحمل رقم (١) والتالية لها مباشرة تحمل الرقم (٢).. ما احتمال فعل ذلك..؟

في الواقع احتمال ذلك أبعد مما تتخيل، فإن مع كل عشر محاولات للحصول على القطعة الأولى ستكون هذه محاولة واحدة فقط للحصول على التالية لها، ولأننا نحتاج إلى عشر محاولات في العملة الثانية فهذا يعني أننا نحتاج —إحصائيًا— إلى مئة محاولة للحصول على العملتين بالترتيب المذكور..

هذه قاعدة في الرياضيّات والإحصاء، تعني أن التتالي المرغوب فيه لاستخراج الكائن المرغوب فيه يزيد من (أسّ) الرقم وليس قيمته، أي في حالة عملتين متتاليتين تحتاج إلى عدد من المحاولات يساوي: $١٠^{٢}$..!

وبعد ما يقرب من مئة محاولة أعد العملتين مكانهما.. الآن المطلوب منك أن تخرج لي العملة التي تحمل رقم (١) ثم العملة التي تحمل الرقم (٢) ثم العملة التي تحمل الرقم (٣) ... إلخ إلى أن تكون العملة العاشرة التي تخرجها تحمل الرقم (١٠)..

هذا يعني ببساطة، أن عدد المحاولات اللازمة لكي (يتوقع) منك أن تفعل هذا بشكل صحيح هو $١٠^{١٠}$، ولكي تدرك فداحة هذا الرقم، فهو يعني ببساطة أن عدد سكان العالم كله لو زادوا نصف عددهم فجأة، فإن تعدادهم سيصل إلى هذا الرقم..! وأن عليك أن تقوم بتسعة مليارات وتسعمئة وتسعة وتسعين مليونًا وتسعمئة وتسعة وتسعين ألفًا وتسعمئة وتسع وتسعين محاولة فاشلة، حتى تحصل على فرصة محاولة ناجحة وحيدة..!

هذا هو المثال الذي ذكره (كريسي موريسون) في كتابه الماتع: (العلم يدعو إلى الإيمان) ليجعلنا نفهم فداحة خطأ من يظنون أن العشوائية قد تكون هي السبب الحقيقي وراء نشأة هذا الكون..!

ذكرني ذلك بالقصة الكلاسيكية القديمة والتي تخبرنا أن الملك الفارسي استدعى مخترع رقعة الشطرنج كي يكافئه على عمله، وطلب منه أن يتمنى أي شيء يريده، فطلب منه هذا المخترع أن يكافئه بحبتي قمح فقط يضعها على المربع الأول للرقعة، وأربع حبات على المربع الثاني، وثمانية على المربع الثالث، وست عشرة على المربع الرابع وهكذا إلى أن يصل إلى المربع الأخير في الرقعة والذي يحمل رقم ٦٤..

غضب منه الملك واعتبره قد أهانه.. أنا أخبرك أن تتمنى ما تريد من الملك وبدلًا من أن تطلب مني الذهب والأراضي والمناصب، تطلب مني بعض القمح..!

لكن الملك الجاهل لم يكن يعلم أن الرجل قد طلب منه بالفعل أكثر مما يملك كل ملوك الأرض..! فإنه لو كان تتبّع المتتالية الهندسيّة المذكورة إلى آخرها لعلم أنه مطلوب منه أن يضع في المربع رقم ٦٤ عدد $٢^{٦٤}$ من حبات القمح.. أي ما يساوي:

١٨٤٤٦٧٤٤٠٧٣٧٠٩٥٥١٦١٦ حبات من القمح..! أي أنها كمية من القمح أكبر بكثير جدًا من التي زرعتها البشريّة منذ أن خلقها الله ﷻ..! هذا لأن قوة المتتاليات الهندسيّة مخيفة فعلًا..

وبالعودة إلى (كريسي موريسون) فإن مثاله يذكّرنا بالتجربة الحقيقية التي قام بها (المجلس القومي البريطاني للفنون) الذي كان يرد على معضلة (هكسلي)..

هكسلي كان أشد مؤيدي داروين حماسًا، والذي آمن بالتطور ربما أكثر مما آمن به داروين نفسه، حتى لقبه الكثيرون بـ "بولدوج داروين"، والبولدوج نوع من أنواع الكلاب الوفية..! قال هكسلي أن العشوائية يمكنها أن تفسر لنا الوجود لو أعطينا لها الوقت الكافي.. فضرب لذلك مثالًا بأنه لو ظلت مجموعة من القرود تجرّب بشكل عشوائي تمامًا أن تضرب بأرجلها على آلة كاتبة لربما وجدنا في النهاية أن لدينا قصيدة لشكسبير..!

قام المجلس القومي للفنون بوضع مجموعة من ستة قردة في قفص مع جهاز كمبيوتر، وبعد مضيّ شهر واحد أنتجت القردة خمسين صفحة مكتوبة بشكل عشوائي من ضربات القرد الذي يمرح في القفص جيئة وذهابًا بحثًا عن موزة أو مغازلًا لصديقته.. قاموا بتحليل هذه الأوراق الخمسين فلم يجدوا أي قصيدة لشكسبير، في الواقع هم لم يجدوا أي كلمة مكتوبة صحيحة، حتى لو كانت هذه الكلمة (a) أو (I)، هذا لا يمثل كثيرًا من العجب، إذ إنه لو افترضنا أن لوحة المفاتيح بها ٣٠ حرفًا، فإنشاء أبسط كلمة في اللغة الإنجليزية، وهي حرف التنكير (a) يتطلب أن تقوم القردة بالضغط على حرف مسافة ثم a ثم مسافة.. أي أن محاولة ذلك تبلغ احتمال واحد صحيح من أصل ٣٠^{٣} محاولة فاشلة، أي احتمال واحد من أصل ٢٧ ألف محاولة فاشلة..!

قام (جيرالد شرويدر) بالاستعانة بهذه التجربة للإمعان في إذلال هكسلي بمثاله المتخلف.. قال جيرالد أن لإنتاج قصيدة صغيرة جدًا لشكسبير، وهي إحدى قصائد السوناتا

والمتكونة من ٤٨٨ حرفًا فقط، وبفرض أننا استعنّا بلوحة مفاتيح مقتصرة على الحروف الأبجدية فقط: ٢٦ حرفًا، فهذا معناه أن احتماليّة نجاح القردة في ذلك هو $٢٦^{٤٨٨}$ محاولة..! أي احتمالية نجاح واحدة في مقابل $١٠^{٦٩٠}$ محاولة فاشلة..

هذا رقم كبير جدًا، أكبر من أن أكتبه كما فعلت في قصة الشطرنج، لو حاولت أن أكتبه لاستهلكت ما يقارب العشرين صفحة من هذا الكتاب لكتابة العدد فقط..! عدد البروتونات والإلكترونات والنيوترونات في الكون كله أصلًا لا تزيد على $١٠^{٨٠}$..! أي أن عليك إيجاد مليارات مليارات مليارات الأكوان فقط كي تملأها عن آخرها بالمحاولات الفاشلة التي ستقوم بها القردة من أجل إنتاج هذه القصيدة..

ماذا عن الزمان الذي ستستغرقه أيضًا..؟؟ أورد (أنتوني فلو) الملحد السابق تعقيبًا على التجربة فقال أنه لو افترضنا تحويل ذرات الكون كلها إلى معالجات حاسوبيّة بالغة، كل معالج منها يزن واحد على مليون من الجرام، وقام كل معالج منها بمليون محاولة في الثانية منذ لحظة الانفجار الكبير إلى يومنا هذا (١٣،٧ مليار سنة) فكل المحاولات التي ستقوم بها هو $١٠^{٩٠}$ فقط.. أي لم نقترب حتى بعد من الرقم المراد: $١٠^{٦٩٠}$..!

هكذا يتبين لنا أن هذا مستحيل، ولكن في حالة نشأة الحياة بالعشوائية والصدفة فإننا لا نحتاج إلى ٤٨٨ حرفًا فقط كما في قصيدة شكسبير، بل نحتاج إلى ٢٠٠ ألف حرف..! وسأشرح لك ذلك حالًا إن شاء الله..!

فالملاحدة الذين ارتضوا نظرية التطور بديلًا عن وجود الخالق افترضوا أن الخلية الحية الأولى قد تم إيجادها بالصدفة عن طريق تفاعلات كيميائيّة عشوائيّة أنتجت الخلية الحية الأولى من الماء، بالطبع بعضهم يقول أنه قد تم إيجادها عن طريق فضائيين زاروا الأرض منذ فترة طويلة إلا أننا سنفترض أننا لم نسمع هذه الكوميديا، ولنتمسك إذًا بأكثر هذه الخيارات عقلانيّة: الصدفة..

طبقًا لنظريّة الحد الأدنى من الجينات، لا يمكن أن توجد أية خلية حية لها القدرة على إنتاج الطاقة والتكاثر إلا وهي تحتوي على الأقل ٢٠٠ جينًا.. وهو ما يساوي في حدود ٢٠٠ ألف قاعدة نيتروجينية متراصّة بترتيب دقيق، لا يُقبل أي اختلاف أو خطأ في ترتيبها.. أي ٢٠٠ ألف حرف..! احتماليّة نشأة هذه الخلية بالصدفة إذن هو احتمال واحد صحيح في مقابل ١٠^١٠٠٠٠٠ احتمال خاطئ..!

وأما عن نشأة الأجرام السماويّة كاملةً –بكل العناصر الكيميائيّة المعروفة وبكل قوى الكون وقوانينه الثابتة التي تسمح هي فقط دون سواها بوجود حياة– فأمرٌ أكبر من ذلك بالتأكيد، كما قال ﷻ: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (غافر ٥٧)..

هذا عن بديل الصدفة المحتمل.. فماذا عن بدائل أخرى..؟ نفي السببية مثلًا..؟!

ربما تتعجب مني إن قلت أن هناك بالفعل من نفى هذا القانون العقلي المجرّد.. ولكن هذه هي الحقيقة..! ديفيد هيوم هو أشهر مثال على هذا، قال أن كوننا كلما فعلنا (أ) يحدث (ب)، لا يعني أن (أ) سبب لـ (ب) ..! هما يحدثان معًا فقط ولكن لا يعني ذلك أن أحدهما سببًا للآخر..!

ماذا عن بديل ثالث: أن نكون نحن من خلقنا بعضنا البعض..؟؟! لا، لن ننحدر إلى هذا المستوى من الحضيض العقلي ونسوّد الصفحات في الرد على هذه الترهات..!

ربما يكون هذا هو من أكبر ما قمتُ به من استطراد في هذا الكتاب..! ستُّ صفحات كاملة لإقناعك أن هذه البدائل عن وجود الله ﷻ لا تصمد أمام عقل ابن أختك الطفل الصغير الذي لا يفهم بعد ما هي الأشياء التي تؤكل والأشياء التي لا تؤكل، ولكنه برغم ذلك إذا ضربه أحدهم على مؤخرة رأسه سينظر خلفه ليرى ما (سبب) هذا..!

كل هذا قد لخّصه القرآن في آيتين حين خاطبنا بالبديل المحتمَل عن وجود الله ﷻ فقال ﷻ: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ**﴾ (الطور ٣٥-٣٦)..

وقال عن كل البدائل المحتملة الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج ٧٣).. لن يحدث أن نثبت وجود أي بديل عن وجود الخالق، لأن كل البدائل الأخرى أقل منّا في قدرتنا وعلمنا، وبرغم ذلك لا نقدر على أن نخلق ذبابة ولو اجتمعنا لها..!

إنها الحقيقة التي يصرّون على محاولات الفرار منها ولا يستطيعون..! برغم كل شكوكهم، برغم كل عنادهم، برغم كل الشبهات والحجج والبراهين التي يقدمونها.. في النهاية ليس ثمّة بديل عن الخالق العظيم..!

ست عشرة لمحة من لمحات إجابة القرآن عن سؤال وجود الله ﷻ..

فكما أقررنا من قبل، فالله عز وجل هو أظهر من كل شيء، يمكنك أن ترى وجود الله عز وجل في الامتلاك المتفرد لهذا الكون بما فيه، وفي هشاشة الإنسان وما حوله من مخلوقات، وفي مظاهر العناية والقيومية الإلهية، وسنن الحياة المعتادة في الوجود الذي هو دائمًا هكذا، والجمال المنتشر الذي ليس له من تفسير في الحياة المادية الطاغية، وفي التوازن المستمر، والتقدير المستتر، والإحكام الفائق، والمعايرة الدقيقة، والإبداع الخلقي والتنويع، وسيادة القوانين، وطاعة الوجود لرب العالمين، والاهتداء إلى المنافع، والمشاعر الإنسانية الغامضة، وتسخير الكون في الإلانة لمنافع الإنسان المدلل، وفي قانون الفناء المسنون على كل ما سوى الله، وفي القيم والمعايير الأخلاقية السائدة بين الناس، وفي قدرة الإنسان على التعلم والتطور، وفي العجز عن الإتيان ببديل واحد يصلح لوجود الإله الخلاق العظيم..!

في المرة القادمة إذن حين يسألك أحدهم: هل يوجد إله..؟؟ عليك أن تضرب كفًا بكفّ، وتزوغ عينك من الصدمة بحق، وتقول: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم ١٠)..؟!

السؤال الأشد حمقًا

(عن سؤال: من خلق الله، وعن صفات الله، وأشياء شبيهة)

في مقر أحد الصحف المحلية شديدة (الصُفرة) يقبع صحفي تَعِس وسط عدة صراصير تعِسَة بدورها، ويبحث عن شيء ما لكتابته، هنا يتذكر ما درسه في (كورس البؤس الإعلامي) من ضرورة استخدامه لمصطلح (كشف المستور) أثناء كتابته للخبر مرتين أسبوعيًا على الأقل..! إن الصحيفة الصفراء التي لا تحتوي على خبر بعنوان (كشف المستور عن...) ليست بائسة بالقدر الكافي ولا تجيد عملها على الإطلاق..!

لسبب ما يعشق الناس هذه الكلمة، سارع إلى معرفة السر الذي عرفه الفريق صلاح الدماطي من المشير عبد الحكيم عامر شخصيًا.. هل أنت مستعد لمعرفة هذا (المستخبي) يا سيدي..؟ إن عبد الناصر كان يعشق صيد البط وهو يلبس ملابس نومه البيضاء..! ثم بعد أن تعرف السر تدرك أن المعرفة عبء بالفعل..! أن تعيش في مجتمع من السُذّج ممن يظنون أن عبد الناصر كان يصيد البط مرتديًا بدلته الأنيقة بينما أنت وحدك تعلم الحقيقة..!

وبرغم هذا الفضول البشري الخرافي، فإننا نتقبل بسهولة أن تكون هناك أسرار غير مفهومة فعلًا في الواقع وفي التاريخ.. بل وقد نجد لذة لهذا الجهل أو ذاك ويصبح مادة خصبة لإثارة الخيال الشعبي.. أتحداك إن كنت ستتذكر من هو (كينيدي) أصلًا لو كان قاتله قد عُرِفَ وقتها..! أو كنت ستسمع عن (جاك السفّاح) إن كانوا قد تأكدوا من هو بالفعل..!

نتقبل كل هذا لأننا برغم أنوفنا ورغم فضولنا لمعرفة كل شيء، وكل سر، وكل مستور.. فإننا نتعلم دائمًا أننا محدودون بقدراتنا البشرية التي هي أكثر مسكنةً مما يظنه الكثيرون..!

هل تظن أن علماء الطب يعرفون)الميكانيزم(الذي به يتم إطلاق عملية الولادة أو الطريقة المؤكدة التي تشرح كيفية وقوعنا بالنوم..؟! أو تظن أن علماء الفيزياء المتخصصين يفهمون حقًا وبشكل كامل الأبعاد المخيفة لنظريّة الكم وتطبيقاتها المحتملة في الحياة..؟! كم مرة وجدت علماء التاريخ يتحدثون عن (الفجوات المعرفيّة) أو وجدت علماء الاجتماع يتحدثون عن (السلوك الغامض للجماهير) أو وجدت علماء النفس والسلوك يستخدمون

كلمات مثل: (ربما) (من المحتمل) (نظن)... إلخ..؟!

على أنني لن أغضب كثيرًا من علماء الفيزياء عندما لا أستطيع فهم (نظرية النسبية) مثلًا بشكل كامل مهما حاولت، لن أغضب طالما يحدد هاتفي مكاني بتقنية الـ GPS المعتمدة في دقتها على نفس النظرية..! طالما ستقوم بإرشادي بنجاح إلى مقابر قرية (المربّعين) —وهو مكان حقيقي بالمناسبة— فإني سأثق بها وأعتبرها حقيقية حتى لو بدا إثباتها الرياضي أشبه بطلاسم سحرة الفودو، وبدا إثباتها الفلسفي أشبه بقصص تان تان..!

لا نحتاج إلى فهم كل شيء إذن حتى نحصل على الثقة..! لا نتضايق إن (تشابه علينا) أو التبس.. يكفينا أن نتأكد من وجوده، يكفينا أن نرى آثاره، يكفينا أن نفهم (الكثير) من الأشياء الأخرى (المحكَمة) التي أتت لنا من (نفس المصدر)..! جميعنا يقوم بذلك فيما يختص بعلوم البشر.. لكن حين نأتي إلى علوم الإله، فيما يختص به، وبكينونته، وصفاته، حينها يتحول بعضنا إلى ذلك الصحفي التعس ويصر على أنه يجب أن يكشف المستور عن كل شيء، لا بد أن يفهم كل التفاصيل والأسباب، ولو لم يفهمها فالأمر بسيط، يشطبها من قاموسه كأنها لم تكن..!

يمكننا أن نكشف من هذه المفارقة أن هؤلاء احتاجوا إلى طريق قرية (المربّعين) أكثر من احتياجهم إلى طريق الآخرة..! أنهم وثقوا في العالِم الأشقر صاحب المعطف الأبيض أكثر من وثوقهم في (العليم) نفسه..! يمكننا أن نكشف أن في قلوب هؤلاء ريبًا وشكًّا وزيغًا وأنهم كانوا الفريق الخاسر في أحد هذين القِسْمين: ﴿**أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ (آل عمران ٧)..

فهناك من ضيّع محكمات عقله ودينه وما تأكد منه بتأمله في الخلق والسنن والكون،

من أجل أمر التبس عليه أو استشكله، واعتبر أنه كائن عبقري بطبعه لا بد أن يكون محيطًا بكل شيء وإلا فلا..!

وهناك من اعتبر ما يعلمه وما يثق فيه وسيلة للتأكد واليقين فيما يجهله ويختبئ عنه، لماذا..؟؟ لأن كلًّا من عند ربنا..! المصدر واحد، فمن صَدَقَني في الأولى فسيصدُقني في الثانية..



لا يتعلق هذا بقطاعات من المعرفة محرّم علينا أن نخوض فيها كما تخيّل الإغريق آلهة الأوليمب كحكّام أوتوقراطيين يحرّمون على البشر الصناعات والفنون فحرموهم من النار حتى سرقها لهم بروميثيوس فصارت الأرض مليئة بالمنجزات البشريّة..

بل يتعلق بقطاعات من المعرفة لا يمكننا أصلًا أن نصل إليها بأي حال، إنه وكأننا فعلنا مثلما فعل (جحا) حين أضاع نقوده فأخذ يبحث عنها أمام البيت تحت شمس الظهيرة، فمرّ عليه رجل عرض أن يساعده وسأله: أين أضعت نقودك بالضبط..؟ قال: في البيت.. قال: ولم تبحث عنها هنا..؟! قال: لأن البيت مظلم وهنا مضيء..!

عقولنا لها حدود لا يمكنها أن تتخطاها، وحواسنا أشد منها محدوديّة بكثير، وأسئلة مثل: (من أين جاء الله..؟!) أو (كيف يوجد إله كامل وبكل هذه الصفات المعقّدة الكاملة فجأة وبدون تفسير علمي..؟!) أو (كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل رغم أن هذا الثلث يتغير وقته بين البلدان المختلفة باستمرار..؟!) أو (كيف يستوي الله على العرش..؟!) تقع إجاباتها بالتأكيد خارج نطاق هذه الحدود.. إنها في البيت المظلم الذي لن نستطيع أن نرى ما به فنقرر أن نبحث عنها في الإضاءة الخارجيّة رغم أنها ليست هناك..! نحن نبحث في المكان الخطأ وبالأدوات الخطأ، ثم نندهش حين لا نصل إلى إجابة حاسمة ملموسة..!

كي نفهم هذا، لنَرَ كيف أجابنا القرآن..!

١- الصمديّة..!

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب ﷺ قال: قال المشركون للنبيّ ﷺ: انسب لنا ربك.. فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١-٤)..

هذه قصة مشكوك في صحتها، كما جاء في أثر آخر رواه الإمام الطبري أيضًا مشكوك في صحته أن رهطًا من اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبيّ ﷺ حتى انتُقِع لونه، ثم ساورهم غضبًا لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه.. قال: يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١-٤)..

على ذلك لم يثبت دليل صحيح في سبب نزول هذه السورة العظيمة على قول كثير من علماء الحديث، على أنه قد ثبت أن النبي ﷺ قد عادلها بثلث القرآن وأنه قد أقرّ وصفها بأنها فيها صفة الرحمن ﷻ..

لا يمكن لنا أن نتكلم عن نسب الله ﷻ..! من خلقه أو أوجده.. لأننا نتحدث عن (خالق) وليس مخلوقًا.. فبالتالي لم يخلقه أو يوجده أحد.. في المقابل نلاحظ في هذا الجواب القرآني الموجود في سورة الإخلاص، أن الله ﷻ قد ذكر أنه (الصمد)..

الصمد عند العرب من الكلمات التي لها المعاني الكثيرة، مثلًا يطلقون الصمد على ما ارتفع من الأرض، وعلى السيد المطاع في قومه، وعلى ما ليس له جوف، وعلى أي شيء

يتجه إليه الإنسان، وعلى ما يُلجَأ إليه عند الحاجة..

لذلك اختلف السلف في معنى كلمة (الصمد) في حق الله ﷻ، مثلًا قال (عكرمة) أنه يعني: "الذي لم يخرج منه شيء، ولم يلد، ولم يولد".. وقال (أبو وائل): "هو السيد الذي انتهى سؤدده" وقال كل من (الحسن) و(قتادة) أنه: "الباقي بعد خلقه"، وأحب (الزجاج) أن ينهي هذا الخلاف كله وقال: "وأصحّه أنه السيد المصمود إليه في الحوائج"، وأكثر ما يعجبني هو ما قاله (أبو عبيدة) من أن: "الصمد هو الذي يُصمد إليه، ليس فوقه أحد"..!

هناك تلازم واضح في ذكر صفة الرحمن بين كونه: لا يحتاج إلى أحد، ولا يلد ولا يولد ولا يخرج منه شيء، ولا يحتاج إلى طعام ولا إلى شراب.. وبين كونه: يُصمد إليه في الحوائج ويبقى بعد خلقه وليس ثمة شيء فوقه ولا بعده..

لأنه لا يمكن أن يكون ذلك القائم على حاجات العباد تنقصه بعض الحاجات هو الآخر، إذ من سيكون المسئول إذن عن أن يلبيها له..؟! لو كان من أوجد كل شيء يحتاج إلى شيء ما كي يوجده، لوقعنا في دائرة مفرغة لا خروج منها..!



هذا شبيه بالمثال الشهير، جندي يقف على الحدود ومأمور ألا يضرب النار على عدوّه إلا حين يأخذ الأوامر ممّن فوقه، على أن من فوقه مأمور ألا يُصدر ذلك الأمر إلا لو أخذه ممّن فوقه، ومن فوقه مأمور أيضًا ألا يُصدر هذا الأمر إلا لو أخذه ممّن فوقه... إلخ

عرفتُ أنا وأنت هذه السلسلة اللانهائية، ثم علمنا أن هناك من ضرب النار بالفعل.. فبشكل بديهي جدًا سوف تتيقن أن السلسلة سابقة الذكر لم تكن غير نهائية، بل كانت هناك رتبة عسكريّة ما رفيعة الشأن لا تحتاج ولا تنتظر الأوامر، بل أصدرت هي الأمر بشكل ذاتيّ تمامًا وبدون الحاجة إلى أحد..!

فالصمد إذن لا يحتاج إلى أن يلده أحد أو يوجده أحد، لماذا..؟ لأنه هو من يُصمَد إليه في الحوائج، من يُعتَمد عليه في الإيجاد، هو من أصدر الأمر الذاتي لنا بـكن فكنّا.. لو كان ثمّة شيء وراءه لما كنّا في الوجود..!

حسنًا لم يوجده أحد، ولكن كيف أوجد نفسه..؟!
اصبر قليلًا.. ما زلنا لم نفرغ من الإجابة القرآنية..!

٢- مَسْكنة الحواس..!

منذ عدة سنوات تم إصدار قانون في مدينة (مونزا) الإيطاليّة بعدم جواز احتفاظ محبو الحيوانات الأليفة بالسمكة الذهبيّة –والتي تعدّ من أشهر أسماك الزينة– في أحواض السمك الكروية، وفسّر مجلس المدينة السبب وراء هذا القانون بأنه شيء وحشي الاحتفاظ بها في حوض مقوّس الجوانب، لأنها حين تحدّق إلى الخارج ستتكون لديها صورة مشوّهة عن الواقع..!

هذا مثال آخر على الرحمة والشفقة عند الإنسان الغربي والتي لسبب ما لا تظهر في كثير من الأحيان إلا مع حيوان الباندا وحمايته من الانقراض، أو الحوت النباتي المسكين الذي يتم اصطياده في المحيط الأطلسي، أو السمكة الذهبيّة التي سيتم تشويه صورتها عن الواقع.. وهناك من يهتم منهم بالفعل بالإنسانيّة، ولكن بصفة عامة فقد لا يهتم الإنسان الغربي في الحقيقة بأطفال العراق المقتولين بالقذائف، قدر اهتمامه بالحفاظ على كمية النفط الذي يسمح له بالاستمتاع بصوت ضخ البنزين في محرّك السيارة الـ (كاديلاك)، وقد لا يهتم بأطفال أفريقيا الفقراء العاملين في مناجم الماس بقدر اهتمامه بحجم الماسة في خاتم الزواج حين يتقدم لحبيبته راكعًا على ركبته في أحد المطاعم الفاخرة، وقد لا يهتم قطعًا

بأطفال البرازيل العاملين في حقول البنّ بقدر اهتمامه بكوب القهوة الصباحي الذي سينعشه بعد نوبة Hang over بسبب إفراطه في الشراب البارحة..!

ولكن هذا ليس موضوعنا، المهم أن مجلس (مونزا) يرى أن السمكة الذهبيّة سوف تتشوه صورتها عن الواقع لأنها ستنظر للعالم من خلال حوض مقوّس الجوانب..

ماذا عن تشوّه صورة الإنسان عن الواقع إذن..؟!

يمكنك أن تظن أن ما تراه أمامك من الموجودات، هو كل ما هو موجود فعلًا حولك.. بينما في الحقيقة شبكيّة عينك لا يمكنها أن تشعر إلا بنطاق معيّن (ضيّق جدًا) من الأطوال الموجيّة للأشعّة الضوئية يقع بين ٤٠٠ و ٧٦٠ نانو متر.. وكل ما يقع خارج هذا النطاق لا يمكنك رؤيته، ناهيك عن بقية نطاق الأشعة الكهرومغناطيسيّة والتي تقع خارج حدود الضوء بين موجات الراديو ذات الطول الموجي الكبير (١٠^{٥} نانو متر) وموجات الكوزميك (تلك القادمة من الفضاء وناتجة عن بقايا للانفجار الكبير) ذات الطول الموجي الدقيق جدًا (١٠$^{-٦}$ نانو متر) هذا هو النطاق الذي نعرفه فقط حيث لا يمكننا التعرّف على شيء منها إلا ما تسمح أجهزة رصدنا بالتعرّف عليه..

يمكنك أن تظن أيضًا أن كل ما تسمعه هي كل الأصوات من حولك.. بينما في الحقيقة أذنك لا تستطيع التقاط موجات صوتية إلا في حدود ترددات معينة تقع ما بين ٢٠ هرتز و ٢٠ ألف هرتز (يقل هذا المدى الأقصى إلى ١٢ ألف هرتز فقط في حالة كبار السن).. هناك من الحيوانات ما يستطيع سماع نطاق من الترددات أكبر من ذلك بالمناسبة، وتبقى في النهاية الفكرة التي نريد إيصالها ثابتة: أنت لا ترى ولا تسمع ولا تشعر إلا بنطاق ضيق جدًا من هذه الحياة، وحواسك محدودة بالفعل..!

وبالعودة إلى السمكة الذهبيّة، فإن حواسنا تقوم معنا بالدور الذي تقوم به جدران القفص الزجاجي المقوّسة: إعادة تهيئة للواقع بما يتناسب مع كيفية إدراكنا له..! بمعنى آخر:

هذا ليس هو الواقع كله، ولكن هذا هو مقدار الواقع الذي تمّت (تهيئتنا) على أن نعلمه..!



وفيما يخص الله ﷻ وصفاته وكيفيتها نجد القرآن يحدثنا عن ذلك فيقول: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (الأنعام ١٠٣)..

لذلك لم يفلح موسى عليه السلام في طلبه: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**﴾ (الأعراف ١٤٣).. لأن جواب الله ﷻ عليه كان: ﴿**لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ (الأعراف ١٤٣)..

إذن أحد الأسباب التي تمنعنا من الوقوف أمام صفات الله عز وجل وقوف التحدي، هو أن حواسنا تقوم بظلمنا باستمرار ونحن لا ندري..!

٣- عليك أن تيأس..!

أقنعني أحدهم أن رواية (إدوين إبوت) القس الإنجليزي الشغوف بالرياضيات، التي كتبها في العام ١٨٨٤ وتُدعى (الأرض المسطحة) هي رواية ماتعة للغاية، ومن ثمّ قرأتها بناءً على هذه التزكية، ليتبين لي أنها لا شيء أكبر من مجرد (فكرة غريبة) معروضة في قالب أقرب للإملال..

الرواية في رأيي متوسطة من الناحية الفنية، وهذا خلاف لرأي بقيّة العالم في الغالب، يبدو أنني البشري الوحيد الذي قرأ الأرض المسطحة ثم لم يحبها، على أنني وقعت في غرام الفكرة البسيطة التي قدّمها والتي سأحكيها لك حالًا..!

نحن نعيش في عالم ثلاثي الأبعاد: الطول والعرض والارتفاع.. على سبيل المثال أنت

تنظر إلى الكتاب الموضوع أمامك على المنضدة فتشاهد له عمقًا، فتعلم أنه كتاب، لو لم تشاهد هذا العمق لقلت عنه أنه (صورة كتاب) ملصوقة على المنضدة..

بالمثل، الفرق بين المستطيل والعلبة (التي هي في الاصطلاح الهندسي: متوازي مستطيلات) أن العلبة لها عمق بينما المستطيل له بعدين فقط: الطول والعرض..

ماذا سيحدث لو كان هناك عالما ثنائي الأبعاد وكل ما في هذا العالم هو كائنات لها طول وعرض فقط..؟ هذا هو ما تخيله إدوين إبوت في روايته: الأرض المسطحة، رحلة إلى عالم ثنائي الأبعاد..

أخذ بعد ذلك يشرح في الكيفية المعقدة التي يعرفون بها بعضهم البعض، في هذا العالم فكلما ازداد الكائن في الرفعة الاجتماعية كان هذا معناه عدد أكبر من الأضلاع له، حتى تصل إلى أعلى مرتبة لديهم وهو الدائرة.. يتعرّفون على بعضهم البعض عن طريق انعكاس الضوء على هذه الأضلاع، وحدة انكساره عند أطرافها.. يا لها من طريقة معقّدة..!! نعم ولكنها أيضًا الطريقة الوحيدة، تذكر أنهم لا يملكون البعد الثالث، أي أننا لو شاهدنا هذا العالم من أعلى سنرى المربع والمستطيل والدائرة وهم يحتسون القهوة، بينما هم لا يستطيعون النظر من (أعلى) لا يوجد لديهم (أعلى) أصلًا، بل عندهم فقط (أمام) و(خلف) و(يمين) و(يسار)..

بالنسبة لهذه الكائنات، فإنك لو أخذت قلم رصاص وخرقت هذه الورقة التي يعيشون عليها فإنهم لن يشاهدوا هذا القلم قطعًا، ولا حتى سيشاهدون الخرق الذي سيحدثه فيها، ولا حتى سيشاهدون الفتحة وهي تتسع مكان القلم، بل كل ما سيشاهدونه من رؤيتهم هو خط يبدأ صغيرًا (في اللحظة التي يخترق فيها سن القلم الورقة) ثم يزداد (كلما ازداد القلم في اختراق الورقة) حتى يصل إلى أكبر حجم له (في اللحظة التي يخترق القلم الورقة بالكامل) حتى يدخل جسم القلم كله.. بعد ذلك لن يشاهدوا شيئًا ولن يلاحظوا أي تغيير

لو أدخلنا القلم وأخرجناه مئة مرة (لأن الفتحة لن يزداد عرضها أو يقل..!)..

هذا هو ما سيحدث لنا تمامًا لو زارنا كائن من بعد آخر لا نعلمه، لن نرى منه إلا انعكاس أو ظل أو آثار، ولربما لا نلحظ أي شيء على الإطلاق..!

لذلك يفكر بعض علماء الفيزياء الآن أن العالم الذي نراه الآن قد يكون مجرد صورة هولوجراميّة لعالم آخر رباعي أو خماسي الأبعاد..! هناك منهم من بالغ في الشطط وجزم بأن عالمنا يحتوي على أحد عشر بعدًا.. وكان يرى أن هذا هو الحل الوحيد لكي يتم حل معادلاته الرياضيّة..

لا يعنينا كل ذلك، ولكن فقط أردنا أن نوضّح أن حدودك الإدراكية بالغة الضيق والصغر، ولكنك لسبب ما لا تريد أن تقنع بذلك..!



فحينما يتحدث القرآن عن صفات الله ﷻ التي تحارُ فيها العقول، ومنها بطبيعة الحال الطريقة التي كان الله ﷻ بها موجودًا قبل الوجود، فهو الأول الذي ليس قبله شيء.. يخبرنا القرآن أن هذا أمر طبيعي علينا ألا نقدر على استيعابه بشكل كامل..! كما يقول ﷻ: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ (طه ١١٠)..

ومن ثمّ يكون من الحمق – ومن أفعال جحا كما وضّحنا – أن تصرّ على اتباع هذا الطريق والبحث عن هذا الجواب، طالما اتفقنا أنك تتعامل مع كينونة إلهية أكبر بكثير مما يقدر عقلك على أن يحيط بها.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ (الإسراء ٣٦)..

وقبل أن تورد اعتراضك الجديد، دعني أذكّرك أننا لم ننتهِ أيضًا بعد..!

٤- الإنسان المفعول به..!

كلنا يحب أن يلعب مع الأطفال لعدة أسباب، ومنها الطريقة اليسيرة التي يمكن خداعهم بها فنعتبر أنفسنا عباقرة.. تأخذ الكرة فتدّعي أنك وضعتها في فمك ثم تخرجها من أذنيك فينبهر ويظن أن لديك قدرة سحريّة ما فتصفه بأنه (أبله)..

على أن هذا الطفل ليس غبيًا على الإطلاق، لربما تكبر قليلًا وتشيخ وتذهب إلى عيادة طبيب شهير ليتضح أنه هو هو ذلك الطفل الذي كنت تلاعبه في خمس سنينه الأولى بعد أن أثبت لك ذكاءه وقدراته العقلية غير المنقوصة..

السبب الحقيقي الذي جعل الطفل بهذا الغباء هو أن عقله لم ينضج بعد.. مخّ الطفل بعد الولادة تمامًا يبلغ حجمه تقريبًا ٣٠٠ سم^{٣}، ليصبح ٩٥٠ سم^{٣} عند سن ثلاث سنوات، وحوالي ١٠٥٠ سم^{٣} في سن خمس سنوات..

حجم مخ الإنسان البالغ عمومًا ١١٣٠ سم^{٣} في النساء و١٢٦٠ سم^{٣} في الرجال، بالطبع هناك اختلافات فرديّة في هذا، لكن هذا هو المتوسط..

هذا هو السبب في أنك لو أمررت يدك على دماغ الطفل حديث الولادة ستشعر بأنه يوجد تحت جلده فتحة كبيرة مخيفة فوق الجبهة، هذه هي الـ Anterior Fontanelle، هذه الفتحة موجودة هناك كي تسمح لدماغ الطفل بأن ينمو، ولا تنغلق قبل سن عام ونصف تقريبًا.. لو حدث أن أُغلِقَت مبكرًا فهذا معناه: إعاقة ذهنيّة..

كل ما أنتجه الإنسان من حضارة عظيمة وأفكار رائعة كان نتاج هذه الـ ١٢٠٠ سم مكعب من الخلايا المخّية، عندما نقصت بمقدار ١٥٠ فقط صار بوسعك أن تخدع صاحبها بألعاب سحرية بلهاء، ويكاد لا يعرف كيف يجمع سبع تفاحات على أصابعه..!

يمكنك أن تتخيل ماذا سيحدث لو زاد إذن حجم المخ للضعف مثلًا..؟! ما كم

الذكاء والقدرات المخّية التي سيحصل عليها ذلك المحظوظ..؟؟! تخيّل د. نبيل فاروق كاتب الخيال العلمي المصري ذلك في إحدى رواياته، فكانت النتيجة رجلًا يتحكم في العالم كله بأشعّة غامضة تخرج من دماغه الجبار.. هناك دائمًا أشعة غامضة في قصص د. نبيل على كل حال..

لذلك لا يسعني إلا أن أشعر بالشفقة تجاه من يظن أنه يقدر على أن يحيط علمًا بخالق الأكوان بالألف ومائتي سم مكعب خاصته من الخلايا العصبية..!

أنت مفعولٌ بك، لم تختر أن يكون مخك أعظم مخ على الأرض وبرغم ذلك بهذه المحدوديّة الرقميّة.. بل في الواقع إنه اختيار الله ﷻ لك، إنه فعل الله ﷻ فيك، إنها مشيئة الله التي سمحت لك بأن تعلم (بعض) الأشياء بما يشاء..! كما يقول ﷻ في أعظم آية في القرآن: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ (البقرة ٢٥٥)..



أنت تعلم معنى (مفعول به) حين تنظر إلى المرآة فتجد وجهك وشكلك المحفوظيْن اللذيْن لا يمكنك تغييرهما، لقد فُطرت هكذا من دون اختيارك، من دون أن يسألك أحد..! هذا بلا شك دليل على اختلاف المكانة العظمى بينك وبين الفاعل الأعظم، الله ﷻ.. كما وصف الله ﷻ نفسه حينها بـ (العزّة) في قوله: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (آل عمران ٦)..

هذه (المفعوليّة) توقفك عند حدّك الطبيعي وتمنعك من الطغيان، كما دار الحوار التالي بين فرعون الذي خرج عن حدّه الطبيعي واعتبر نفسه ندًّا لله ﷻ فأراد أن يسأل عن كينونته، وبين موسى عليه السلام الذي كان ينظر لله من وجهة نظر مكانته الإنسانية المفعول بها والتي ترى الوجود كله أيضًا مفعولًا به: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ**

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء ٢٣-٢٨)..

لا عجب إذن من أن الله قد سنّ القوانين التي تفصلنا عنه في صفاتنا، قد حكم بالأحكام التي تجعلنا لا نساويه، قد خلقنا على طريقة مغايرة عن ذاته الكاملة..

على سبيل المثال جميع مخلوقاته أزواج، بينما هو فردٌ أحد لأنه ليس كمثله شيء: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى ١١).. وجميعنا ننعس وتنفد طاقتنا بينما هو الحي القيوم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة ٢٥٥).. وجميعنا ينفى ويضمحلّ ويموت والله ﷻ باقٍ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن ٢٦-٢٧)..

لماذا نجرؤ على الغرور إذن ونظن أننا قد نلنا من صفات الإله..؟! لماذا نُشكِل على كيفية صفات الله ﷻ وكأننا نفهمها حقًا..؟! وكأننا نعرف ما نتكلم عنه..! وكأننا مثل الله ﷻ..!

الله ﷻ ليس مثلنا، ذاته غير ذاتنا، صفاته غير صفاتنا، أفعاله غير أفعالنا.. وحين نتأمل في مفعوليّتنا وفاعليّته، في غلبتنا على أمرنا وفي إرادته، في عجزنا وفي قدرته، لا يتسنّى لنا أن نعتبر عقولنا الصغيرة مصفاة فرز لصفات الله، أو أن نظن في أنفسنا القدرة على الحكم بـ معقوليّة أو لا معقوليّة وجوده..! لا يتسنّى لك أن تغترّ إلى هذا الحد..!

لماذا..؟!

لأنك مخلوقٌ وهو الخالق أيها الساذج..! ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار ٦-٨)..!

٥- الظاهر الباطن..

كتب رائد الأدب الإنجليزي (هربرت جورج ويلز) في ١٩٠٤ قصة (وادي العميان) وتحكي عن مجموعة من المهاجرين من أمريكا اللاتينية سقطت عليهم انهيارات صخريّة في جبال الإنديز فعزلتهم بشكل كامل عن بقية العالم، ثم انتشر بينهم مرض أدى إلى التهاب أعينهم وفي النهاية أصيبوا بالعمى هم وكل من ينجبونهم، وبعد عدة أجيال صارت هذه المنطقة المعزولة مدينة كاملة كل من فيها عميان ولا يعرفون أي شيء عن العالم، أو يصدقون أن هناك أصلًا شخص يمكن أن يرى شيئًا غير الظلام الدامس الذي اعتادوا رؤيته ولم يروا غيره..!

استمر الحال على ذلك حتى سقط في واديهم مغامر بريطاني كان يستكشف الجبال، وعرف أنه لا يستطيع الخروج من هذا السجن.. في اللحظة الأولى ظن أنه سيكون ملكًا عليهم، إذ إنه الوحيد المبصر وسط العميان.. لكنه فطن بعد ذلك إلى أنهم كانوا يعتبرونه مجنونًا أصلًا ولم يصدقوا أن هناك نور بالفعل وإبصار وأشياء من هذا القبيل..

في النهاية ولكي يندمج هذا البطل المبصر مع بقية السكان فكّر في أن يفقأ عينيه، ولكنه تراجع عن ذلك في اللحظة الأخيرة لما رأى جمال أشعة الشمس وعلم أنه لن يتخلى عن هذا بسهولة من أجل حفنة من الأغبياء..

ذكرت هذه القصة لأنني لا أريدك أن تستخلص مما سبق من النقاط في هذا الفصل أن صفات الله ﷻ محتجبة عنا بالكامل أو أن الله ﷻ خفيٌّ عنّا بشكل تام..!!

هذا ليس بصحيح على الإطلاق، فصحيح أن الله ﷻ هو اللطيف الذي يخفى على عباده، والباطن الذي لا يوجد ما هو أخفى منه أيضًا، ولكنه أيضًا الظاهر الذي ظهر عليهم وظهر لهم بكل شيء، فليس ثمّة شيء فوقه، أو أظهر منه..!

هذا التباين نجده في المثال الذي ساقه الله ﷻ لنا في القرآن حين يقول الله ﷻ: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ**﴾ (النور ٣٥)..

هذا هو المثال الذي دأب على شرحه علماء التفسير وأهل الوعظ والرقائق منذ فجر الإسلام، ودأبوا على ذكر معنى التشبيهات المذكورة في الآية.. المثال الذي يبيّن لنا كيف أن الله أظهر وأوضح من أي شيء آخر..!

كوّة في الجدار تسبب تضخيم للضوء وتحميه من التشوّش والتشتت، تحوي بداخلها زجاجة شديدة اللمعان والنقاء كأنها نجم في سماء الصحراء الصافية، والزجاجة تحوي مصباحًا يأخذ وقوده من زيت شديد الصفاء، هذا الزيت لم يأتِ من أي شجرة، بل كانت شجرة مباركة في موقع متميز من أشعة الشمس التي لا تغيب عنها مما يؤهلها لإنتاج أفضل الزيتون وأكمله، مما يجعل زيتها نضرًا صابحًا يكاد يضيء بدون حتى أن تمسّه بالنار..!

مثال تشبيهي رائع.. لا يمكنك أن تتخيل نورًا أنقى ولا أظهر من ذلك النور.. وبرغم ذلك، لا يدرك ذلك النور أي أحد..! فبعد هذا المثال مباشرةً يقول الله ﷻ في نفس الآية: ﴿**يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ (النور ٣٥)..!

ليس كل أحد يقدر على رؤية هذا النور إذن..! وبنفس منطق الرجل المبصر في وادي العميان.. لماذا كانوا عميانًا..؟ لأن آلة إدراكهم قد فسدت فلم يروا هذا النور..

فلا تفسدها أنت بيديك عمدًا ثم تقول: لا أراه..

بالطبع لن يراه حينها هذا البائس..!

أنا حزين فعلًا من أجله..!

الذين رسبوا في اختبار الخط

(عن شبهات الربوبيين، والغاية من الخلق)

لسبب ما تشكل ذكريات المدرسة الابتدائية أقوى الذكريات لدينا، بينما لا يمكننا أن نتذكر معظم ما حدث في المرحلة الثانويّة، وبالطبع كلنا يعلم أن أحدًا منا لم يدخل المدرسة الإعدادية أصلًا، بل هي خدعة مشتركة من أهالينا جميعًا.. وإلا فأين ذهبت كل هذه الذكريات..؟!

من أقوى ما أذكره من هذه الفترة أني في امتحانات الشهادة الابتدائية —وبعد أن اجتزت الكثير من الاختبارات الصعبة— كنت أختبر مادة (الخطّ) حين يكون عليك أن تقلّد الخطوط المرسومة أمامك، لا أحد يرسب في اختبار الخط فعلًا، ليس لأننا نجيد ما نفعله فيه، بل في الحقيقة معظم الطلاب يستحقون أن يرسبوا بجدراة، ولكن لأنه من المستحيل على إدارة المدرسة أن تقنع أهل الطالب بأن من مصلحته أن يعيد عامًا كاملًا من حياته لأنه يكتب كالدجاج..

لذلك لم أهتم كثيرًا بهذا الاختبار، وحين بدأت في التململ أخذت أرسم في منتصف كرّاسة الإجابة وبالقلم الجاف، الكثير من البطّ والمسدسات وأعلام مصر والشمس على ركن الصفحة كالمعتاد..! اندهش المراقبون من فعلي، وجاءت مشرفة الدور لترى ما فعلته بالورقة التي ينص القانون على رفض نجاح صاحبها وهي بهذا الشكل..

ما زلت أذكر ملامح وجهها غير المصدقة نصف غاضبة ونصف مندهشة، وهي تسبّني بسبّة (ميري) جدًا: يا تحفة.. نظرت لها في عدم اكتراث وقلت لها: لا أحد يرسب في اختبار الخط يا أبلة.. قالت: قل لنفسك يا تحفة..

اندهشت وقتها من أن الأمر لم يكن بسيطًا فعلًا، فهذه اختبارات الشهادة الابتدائية حيث هناك مراقبون من الوزارة، وقواعد بيروقراطيّة صارمة، والاحتياج الدائم لختم النسر وإمضاء أستاذة دولتْ على كل شيء.. في النهاية، وبعد عدة تدخّلات نجحوا في تبديل ورقتي مع تأكيدات بألا تعيد الرسم وتجاوب على الاختبار يا تحفة..

الراسبون في اختبار الخط هم أسوأ البشر حظًا..! أولئك الذين يفعلون الصعب وينسون السهل، الذين يجتازون الأسئلة العسيرة ثم يقعون في أسهل الأسئلة وأهونها، الذين سلكوا أول طريق الإيمان ثم ارتدوا على أدبارهم القهقرى عند منعطف لم يكن زلقًا إلى هذا الحد..!

هؤلاء الذين يسألوننا: حسنًا، الله موجود، وهو أعلى وأكبر من أن نحيط علمًا بصفاته، ولكن من أخبركم أنه يسمعنا ويعلم بحالنا وينزل لنا شرائعه ويدعونا لعبادته..؟! لماذا لا يكون قد خلقنا ثم هجرنا..؟؟

لنرى كيف أجابهم القرآن إذن..

١- المحطّة الأولى: لا يوجد إهمال..!

على أبواب المسارح ومدن الملاهي يقومون بوسم حاملي التذاكر من أجل التعرّف عليهم حين يرغبون في الخروج والعودة لأنه من غير الإنصاف أن يطالبوهم بتذكرة دخول جديدة في كل مرة يعودون فيها من الحمامات..

من سمات الحوار المنطقي أن يمتاز بالخاصية ذاتها، وألا يضطر أحد طرفي الحوار أن يعود بصاحبه لبداية السلسلة في كل مرة أراد أن ينتقل فيها إلى محطة جديدة..

فأنت إن كنت قرأت الفصلين السابقين ووصلت إلى قناعة خاصة بأن الإله موجود ولكن لربما لا دخل له فعلًا بحياتنا الدنيا، فاسمح لي بأن أنطلق من المسلّمة التي اتفقنا عليها: نحن لم نأتِ صدفة، ولكن بتدبير من خلاق عليم..

ولكنك لربما تظن إذن أن الله قد خلقنا ثم تركنا، أو خلقنا دون أن يقصد، أو لم تكن هناك غاية محددة من الخلق..!

لربما كان أقوى مثال على الاعتقاد السابق ذكره، هو صانع الساعات الذي يقوم بضبط تروس الساعة للعمل تلقائيًا ثم يتركها تدور دون أن تحتاجه في كل مرة تدق فيها الساعة الواحدة.. هذا الإله لم يخلقنا لغاية محددة ولا يهتم بنا، في الواقع لربما هو قد هجرنا إلى مكان آخر أو خلق جديد، هو ليس معنا في هذا العالم، دعواتنا وصلواتنا لا يسمعها أحد، لا يوجد ما هو (بعد الموت) وبالقطع لا جنة أو نار..

في أولى محطاتنا إذن للنظر إلى الإجابة القرآنية على هذا نلاحظ أن القرآن قد عارض صراحةً ذلك المبدأ العقلي المبسَّط الكسول: إهمال الله لخلقه..! كما يقول الله جل جلاله: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ**﴾ (المؤمنون ١٧).. وكما يقول جل جلاله في الآية الأخرى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ (الزمر ٦٢)..

هناك تلازم بين الإيجاد والرقابة المستمرّة في خلق الله عز وجل، هذا التلازم يلاحظه الإنسان في التيسير أو التعسير الذي يلقاه في أموره الخاصة.. الذي قد يخرج عن نطاق المنطق المادي القائم على الاحتمالات في أحيان كثيرة إلى منطق ميتافيزيقي ممّا وراء الطبيعة..! ربما لهذا يشيع مبدأ الـ (كارما) في ديانات شرق آسيا كالبوذيّة والهندوسيّة واليابانيّة والطاويّة والسيخ..

من هذه الديانات ما هو إلحادي صرف، لا يؤمن بوجود إله لهذا الكون ولكن لسبب ما يتخذون طرق روحانيّة معقدة للحياة فقط، ومن هذه الديانات ما هو وثني تمامًا، ومنها ما هو ليس ديانة أكثر من مجرد مدرسة يوجا قديمة..!

برغم ذلك اشتركوا في الإيمان بهذا المبدأ الروحاني: الكارما، تعني أن أفعالك الحسنة والسيئة تنعكس على قدرك في هذه الدنيا، تجد التيسير لك في أمورك، وتنجح في حياتك الزوجيّة، ويتسنى لك اللحاق بالقطار في آخر لحظة..كل هذا ليس اعتباطًا ولكن لأنك تعامل الناس بشكل حسن ولا تكسر إشارة المرور وتطعم جارك معك في وجبة التوابل العجيبة التي صنعتها زوجتك..

أما النصف الغربي من العالم، هؤلاء الذين لا يهتمون بالرياضات الروحيّة إلى هذا الحد، فإنهم لاحظوا أيضًا أن هناك سرًا غامضًا ما يربط عملية (التوفيق) والتيسير هذه، للدرجة التي جعلت الأسترالية (روندا بايرن) تدّعي أنها قد وصلت إلى (السرّ).. وأنتجت كتابها الذي يحمل نفس الاسم وبيع منه عدة عشرات من الملايين من النسخ.. هو كتاب مليء بالهراء تمامًا في نظري..! يتحدث عن قانون الجذب ويخلط قوانين الحركة الفيزيائية بالطاقة النفسيّة وقواعد تنمية الذات.. وبرغم ذلك لاقى رواجًا شعبيًا كبيرًا من مختلف الثقافات.. من جديد نحن نتعامل مع الاستشكال البشري للطريقة الغامضة التي تُدار بها الأمور..



في المقابل، فإن القرآن يعطيك التفسير الأمثل والوحيد لهذا اللغز.. إن الإله الذي خلق كل شيء، لم يكن أبدًا صانع ساعات، ولم يكن له أن يخلق هذا الخلق ثم يغفل عنه، هو ليس جاهلًا عمّا يدور به، ولا غافلًا عمّا يحتاجه أو (يستحقه) هذا الخلق، هو ليس عاجزًا عن أن يلاقي أهل الإحسان بما يحتاجونه ولا أهل الإساءة ببعض ما يستحقونه، بل هو القدير الذي أحاط بكل شيء علمًا..! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ (الطلاق ١٢)..

لذلك تجد أن الله لم يهملنا لحظة، يطعم جائعًا، ويستر عاصيًا، ويجبر مكسورًا، ويرزق محرومًا، ويرحم يائسًا، ويرزق الجميع من حيث لا يحتسب أحد.. كما يقول ﷻ: ﴿**يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ (الرحمن ٢٩)..

الله عز وجل لم يخلقنا ثم يهملنا إذن..!

٢- المحطة الثانية: ولا يوجد لهوٌ..!

الشركة الأمريكيّة (جارتنر) المتخصصة في التقنية المعلوماتيّة أعلنت أن الاستثمار في ألعاب الفيديو قد تحوّل حجمه من ١٠٠ مليون في ١٩٨٥ إلى ٤ مليار في ١٩٩٠.. أصبحت هذه الاستثمارات ٩٣ مليارًا في ٢٠١٣..! بالطبع لا أريد حتى محاولة معرفة حجم هذه الاستثمارات الآن في ٢٠١٥.. حقيقة أن البشريّة تنفق كل هذه الأموال على تطوير ألعاب تسنح لك بالعيش في عالم افتراضي يمكنك فيه مصارعة المجرمين بعضلاتك القويّة وإنقاذ حبيبتك من السيارة التي على وشك الانفجار، بدلًا من إنفاقها على محاولة هزيمة المجرمين الحقيقيين في الشوارع فعلًا أو إنقاذ ملايين الأطفال من الموت جوعًا وبردًا، هذه الحقيقة تصيبنا بالغثيان..!

طبقًا لمنظمة مكافحة الأمراض CDC فإنه بين عامي ٢٠٠٩ و ٢٠١٠: ١٢% من الأطفال من سنتين إلى خمس سنوات، و١٨% من الأطفال من سن ٦ إلى ١١ سنة، و١٨،٤% من سن ١٢ إلى ١٩ سنة مصابون بالسمنة.. هذا البحث لم يضع في اعتباره هؤلاء الذين يعانون من بدايات سمنة بسيطة: (تختخة) أو وزن زائد: (Overweight).. هذه الأرقام المخيفة ظهرت مع إدمان ألعاب الفيديو التي جعلت الأطفال مشغولين في مكافحة الزومبي في غرفة المعيشة بدلًا من اللعب والحركة والنشاط الجسدي الحقيقي في الأندية..

تؤثر ألعاب الفيديو أيضًا بشكل سلبي للغاية على معدّل الإنتاجية والحياة الاجتماعية وتأسيسات النجاح في الحياة كما جاءت نتائج دراسة لـ (فونك) و(بوخمان) في ٢٠٠٨.. مما أصّل في الوجدان البشري أن ألعاب الفيديو ليست للناجحين..! فالعقول العظيمة لا تلعب الفيديو كما يقول (راي برادبوري) الأديب الأمريكي الشهير..

حتى بين مدمني هذه الألعاب يشيع الشعور بالاكتئاب والدونيّة من جرّاء إنفاق

الأوقات الطويلة على الخيال العابث، بدلًا من معيشة هذه الحياة فعلًا..! لذلك يقول مثلًا باتريك شان (بطل العالم ثلاث مرات في التزحلق على الجليد): أنا أحب ألعاب الفيديو، لكن بعد فترة تشعر أنك تحتاج إلى القيام من مقعدك وأن تفعل شيئًا ما..!

الناجحون لا يضيّعون حياتهم في ألعاب الفيديو..! قاعدة يعرفها الجميع، ولأننا نملك هذه النظرة البشريّة إلى هؤلاء الذين يضيّعون أوقاتهم وقدراتهم في عمل عابث ليس له قيمة، فبالتالي نحن نعلم جيّدًا بشاعة من يظنون ذلك في الله ﷻ..! فيذكّرنا القرآن بفداحة هذا الظن السيء به، كما يقول ﷻ: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾ (الأنبياء ١٦)..

ﮂﮃ

ولكن أيضًا ما هذا الغرور البشري الفادح الذي جعل بعضهم يظن أنه أهل بأن يكون محطّ اللهو الإلهي لو كان هناك شيئًا من هذا والعياذ بالله..؟! إنه كما تخيّل الإغريق آلهتهم: مجموعة من المرضى النفسيين الذين لديهم Issues باستمرار من البشر، فتراهم يفضلون أن يشعلوا حربًا بين الإغريق وأهل مدينة طروادة من أجل أن يتسلّوا بالمشاهدة وتشجيع أبطالهم المفضلين، بينما تنزل (أفروديت) إلهة الحب، و(أثينا) إلهة الحكمة، و(هيرا) ملكة الإلهات إلى الأرض ويحكّمون شابًا مراهقًا (باريس) في: أينا أشد جمالاً..!

هذا تصوّر بشري مريض لمقام آلهتهم التي جعلوها بكل هذه (النفسنة) والحاجة إلى اللعب والتسلية..

بينما القرآن يتسم مع النظرة العاقلة في الإنسان الذي يقول إنه على الأقل لو افترضنا أن الإله يريد أن يلهو —وحاشاه ذلك سبحانه— فسيتخذ لهوًا أفضل وأكمل وأعقل وأجمل من هذا الكائن الضعيف المتهالك: الإنسان..! كما يقول ﷻ: ﴿**لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ (الأنبياء ١٧)..

لا يوجد إهمالٌ ولا لهوٌ إذن..!

٣- المحطة الثالثة: لا توجد عبثيّة كذلك..!

يعرف كتاب الروايات اليوم أن عصر الحداثة يتطلب أن تجعل بطل روايتك أقرب إلى نوع (اللا بطل) : (Anti–Hero)، مثل السياسي الخبيث أو المتهور الأحمق أو مريض الربو الذي لا يستطيع أن يلاحق أي مجرم في الطرقات لأنه سيحتضر مع أول عشرين مترًا يجريهم.. لأن هذا النوع من الأبطال قريب فعلًا إلي كل واحد منا، أنت لا تحمل بداخلك (أدهم صبري) الذي يجيد كل شيء من غسيل المواعين وحتى قيادة السفن الفضائية، ولا (شِرلوك هولمز) الذي لا تفوته الهفوة.. في الواقع لربما أنت أقرب إلى (بطوط) البط الكسول متقلب المزاج الأناني إلى حد كبير ولكنه طيب القلب حقًا ويرعى أبناء أخيه..!

برغم ذلك فهم يعرفون أيضًا ضرورة أن يملك هذا البطل شيئًا ما يستحق الحديث عنه، شيئًا يميزه عن باقي سكان الكوكب الذين لا تحب أن تقرأ قصة حياتهم لأنها ببساطة مملة..! لربما كان هذا الشيء هو المزيد من العلم أو الذكاء، لربما كان المزيد من سوء الحظ أو المصائب، أو حتى المزيد من الغباء..! أي شيء يجعل هذا الشخص مثيرًا للفضول.. ومرة أخرى هم يفعلون ذلك لأن هذا أقرب إلى الطريقة التي ينظر بها كل واحد منا إلى نفسه، والشعور بالتميز الذي نُكنّه لأنفسنا دون أن نعترف به..!

كل واحد منا يظن بشكل ما أنه يستحق أن تُجرى معه لقاءات صحفية ويتحدث الناس عنه وعن أفكاره..! إنها الحماسة التي تعترينا في اللحظة التي نجد أمامنا فيها مكبر صوت وجمهور من البشر يستمعون.. أو نجد (مارك) وهو يسألنا سؤاله المعهود: (ما الذي تفكر فيه؟) على صفحة فيسبوك.. إنه الشعور الذي وجدناه في أنفسنا منذ بدأنا نتعرف على الوجود... أنا مميز، أنا مختلف..! لذلك تجد الكثير ممن يشكو أنه لا أحد يفهمه، أو

تجد هذا الرجل وعلى وجهه ابتسامة ساخرة وهو في حفل صاخب، أو تلك المرأة التي تشرب قهوتها في شرود فلسفي ما.. هم يشعرون أنهم مختلفون عن كل ما حولهم، وهم صادقون في ذلك..!

أنت تشعر أنك موجود، موجود جدًا لو صح التعبير..! في داخل وعيك الإنساني عالم متكامل من صنعك..! في هذا العالم صوت الخوف فيه هو نباح الكلب، لا لشيء إلا لأنك تخاف من الكلب..! ورائحة العطر الذي تضعه أمك في الصباح قبل أن تعانقك صار في هذا العالم الخاص هو رائحة الحنان ذاته..! في هذا العالم الفريد أنت تملك تخيلًا عن شكل الاشتهاء متمثلًا في منظر وجبتك المفضلة على المائدة.. تعرف ما هي صورة الحزن، إنها تلك الصورة التي تراها حين تتذكر أسوأ ذكرياتك المؤلمة.. تعرف ما هي أبعاد الحقيقة، إنها تلك القناعات التي وصلت لها بخبرتك الشخصية..! في عالمك الخاص قمت بالرجوع للزمن مئات المرات لإصلاح أخطائك، قمت بالتحليق في عوالم خيالية لم يفكر بها مخلوق، وخطبت بنت السلطان، وصارعت قراصنة الكاريبي، وقدت الجيوش ضد روميل..!

هذه هي الطبيعة التي خلقنا الله تعالى عليها، هذه هي عظمة الوعي الإنساني الذي اختصنا به دون غيرنا.. الشعور بالتفرّد والأهمية والمسؤولية والطموح، القدرة على الحلم والأمل والتمنّي، إمكانية الاختيار والاعتبار وتمييز الصواب، إدراك الوجود وتمييز العالم والإحساس بالجمال..

هذا وعي عظيم إذن..! لا بد أنه أعظم من أن ينتهي بسكتة قلبية ناتجة عن تراكم الشحوم، أو حادثة على طريق الساحل..! من المنطقي أنه سيستمر إلى ما بعد ذلك.. من البديهي أن عملية إنشاء هذا الوعي العظيم من نطفة منيّ غبيّ، لم تكن بلا هدف ولن تمرّ مرور الكرام..! من المؤكد أنه لن يُهمل ولن يُنسى ولن يُرحم من السؤال.. من المهم أن

تسأل نفسك هذا السؤال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ (القيامة ٣٦-٣٧)..؟!



يأتيك هذا الجواب القرآني حين تسأل: إذن لربما كان الإله ما زال يحوطنا برعايته ولم يهملنا، وربما كانت له غاية من الخلق ولا يلهو بنا، ولكن لماذا لا تكون هذه الغاية هي مجرد وجودنا في الدنيا، نموت بعد أن نحيا، وهذا كل شيء..!

حين تتأمل في التباين الضخم بين الأصل الذي كان عليه الإنسان من كمية سائل صغيرة تحتوي خلايا مثيرة للشفقة وتسبح في بحيرة من الفركتوز، وبين النتيجة التي صار عليها من شخص مهيب يرأس الدول أو يقود الجيوش، أو امرأة مرهفة الحس تكتب الروايات الدراميّة وتكوّن فلسفتها الخاصة عن الحياة، أو شخص عبقري يحلل ببراعة وذكاء أعوص مسائل الفقه ويحفظ المجلدات السميكة المرعبة..

هذا التباين غريب، إنه يعني أن هناك من (قدر) و(أراد) و(اعتنى) بهذه القطرات الثخينة لتصير هذا الكائن المبهر بكل ما يحويه في رأسه من أفكار عظيمة وعالم كامل غير منقوص..! هذا خلق عظيم ، وتدبير فائق، من المنطقي أن هذا المخلوق الذي حدثت له هذه الطفرة الكبيرة لن ينتهي وعيه بهذه البساطة ويصير إلى التراب ويفنى، ولن يُترَك سدًى.. وإلا فلمَ كان كل هذا إذن..؟! هل مجرد عبث..؟! كما يقول الله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون ١١٥)..؟!

لا، لا توجد عبثية على الإطلاق..

بل لا بد من وجود غاية جادة من هذا الخلق..!

٤- المحطة الرابعة: وهذه الغاية ليست فاسدة..!

بالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تحوي إلا ٥% من سكان العالم، إلا أنها تتربع بلا كبير منافسة على التعليم العالي..! إذ إنه في أعلى ٢٠ جامعة علميّة في العالم تأتي ١٧ جامعة أمريكيّة..!

جامعة هارفارد هي أعلاهم على الإطلاق، إذ إنها تحتل المركز الأول في جامعات العالم، على سبيل المثال ٢٣ رئيسًا أو ملكًا على مستوى العالم على مر العصور المختلفة حتى لحظة كتابة هذا الكتاب، تلقى تعليمه في هذه الجامعة..! أخذني الفضول للبحث عن السبب الذي جعل هذه الجامعة بهذا التميّز، فوجدت أن هذا بسبب درجة الانتقاء العالية التي تتميز بها..!

تحرص (هارفارد) على الانتقاء العالي، مثل انتقاء المدرّسين بها، مثلًا هناك ٤٧ أستاذًا جامعيًا بهذه الجامعة قد حصلوا على جوائز نوبل (تذكر أن عدد جوائز نوبل التي حصل عليها كل المسلمين في كل العصور هو ١٢!!)..

كما أن هناك انتقائيّة أعلى للطلاب الذين يلتحقون بها، ففي العام الماضي (٢٠١٤) لم تقبل سوى ٥،٩% فقط من المتقدمين لها من الطلاب..! هذه الانتقائيّة ليست مادية، بل لقد دفعت في العام الماضي فقط ١٦٠ مليونًا من الدولارات للطلاب المؤهّلين علميًا غير القادرين على دفع التكاليف المادية للدراسة، ممّا جعلها تشمل تنوّعًا كبيرًا من الطلاب داخل وخارج أمريكا من خمسين خلفية ثقافيّة مختلفة، لا يجمعهم شيء إلا أنهم يستحقون..!



لو سمعت عن مدرسة كل من يلتحق بها ينجح وبدون اختبار، فإنك تكوّن فكرة جيدة عن مدى نجاح هذه المدرسة فعلًا، وأؤكد لك أنك لن تحب أن توظّف أيًا من خرّيجيها في شركتك الخاصة..

ومن تأمل بسيط في خلق الكون، هذا الإحكام الكوني العظيم يتنافى مع هذه النظرة الاختزاليّة لغاية الوجود: الكلّ يتساوى.. بل الخلق كله قائم على (الحق)..! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم ١٩-٢٠).. ويحكي عن الرجل العاقل الذكي الذي فهم هذه الحقيقة فيقول ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران ١٩٠-١٩١)..

الإجابة القرآنية تأتي ذلك الذي يتساءل عن غاية الخلق، ليعلم أن هذه الغاية لا يمكن أن تكون عبثيّة، ولا يمكن أن تكون باطلة وفاسدة كذلك..! هذه الغاية لا يمكن أن تسوّي بين الصالح والطالح، وتذهب بتعب العاملين سدًى، ولا يمكن أن يكون النظام الكوني مبنيًّا على هذه العشوائيّة في الاختيار، والفوضويّة في التقييم، والاشتراكيّة في الجزاء..!

بل وقتها لن يتساوى الجميع فقط، ولكن أيضًا سيفرّ ذلك المتمتع بالشهوات المحرّمة والأموال المنهوبة والمناصب المسلوبة والتسلّط على الرقاب.. سيفرّ بفعلته وسيكون قد حاز على فضل الداريْن..! ذلك ظنٌّ شنيع بالله ﷷ أن يسمح بذلك في كونه، هذه المساواة في النهاية لا تساوي إلا (فشل) كامل للنظام الكوني الموضوع، وحاشا لله أن يسمح بهذا الفشل..! تَسَاوي الجميع حينها لن يُسَاوي إلا بطلان لغاية الوجود، كما يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص ٢٧-٢٨)..



لا يوجد إهمالٌ إذن، ولا لهوٌ.. بل هناك غاية، وهذه الغاية ليست عبثيّة، وليست فاسدة باطلة تسوّي بين الجميع.. ولكن كيف لنا أن نعرف بذلك..؟!

٥- المحطة الخامسة: الإعلام بهذه الغاية..!

لا يريد والداك منك غير أن تصبح إنسانًا سويًّا ناجحًا في حياته، بالطبع هذا معناه أنهما لن يتوقفا عن الطموح بشأنك حتى تصبح أفضل إنسان بالعالم، ولا تريد زوجتك منك غير أن تكون إنسانًا طيبًا مراعيًا للمشاعر وخدومًا، ولا يريد أولادك منك غير أب لطيف متفهّم يصاحبهم، ولا يريد أصدقاؤك منك غير أن تكون وفيًا وتدعوهم إلى وجبات عشاء مجانيّة من آن لآخر..

أنت تعرف كل هذا بالطبع، أو حتى إن تم تضليلك بالشيء الذي يرغب فيه الآخر منك فهذا لا يعني أنك ستجد مثالًا واحدًا من حياتك على شخص أساء التواصل معك للدرجة التي جعلتك لا تعرف ماذا يريده منك حقًا.. هذا ونحن نتكلم في تفاهات هذه الحياة الدنيا، وليست غايات الآخرة العظيمة..!

لم يكن أبدًا الإله المعبود ليدعنا دون أن يُعلمنا بغايته منّا، إن كانت له غاية، وقد سبق ووضّحنا كيف أكد لنا القرآن بأن له غاية..!

بل لو حدث العكس لكان من الأمور المستهجنة الغريبة أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون إلهه لا يتكلم معه ولا يوضّح له ماذا يريده منه..! لذلك يقول الله ﷻ عن هؤلاء الذين عبدوا العجل الذهبي من بني إسرائيل: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ (الأعراف ١٤٨).. إذ كيف تعبد من لا يكلمك ولا يهديك إلى ما يريده منك سبيلًا..؟!

الله جل جلاله لا يفعل معنا ذلك، في المقابل يبيّن لنا ما يجب علينا أن نتقيه وما يجب علينا أن نحذره قبل أي شيء.. كما يقول ﷻ: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (التوبة ١١٥).. وظنّك بخلاف ذلك هو الخطأ الأكبر، والتهوين الشنيع من قدر الله ﷻ، أن تظن أن الله لم يرسل لنا أحدًا..! كما يقول ﷻ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام ٩١)..



الله لم يهملنا، لم يتخذ منا لهوًا، لم يخلقنا لغاية عبثيّة، ولا لغاية باطلة فاسدة، بل غاية حكيمة نبيلة لا يوجد ما هو حقٌ سواها، الغاية التي بدونها لا يكون لهذه الحياة معنى ولا هدف، ولا يوجد لها طعم أو حلاوة.. ثم أعلمنا بهذه الغاية بالطريقة التي اختارها سبحانه..

تأمل في الجواب القرآني جيدًا، وإياك أن ترسب في اختبار الخط..!

الحاسة الأولى

(عن سؤال: لماذا يكون الإيمان بالغيب)

أتعلمون..؟

أفكر في أننا نثق في أمور غريبة لا تستحق الثقة..!

نثق في ذاكرة ذلك الطبيب الباطني أن يتذكر معلومات طبية لربما لم يمرّ عليها منذ عدة سنوات.. أن يتذكر العلاج المناسب لحالتنا وألا يختلط في ذهنه بـ (سيانيد البوتاسيوم) على سبيل السهو.. قد كانت ذاكرته وخبرته العلمية وتعابير وجهه التي تدل على منتهى الحكمة والرضا الكامل عن النفس يكفون من وجهة نظرنا أن نسلّم له مستقبل غدتنا الدرقيّة..!

نثق بعدها في خطه الذي يشبه تعاويذ سحرة (الويكا) أن يقرأه بشكل صحيح ذلك الصيدلي.. ولربما لم يكن الصيدلي موجودًا واعتمد على (سيد شحاتة) العامل الشاب الذي يفكر في زواجه وأمه المريضة وصاحبه (متولي) الذي يدينه بعدة مئات من الجنيهات.. ومن جديد نحن نسلّم مستقبل كِلْيتنا إلى عقل (سيد شحاتة)..!

نثق في (فرامل) السيارة التي نقودها بسرعة ١٤٠ كيلو مترًا في الساعة، معتمدين على سلاسة الطريق السريع.. نثق أنه في اللحظة التي سنحتاج فيها إلى ضغطة الفرامل أن نجد (التيل) سليمًا غير متآكل من كثرة الاستخدام، وأن نجد زيت الفرامل في مكانه الطبيعي غير مسرّب، وأن نجد (ديسك) الفرامل قابلًا لتحمّل الاحتكاك المباشر مع الحديد.. إن مصير ذلك الحضن الغالي مع تلك الشاحنة العملاقة يعتمد على كل هذه الثقة العمياء..!

نثق في أشياء غريبة، لا نراها، غير ملموسة، غير واضحة، غير مُعتَمد عليها في الواقع... هناك الكثير من الأشياء في حياتنا الدنيا نقوم بفعلها اعتمادًا على هذه الثقة وهذه الحاسّة الخفيّة.. رغم أن الأمثلة المذكورة في الواقع لا تستحق كل هذه الثقة، لكننا لا نجد في أنفسنا كبير ممانعة منها، بخلاف أشياء أخرى هي أوثق منها بالتأكيد..!

ورغم أن الكثيرين يفضلون استخدام اسم (الحاسة السادسة) على تلك الحاسة الخفيّة

التي بها (نشعر) ولا (نرى) إلا أن هذه المرة نحن نتعامل مع حاسة أكبر من مجرّد (شعور)، إنها تلك التي ندرك بها الموجودات بما استدللنا عليه من المقدّمات العقليّة المعتادة، والملاحظات المنطقيّة المشَاهَدة، والدلائل المتناثرة التي تدل على شيء ما، شيء لم نره بعد ولكننا متأكدون من وجوده..! ربما نسميها (الثقة) أو (القناعة) أو (الفكر) أو (الإيمان)..

لذلك أفضل أن أسميها: الحاسة الأولى، إذ إنها في نظري أقوى من أي حاسة أخرى قد تخدعنا..!

حين تراقب أسراب النمل وهي تحوم حول مخلّفات إفطارك، فتذكّر أنك وبدون أن تشعر، وحين كنت تعدّ كوبًا من الشاي، قد ضُمِن لهذه العائلة النمليّة عشاؤها.. وحين تخاطر بإنفاق كل مالك على افتتاح محل صغير في شارع مزدحم بالمحلات الصغيرة، فمهما كان ضعف إيمانك أنت حينها تعتمد على هذه الحاسة..! ذلك الشعور الذي يطمئنك بأن حسابات الرزق لا تتم فقط بحواسك الخمس..! وحين تكون عاملًا وسط عدة عشرات من العمّال وكلهم يعمل في الحي الذي تعمل فيه، فإنك تعلم أنه سيكون لك نصيب في (التوزيع) بشكل أو بآخر..!

عمليّة الرزق هذه يتبين لك فيها أن مبناها على هذه الحاسة الأولى دون أن تشعر، لذلك يخاطبنا القرآن بإحساسنا تجاه هذه القضيّة بالذات، إذ إنها مثال واضح على مسألة الثقة (الغيبيّة) التي نشعر بها بفطرتنا البشريّة، فيقول الله ﷻ: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ**﴾ (سبأ ٢٤).. ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (العنكبوت ١٧)..!

الإيمان بشيء ما غير مرئيّ هو ليس بأعمى، بل نحن على يقين به أشد من يقيننا بما نراه، وبنفس منطق ذلك الذي يثق في حدْسه أكثر من واقعه، الفارق الوحيد أن الحدْس قد يخطئ، وأما الدلائل التي اعتمدنا عليها في الإيمان ليست بمخطئة..

لذلك نحن لدينا جوابات قرآنية كافية عن ذلك الذي يسأل: لماذا عليّ أن أؤمن بالله وهو غيبٌ عني..؟!

١- حتميّة..!

اختر رقمًا، ضاعفه، أضف عشرة، اقسمه على اثنين، اطرح منه الرقم الذي اخترته في البداية، هل حصلت على رقم خمسة..؟؟

إنها المتاهات الرياضية Paradox التي كنا نقوم بها ونحن صغار، ولسبب ما كنا ننبهر بها جدًا رغم أنه بقليل من التفكير، يتبين لك أنها معادلة بسيطة ذات متغير واحد محذوف..

هذا مثال مبسّط جدًا لعمليّة إيهام الاختيار بينما في الحقيقة هناك مسار لا بد أن تسير فيه، مهما كان تفضيلك للطريقة التي تحب بها أن تسير الأمور، إلا أن هناك إرادة عليا اختارت مسارًا إجباريًا لك تنتهي فيه الأمور..

فهناك حتميّة تتبين لك في قول الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ**﴾ (الأنعام ٩).. هؤلاء الذين ألحّوا في الطلب بأن يكون الرسول المبعوث من الله ملكًا ينزل من السماء، أجابهم القرآن بأن الله لو أنزل ملكًا لجعله في صورة رجل، والتبس الأمر عليهم واشتبه بطريقة أو بأخرى في النهاية، هل هذا رجل حقيقي أم ملك في صورة رجل..؟؟ وسينتهي بهم الأمر إلى نفس ذات الحيرة، ويسيرون في النهاية في مسار الغيب الحتمي، إذ إن إرادة الله قد اقتضت أن يكون الإيمان به بالغيب..!

هذه الحتميّة يخبرنا القرآن أنها مستمرّة معنا حتى الموت، لن يأتي عليك يوم تشعر فيه بيقين تام كمثل يقينك حين ترى يوم القيامة رأي عين، بل ستبقى لديك مساحة (طبيعية) من الظلاميّة والغموض لأمر الآخرة، لن تُزال هذه المساحة تمامًا حتى تراها بعينك، كما

يقول الله ﷻ عن يوم القيامة لما نراه بأعيننا: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق ٢٢)..!

لذلك فرّق الله ﷻ بين (علم) اليقين و(عين) اليقين: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (التكاثر ٥–٧).. إذ إنه مهما كان يقينك في الله واليوم الآخر، لن يكون أبدًا مثل ذلك اليقين حين تراهما بعينيك..!

هذه المساحة الطبيعية لا تخدش الإيمان، بل هو أمر طبيعي في الإنسان الذي خلقه الله ﷻ معتادًا على الشعور بحواسه التي أودعها الله فيه، حتى إن إبراهيم عليه السلام قد فهم ذلك، حين حكى لنا القرآن أنه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة ٢٦٠)..!

كان يبحث عن زيادة اطمئنان، عن إزالة لهذه المساحة، التي نجدها نحن في أنفسنا فنفزع منها، ولم نعلم أن هذا أمر طبيعيّ وسنة من سنن الله ﷻ في الدنيا، العيب فقط على من جعل هذه المساحة من الحيرة تكون في نفسه أشد وقعًا وأخطر فعلًا من الظلام الدامس والتخبط الدائم والحيرة المطلقة التي يكون فيها الكافر الذي لا يعلم من أين جاء ولا لماذا أتى إلى هذا العالم..!

٢- واختيار من الله..!

في الاختبارات التي يتم عقدها في الجامعات ذات المستوى العالي من التعليم يدخل الطلاب إلى قاعة الامتحانات ليجدوا ورق الامتحانات موضوعًا أمامهم على المنضدة، ولا يكشفونه إلا في لحظة معيّنة يحددها مراقب اللجنة، حتى يتحقق العدل بين الطلاب في الوقت الذي اختُبِروا فيه، بدلًا من أن يكون هناك تفاوت في هذا الوقت بين من كان

محظوظًا ويجلس في مقدمة اللجنة وأخذ ورقته قبل ذلك الذي يجلس في آخرها..

بالطبع نحن لا نعلم أمثال هذه العدالة في الاختبارات في مصر..! حيث يمكن في اختبارات الثانوية العامة وهي أهم شهادة تعليمية في مصر، أن يأتي مدرّس أول لطالب (مهم) في لجنته ليُلبّي له طلباته الخاصة..!

ولا يُشترط أن تكون ابنًا لأحد الكبار في البلد، فيكفي أن تكون ابنًا لأب متحمّس..! فبوسعه دائمًا أن يسير بجانب المدرسة التي تمتحن فيها ممسكًا بمكبر للصوت ويملي لك بالكامل نموذج الإجابة..

الفرق بين نوعي الاختبارات المذكوريْن أن الأول هو اختبار عادل للطالب في فهم المواد التعليمية واستذكارها، والثاني هو اختبار لمدى أهميتك في بلدك، أو لمدى قدرتك على استنتاج أن (سيب ربيع) التي ينادي بها أبوك حامل الدبلوم في مكبر الصوت خارج اللجنة هي في الواقع (س تربيع).. وهذا قياس جيّد لمدى ذكائك على كل حال..

تقديم نموذج إجابة للطالب يعني أن اختباره لاغٍ، هذا هو المفترض أن يحدث في أي مؤسسة تعليمية تحترم نفسها.. إذ إنك حينها لم تمنع العدل فقط من أن يتحقق بين الطلاب، بل أيضًا ألغيت الغرض من الاختبار كله..! ولو كان واضع الاختبار غرضه بالنسبة لك أن تنجح بدون أن يختبر من أنت حقًا لفضّل وسيلة أخرى غير إضاعة الوقت والمجهود في إعداد كل هذه الإجراءات الحكوميّة المعقدة..!



يخبرنا القرآن أن الله ﷻ هو من اختار طريقة الاختبار الغيبي للإيمان..! كان الله يقدر أن ينزل آيات ساحرة للأذهان، ليس بوسع أي أحد أن يكذّبها، كما يقول الله ﷻ: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ (الشعراء ٤).. كان الله يقدر أن ينزّل آية من السماء تجعل أعتى الكفار يصلبون أعناقهم ناظرين إليها في رهبة، وخاضعين

لها في ذل، ولا يقدرون على المخالفة.. كان الله يقدر أن يجعل الإيمان به ليس محلًّا للسؤال ولا الاختبار.. ولكن ليس لهذا خلقنا الله..!

اختيار الله ﷻ يقف ضد هذه الطريقة (السهلة) التي يتساوى فيها كل أحد، لا أحد سيكفر بالله ﷻ لو كانت الأمور بهذه البساطة، لو لم يكن الإيمان به يحتاج إلى التسليم للغيب.. ولكن الله ﷻ لم يجعل سنته في الدنيا تسير بهذه الطريقة..

لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (الرعد ٣١).. هل سمعتم أنتم عن كلام مقروء نزل من السماء من قبل فزلزل الأرض وقطّع الجبال وأحيا الموتى..؟! لا، لم يحدث، لم ينزل الله ﷻ أمثال هذه الآيات الساحرة للأذهان من قبل، لأن هذا ينافي التسليم للغيب، لأن الله لا يحتاج إلى هذا، لأن الله لو شاء أصلًا لهدى الناس جميعًا إليه دون أن ينزل ولو آية واحدة..!



بل هو قانون وضعه الله ﷻ في الحياة الدنيا حين خلقها، ينص على: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ (آل عمران ١٧٩)..

قانون يقضي بأن تقوم القيامة، وتفنى الحياة، وتشتعل النيران في المياه، وتسير الجبال أسرع من السحاب، وتنتهي البشرية بأكملها، في اللحظة التي يتحول فيها الإيمان من الغيب إلى الشهادة..! لماذا..؟ لأن الاختبار سينتهي في اللحظة التي يظهر فيها للناس نموذج الإجابة..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ**﴾ (الأنعام ٨).. ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ (البقرة ٢١٠)..

٣- واستخراج..!

في عام ١٩٤٩ كتب الروائي العبقري (جورج أورويل) الرواية التي خلّدته، والتي اسمها: (١٩٨٤).. فيها تخيّل العالم وقد قُسِّم إلى ثلاثة دول كبيرة، مع بعض المناطق الأخرى التي تتنازع عليها هذه الدول (منها الشرق الأوسط بطبيعة الحال..!!).. ينتقد أورويل نظام الحكم الشمولي الاستبدادي، حيث تخيّل (الأخ الأكبر) الذي يحكم أكبر هذه الدول بنظام حكم أوتوقراطي فاشي من الدرجة الأولى، حتى إنه يحطّم العلاقات الأسريّة الناجحة حتى لا يبقى أي نوع ولاء إلا للأخ الأكبر..!

هذا الحاكم الداهية كان يلجأ إلى المراقبة المستمرّة لشعبه، فالكل يتجسس على جيرانه والكل يعلم ذلك، وهناك كاميرات مراقبة في كل مكان، تمكّن الأخ الأكبر وأجهزته من أن يروا الشعب ويروه، هم يعيشون في العالم تحت شعار (انتبه، فالأخ الأكبر يراقبك) ويخرج عليهم في الكثير من الخطابات ليملي أوامره وقوانينه الجديدة..

ربما يكون أقرب مثال في عصرنا لرواية جورج أورويل هو حاكم كوريا الشماليّة الشهير (كيم جونج أون) الذي لا يبلغ من العمر أكثر من ٣٢ عامًا حتى وقت كتابة هذا الكتاب، وبرغم ذلك استطاع أن يجعل شعبه كله يعيش في رعب حقيقي غير مصطنع منه، بالنسبة لهم هو الذي لا يجب ذكر اسمه، مثل (فولدمورت) في روايات (جوان رولينج).. إنه شاب مضحك قصير القامة بدين الوجه تحب أن تراه على شاشة التلفاز وأنت في النصف الآخر من العالم ولكنك أبدًا لا تحب أن تراه وجهًا لوجه في أسوأ كوابيسك طرًا.. هو الذي يمنع عن شعبه أن يشاهدوا الأفلام الأجنبية أو الأخبار العالمية.. هو الذي أعدم أحد كبار مساعديه لأنه شعر أنه لم يُصفّق له بجدية في أحد خطاباته..!

يعتمد (كيم) سياسة الأخ الأكبر: الكل يعلم ما الذي هو قادر على فعله، الكل يشعر أنه محاط به مراقب منه في كل أحواله، والجميع يتجسسون على بعضهم البعض.. لا

يمكن في مناخ كهذا أن يحصد إلا الاحترام (غير الحقيقي) والخوف (الحقيقي) والرهبة من المخالفة.. وفي حالة كل من (كيم) و(الأخ الأكبر) فإنهما لا يهتمّان سوى بهذا، ولا يريدان من شعبيهما أن (يحبهما) مثلًا أو يشعرا بـ (صدق الانتماء والولاء الداخليّيْن) من ناحيتهم.. وأمرٌ جيّد أنهما لا يهتمان بهذا لأنهما لن يحصلا عليه أبدًا..!

لا يمكن للأخ الأكبر أن يكون محبوبًا من شعبه وهو لا يهتم بهذا، الناس تتعامل مع الشخص في حضرته بألف وجه ووجه، بينما يتعاملون في غيابه بوجههم الحقيقي..

ذكرني ذلك بالقصة التي يحكونها ولا أدري مدى صدقها من أن (تشرشل) —رئيس وزراء بريطانيا أيام الحرب العالمية الثانية— كان يستقلّ سيارة أجرة إلى مقر الـ BBC لإجراء مقابلة إذاعيّة —ما الذي يجعل تشرشل يركب سيارة أجرة ويترك موكبه؟! لا أعلم الصراحة..!— فقال للسائق انتظرني هنا ٤٠ دقيقة وسأجازيك، قال له السائق: لا يمكنني ذلك، فأنا أريد أن أذهب لبيتي لأستمع إلى تشرشل في الإذاعة..

بالطبع هذا كان قبل انتشار التلفاز، فلا يعلم الناس ما هو شكل تشرشل أصلًا، ومنهم هذا السائق.. فرح تشرشل بما أظهره ذلك السائق من حب حقيقي في غيابه له، وأحب أن يكافئه فأخرج له عشرة جنيهات أسترلينيّة، من ثمّ قال السائق: فليذهب تشرشل وخطاباته إلى الجحيم، سوف أنتظرك هنا اليوم كله لو أردت مقابل هذه الجنيهات العشرة..!

الولاء والصدق والحب هي أشياء لا تباع ولا تشترى، ولا يمكن الاستدلال عليها إلا لو تركت صاحبها يعبر عما بداخله دون خوف أو هلع.. لا يمكن للإنسان أن يُظهر ما هو عليه فعلًا لو لم يكن لديه (الخيار) لذلك..!

لذلك يقول (أوسكار وايلد) أيقونة الأدب الأيرلندي: "الإنسان يكون في أقل أحواله مشابهةً لنفسه حين يتحدث بالنيابة عن نفسه، ولكن أعطه قناعًا وسوف يقوم بإظهار من هو بالفعل..!"، ويقول كاتب الرعب الأمريكي (روبرت بلوك): "حين تُزَال كل الأقنعة يبدأ

الرعب..!"، ويقول الفيلسوف الألماني (ميستر إيكهارت): "اذهب إلى حديقتك الخاصة، وتعلم هناك أن تعرف من أنت حقًا..!"، ولربما هذا هو السبب في قول سيدنا عمر بن الخطاب ﵁: "خذوا حظكم من العزلة"..



الوقت الذي تقضيه بمفردك عن أعين المراقبين هو الوقت الذي تقرر فيه من أنت، ما هي القيم التي ستحتفظ بها، ما هو الوجه الحقيقي الذي تملكه..! لذلك نجد الحديث الذي رواه ابن ماجه وصححه الألباني، عن ثوبان ﵁ أن النبي ﷺ قد قال: "لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا" قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"..

ضعّف الحديث بعض أهل العلم، لكن يوجد في القرآن ما يؤيد معناه على كل حال، كما يقول الله ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (النساء ١٠٨)..

وعدّها ابن حجر الهيتميّ الكبيرة رقم ٣٥٦: "إظهار زي الصالحين في الملأ، وانتهاك المحارم في الخلوة"..! وكان يقول (سحنون) رحمه الله: "إياك أن تكون عدوا لإبليس في العلانية صديقا له في السر"..!



لو لم يكن هناك غيبٌ لما ظهر أي أحد على حقيقته، ولكنّا جميعًا متخفيين مثل إبليس طاووس الملائكة في العبادة، والذي ظهر ما كان يكتم حقًا حين خلق الله آدم ﵇ وظهر تفضيله له عليهم، مصداق قول الله تعالى: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ**

بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة ٣٢)..!

لو لم يكن هناك غيبٌ لما ظهر ذلك الذي يخاف مقام ربه ويرهب مكانته حقًا من ذلك الذي يدّعي، كما قال ﷻ: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ (المائدة ٩٤)..

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي يرجو رحمة الله ﷻ وثوابه ولو بعد حين من ذلك الذي لا يريد إلا شهوات نفسه العاجلة، كما يقول ﷻ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ (مريم ٦١)..

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي رفض أن ينساق وراء نزوات نفسه المظلمة، واختار أن يزكيها ويهذبها، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر ١٨)..

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي ارتبط قلبه بالحق والخير، فما أن يبتعد عنه قليلًا إلا ويسرع في العودة إليه وينيب، كما يقول ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (ق ٣١-٣٣)..

لو لم يكن هناك غيب لما ظهر ذلك الذي اختار أن ينصر رسالة ربه ودعوته على حياته وأمواله الخاصة دون أن يكون ذلك ادّعاء أو مداراة لمن يرهبه في العلانية، كما يقول الله ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد ٢٥)..



وبرغم أن الله يعرفنا جميعًا ويعلم ما نسر وما نعلن، إلا أن ظهور علمه فينا أمام الناس وأمام أنفسنا هو من إقامة الحجة التي ارتضاها الله ﷻ مظهرًا من مظاهر عدله الإلهيّ..

الغيب إذن يستخرج من الإنسان أحسن ما فيه وأسوأ ما فيه، فيظهر من هو فعلًا، وما معدنه حقًا، وبطريقة يشهد بها الإنسان على نفسه، ويعلم من ذاته أنه لم يُظلَم ولا يلوم أحدًا إلا نفسه..! ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۞ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۞ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة ١٢–١٥)..

٤- مطالب من فاقدي الأهليّة..!

يحكون عن (نيلز بور) العالم الفيزيائي الدنماركي الكبير أنه لما كان طالبًا في جامعة (كوبنهاجن) ورد في امتحان الفيزياء السؤال التالي: كيف تحدد ارتفاع ناطحة سحاب باستخدام البارومتر –جهاز قياس الضغط الجوي– فكانت إجابة (بور): اربط البارومتر بحبل طويل وقم بتدليته من أعلى الناطحة حتى يصل إلى الأرض الأرض ثم قس طول الخيط..

رسب في الاختبار طبعًا بإجابته المستفزّة، فتظلم بأن إجابته صحيحة، بمنطق: اثبت لي إذن أنه لا يمكنك قياس طول الناطحة بهذه الطريقة..! تم تعيين خبير للحكم في المسألة، فقال أن إجابة الطالب صحيحة لكنها لا تدل على معرفته بمادة الفيزياء، وأوصى بضرورة إعادة اختباره شفهيًا، ثم طرح عليه الخبير السؤال نفسه مشافهةً..

فكر (بور) قليلًا ثم قال: هناك عدة طرق أخرى لقياس ارتفاع الناطحة غير التي ذكرتها، مثلًا يمكنك إلقاء البارومتر من أعلى الناطحة وتقيس الوقت الذي يستغرقه حتى يصل إلى الأرض وبالتالي يمكن معرفة ارتفاع الناطحة، وإذا كانت الشمس مشرقة يمكنك قياس طول ظل البارومتر وطول ظل الناطحة فنعرف طول الناطحة من قانون التناسب بين الطولين وبين الظلين، أما إذا أردنا تعقيد الأمور فسنحسب ارتفاع الناطحة بواسطة الفرق بين الضغط الجوي على سطح الأرض وأعلى الناطحة باستخدام البارومتر..!

إن (بور) هنا يوضح لنا مدى سذاجة مدرّسه الذي أصرّ على أن طريقته هي الطريقة الوحيدة..! ويوضح لنا قاعدة (باريتون) حين قال أن أسس الغباء الثلاثة: العناد والغرور والتشبث بالرأي..!

يمكننا أن نفهم ما قاله باريتون بالنظر إلى الكيفية (الوحيدة) التي ارتضاها بعضهم للإيمان بالله ﷻ، بالنسبة إليهم سيكون من السفه أن يؤمنوا لأحد بدون أن يتبع هذه الطريقة العبقرية..! انظر إليها: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء ٩٠-٩٣).. ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف ٥٣).. ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (الفرقان ٧-٨)..!!

يتكرر في القرآن ذكر هذا المطلب من الذين لا يؤمنون بالله: إنزال آية مخصصة لهم، والله ﷻ في الواقع قد أغرقنا بآياته الكونيّة المحكمة وآياته الشرعيّة المفصّلة، كما يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت ٥٠-٥١).. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت ٥٣)..

بل إن الآيات التي طلبوها كانت على نوعيّة معيّنة محببة إلى أنفسهم، مثلًا هم يريدون أن يصيروا أنبياء..! ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (الأنعام ١٢٤).. يريدون أن

ينزل عليهم كتاب مكتوب خصيصًا من أجلهم من السماء أو أن يروا الله جهرة..! ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء ١٥٣)..

الحقيقة التي لم يفطن لها هؤلاء أنهم أقل شأنًا بكثير من كل هذا..! وقدرهم في أنفسهم أعلى بكثير من قدرهم الحقيقي.. كما يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان ٢١)..!



ولكن ماذا لو استجاب الله ﷻ لهم..؟ هل ستَفرُغ جعبتهم من الحجج..؟ هل تتوقع أنهم سيسلّمون بهذه البساطة..؟ ولماذا يكون إنزال كتاب من السماء أو الإتيان بملائكة أو إسقاط أمطار الذهب عليهم دليلًا أقوى من دليل الخلق والإيجاد نفسه..؟ أسيعجزون وقتها عن أن يأتوا بـ (فرضيّات) علميّة وفلسفيّة لتفسير تلك الآيات الجديدة..؟!

يخبرنا القرآن أن ما نفكر فيه صحيح تمامًا، وأن ما افترضنا بشأنهم هو عين ما سيفعلون، كما يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام ٧).. تفسير السحر جاهز دائمًا وفي كل الأحيان.. مثل تفسير الجنون والهذيان والهلاوس أيضًا دائمًا على أتم الاستعداد لتقديم نفسه في حالة جاءت الآية المطلوبة: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر ١٤-١٥)..

ربما يكون أصدق هؤلاء الكفار مع أنفسهم هم آل فرعون الذين قالوها صراحةً وبشكل قاطع حاسم لا يتلوّن ولا يتردد: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف ١٣٢)..

ما قاله آل فرعون قديمًا هو ما يقوله كفار زماننا اليوم، كل شيء له تفسير علمي، لا يوجد ما يخرق قوانين الفيزياء، كل المعجزات والآيات الكونية التي نشهدها لها تفسير ماديٍّ ما، إن لم نعرفه الآن فسوف نعرفه غدًا، لا يوجد شيء اسمه إيمان، لأن كل دلائل هذا الذي يسمونه إيمان لا يمكن أن تخرق القواعد العلميّة ولا يمكن أن تخرج عن حيز المعقول لنا، ولا يمكن أن نكون بها أو لها مؤمنين..

إذن آل فرعون القدماء، وآل الـ Scientism الحُدثَاء قد اشتركوا في أنهم حتى لا يطلبون أن يكون الإيمان بالشهادة وليس بالغيب، ولا حتى بأن يروا الله جهرة كما طلب أهل الكتاب، بل قرّروا وكرّروا بأنه لا يوجد ما يمكن أن يقنعهم بالإيمان..!

سؤالٌ لهم: إن كان ثمّة إلهٌ هناك، كيف له بأن يخبركم بذلك إذن..؟!

آلهة خرافيّة

(عن وحدانيّة الله عز وجل)

في قبائل (دوجون) الأفريقيّة تحتل النساء الهستيريات منصب الكاهنات..! وتزداد الكاهنة في المكانة الدينية كلما زادت نوباتها العصبيّة..! فهي بالنسبة لهم على اتصال مباشر مع الآلهة، الآلهة التي هي الأجداد الأسطوريون طبعًا، كل واحد يأتي إلى الأرض صبيّا يبلل ثيابه ثم يكبر ليتعلم كيف لا يبلل ثيابه، ثم يشيخ فيعود ويبلل ثيابه، ثم يموت ليتم اعتباره رمزًا للحكمة وأسطورة للعطاء ويعبدونه.. هذا مفهوم بالطبع..!

برغم ذلك فإن قبائل (دوجون) تعتقد بوجود إله خالق أعظم وحيد، ويسمونه (أمّا) وأؤكد لك أن هذه التسمية ليس لها علاقة بكلمة (أمّا) المصرية الريفية التي تعني في اللغة العربية (أمي)..! وفي اعتقادهم فإن (أمّا) هو إله متعال على كل الآلهة الأخرى، ويقيمون له في كل بيت محرابًا طينيًّا مخروطيًّا، ويتم ذكر اسمه قبل ذكر أسماء الأجداد الأسطوريين إياهم..

في غرب الكاميرون فالقصة مختلفة، هم يعتقدون أن الإله الأعظم خالق الكون اسمه (نيامبي) يعيش أعلى القمر، ولا أحد يستطيع أن يصل إلى مكانه، ولكن لأنه إله عظيم قادر على كل شيء مكتف بنفسه لا يحتاج إلى أحد، فهم لا يعبدونه..! بل يعبدون الآلهة الأخرى غير العظيمة التي تحتاجهم..!

وأما قبائل أعالي النيل فتعتقد بوجود إله سماوي كبير، هذا الإله ليست له صورة مادية ولا شكل، خلق الخير والشر على سواء، ودعواتهم موجهة إلى الآلهة الصغرى، ولكن في حالة كان الموضوع (كبيرًا) على هذه الآلهة الصغرى يلجؤون له مباشرة..!

وعند قبائل (البامبارا) يُعرف الإله الأعظم باسم (فارو).. بينما يُعرَف في (أشانتي) باسم (نانا).. وفي (إيفا) باسم (ماوو).. وفي (اليوروبا) باسم (أولورن).. وعند (الإيبو) باسم (شوكو).. وأما عند (كينيا) فالإله الأعظم عندهم اسمه (مولونجو).. ويلقبه (السوازي) باسم (الرئيس الأكبر)..

وهكذا... جميع شعوب قلب أفريقيا تقريبًا –تلك الشعوب التي هي أشد شعوب العالم بدائيّة وتخلّفًا على الإطلاق– تعتقد بوجود إله متعال خالق للكون، وهناك وسطاء بين البشر وبينه هي ما يسمونه بالآلهة الصغرى.. يختلفون بعد ذلك في مدى قدرة هذا الإله الأعظم على تصريف أمور الكون، إلا أنهم يتفقون على أنه قد بدأ الخلق منفردًا..!



هذا الاطّراد التاريخي على وحدانيّة (الرب) لا يكاد يسلم منه أحد، فحتى النصرانيّة – أو التي يقال عنها أنها مسيحيّة بينما أفضّل أن نتمسّك بتسمية القرآن لهم– دائمة الادّعاء أنها لا تقول بتعدد الأرباب، بل الرب واحد، صحيح أن له ثلاث شخصيّات مختلفة لكنهم يرفضون أن يلاحظوا هذا التناقض على أية حال..

هذا الاعتقاد يطال حتى الوثنيين، الذين يعبدون الأصنام بشكل صريح وبطريقة تثير العجب، إذ إنك تعتقد أن القرن الحادي والعشرين يُفتَرض له أن يكون قد ارتقى بالإنسان إلى الحد الذي يمنعه من أن يعفّر وجهه أمام تمثال جبسي غير محكم الصنع لرجل مفرط السمنة وعلى الأرجح كان يعاني من مرض البول السكري..

فالوثنيّون يعتقدون أن هذه الآلهة إنما هي وسيلة تقرّبهم إلى الخالق الحقيقي، وسواء كانوا من نوعيّة كفار مكة الذين صنعوا تماثيل على هيئة أناس صالحين كانوا يلتّون لهم العجين، أو كانوا من نوعيّة كفار أفريقيا البدائيّة الذين ينحتون الأشجار على شكل طوطمهم الخاص على هيئة ثعبان أو نسر يربط اجتماعيًا بين قبائلهم ويتوسط لهم عند الإله..

الهندوس أيضًا الذين تمتلئ عقائدهم بقصص الآلهة (النذلة) التي تتقاتل بين بعضها البعض على الحب والشهوة..! يعلمون أن الخالق الأوحد منزّه عن كل ذلك، فقط هم لديهم مشكلة صغيرة: هذا الخالق هو الخلق كله، هو العالم الذي نحياه، إنه اعتقاد وحدة الوجود التقليدي الذي كان آخر صيحات الفكر و(الموضة) في القرون الوسطى بينما الآن

هو مجرّد تراث قديم قد عفا عليه الزمن..

هذا الاطّراد التاريخي بوحدة الخالق لربما هو من بقايا دين الفطرة ودين الأنبياء الذين أرسلوا في كافة بقاع الأرض يبلّغون رسالة الإله الذي استوى على العرش، تلك الرسالة التي تقول لكل كائن بشري على وجه الأرض: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ (طه ١٤)..

لذلك يقول الله ﷻ متحدثًا عن هذه الرسالة الموحّدة التي صنعت هذا الاطّراد التاريخي البشري: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ (الزخرف ٤٥)..!

التساؤل الوجودي القائم يسأل: هل الإله واحد أم متعدد..؟ هل له من ولد كما يقول البعض..؟ هل له وسطاء أو شركاء..؟! هذا السؤال أجاب عنه القرآن كأتم وأكمل ما يكون..!

١- نمط الخليقة الموحّد..!

المكان الذي ذهبت إليه لإصلاح (فرامل) السيارة كان منطقة واسعة مليئة بأناس أبناء أشياء ما..! سعيد فرامل ومحسن خراطة وعادل شكمان..! هذه ليست شتائم بالمناسبة بل هو مرتاح تمامًا بتعريف نفسه لك بأنه سعيد فرامل.. كانت أقصى معرفتي بالفرامل وقتها هو (التيل)، ولكني اكتشفت أن هناك مشكلة أيضًا في (الطنبورة)، لا يمكنك أن تثق في شيء اسمه طنبورة على كل حال، بالتأكيد سيكون شيئًا وغدًا يعطل طوال الوقت..!

هناك شيء آخر لا بد أن يستبدله سعيد ولكن لا يوجد مثيل له لاختلاف نوع السيارة عن أنواع السيارات المفضلة لدى معظم الشعب المصري فكان عليه أن يأخذه إلى المخرطة

حتى يجري بعض التعديلات عليه كي ينسجم روحيًا مع طنبورتي العجوز.. كل مصنع من مصانع السيارات المختلفة قد قرر أن يضع اللمسة الخاصة به على كل قطعة من السيارة ليجعلها متفردة عن باقي أنواع السيارات، صواميل العجلات وال Safety Valve وغيرها من الأشياء ذوات الأسماء الشريرة التي يمسكها عامل الميكانيكا في احترافية ليصارحك بحقيقة أنها (مش بتاعتها)..!

مشكلة التوافق المصنعي هذه تجدها بشكل أكبر في هواتفنا وحواسيبنا الذكيّة، وبعد المشكلة رقم أربعين تبدأ في الإدراك بأنها ليست ذكية إلى هذه الدرجة..! كم مرة وجدت نفسك في مشكلة لأنك لا تجد Socket شاحن متوافق مع هاتفك..؟؟ أتحدث طبعًا عن عصر (الشاحن التخين والشاحن الرفيّع) قبل شواحن الUSB المتازة.. هذا غير كارت الشاشة الخاص بك الذي لم يعد يعمل بسببUpdate سريع للويندوز جعله لا يتعرف عليه، تدخل إلى موقع الشركة لتحميل التعريف وتتوه قبلها وسط مئات التعريفات لمئات كروت الشاشة يملكها أناس مثلك في جميع أنحاء العالم في حيرة من أمرهم..

يمكنك أن تفطن أننا لا نجد هذه المشكلة في مخلوقات الله ﷻ من حولنا، وبالأخص في أجسامنا نحن..! إننا جميعًا متشابهون، بل ومتماثلون في جوانب كثيرة.. لولا هذا التشابه لكانت الحياة أصعب كثيرًا مما تعودتَ عليها.. يمكنني أن أؤكد لك أن طبيب العيون لن يستطيع أن يفصّل أي نظارة لو كان شعاع الضوء يسلك سلوكًا مختلفًا داخل كرة عين كل إنسان.. وأن الجرّاح لن يجرؤ على شق الجلد لاستئصال أية مرارة لو لم يكن يعلم أننا جميعا نملكها في نفس المكان بالضبط منذ أن تعرّفنا على علم التشريح.. يمكنك أن تتيقن من أن طبيب الأطفال لن يجرؤ على وصف الدواء لطفلك الصغير لو لم يكن واثقًا من الكيفية التي سوف تتفاعل بها هذه الكيماويّات مع جسده النحيل.. يمكنك أن تتأكد أنه لا يوجد أي طبيب نفسي قد يفهم مشاعرك المعقدة المتداخلة تجاه (سُها) إلا لكونك أنت نفسك عدة صفحات محفوظة في كتب علم النفس..!

لا يمكن لكل هؤلاء الأطباء أن يقوموا بعملهم لو كان كل جسد إنساني يختلف عن الآخر، وفيسيولوجيا أعضائه تسلك سلوكًا متفردًا عن غيرها من الذوات الإنسانية، لو كانت النفسيّة الإنسانية مختلفة لما استطاع البشر أن يفهموا بعضهم البعض ولا أن يألفوا بعضهم البعض إلى هذا الحد.. إننا متشابهون جدًا لأننا في الحقيقة مصدرنا نفس واحدة.. كما يقول ﷻ: ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ (الزمر ٦)..

التشابه يكون أكبر من ذلك حين تفكر في المزيد من المخلوقات..! فالDNA الخاص بك يتشابه بنسبة ٥٠% مع DNA الموز، وبنسبة ٦٧% مع DNA الذرة..! والسلوك الدوراني العجيب لإلكترونات ذرة الكربون في معطفك الخريفي هو ذات السلوك العجيب لذرات مشابهة تكوّن جميع خلايا جسدك القابع أسفل هذا المعطف، وهو بالمناسبة سلوك دوراني مشابه جدًا لدورانات الأفلاك البعيدة التي تلمع في سماء ليل أبريل..!

الاختلاف الكبير الذي يفصلنا عن باقي المخلوقات من حولنا إنما هو مترادف مع تشابه أيضًا كبير يربطنا –نحن البشر الأذكياء حاملي التكاليف الإلهية المكرّمين من فوق سبع سماوات– بباقي خلق الله ﷻ من حولنا ليس فقط من ناحية نمط الخلق، ولكن أيضًا في نمط والرزق والقيّومية..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾ (الأنعام ٣٨)..

الأمر بسيط، وحل اللغز سهل، إنما الخالق واحد إذن..! وصنائعه بديعة ومتفردة بشكل مذهل، مع كونها أيضًا متشابهة بشكل عجيب.. وجود هذه الصنائع يؤكد لنا وجوده، وتفرّدها يؤكد إبداعه، وتشابهها يؤكد وحدانيته..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ (غافر ٦٢)..

هذا النمط الموحّد في الخلق إنما يدل على وحدة الذات الإلهية التي قامت بخلق كل هذا، لا نجد في هذه المخلوقات نمطًا شاذًا مختلفًا يدلنا على إله آخر..! كما يقول الله ﷻ:

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد ١٦)..

لقد عرفنا الله ﷻ من أفعاله وخلقه وآثاره، فهذا هو خلقه المتشابه، فأين المخلوقات المختلفة التي تحمل نمطًا مختلفًا لإله آخر نعرفه بها..؟! كما يقول ﷻ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (لقمان ١١)..



بل هذه الآلهة ليست فقط لم تخلق شيئًا، بل هي داخلة في خلق الله، إذ إنه البديع الذي لم يُبدِع أحدٌ غيره شيئًا والخالق الذي لا توجد مخلوقات من صنع سواه، أي أن الله هو الذي خلقها أصلًا.. لذلك يخبرنا القرآن أن: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ (فصلت ٣٧).. ويتساءل القرآن: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف ١٩١)..؟!

إذن في النهاية يبقى أي (معبود) سوى الله، أو مع الله، أو كوسيلة إلى الله، معبودًا باطلًا لأنه لم يخلق شيئًا يستحق أن يُعبد عليه، ولم يفعل شيئًا نعرف وجوده منه..! حينها اسمح لي أن أسألك عن كل إله من هذه الآلهة الخرافيّة، وأقول لك: كيف لك أن تعرف أنها موجودة..؟!

من المهم إذن أن تسأل نفسك السؤال القرآني الرائع: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الروم ٤٠)..؟!

٢- الكمال لا يتعدد..!

في المطاعم الكبيرة لا ينبغي لك أبدًا أن تنسى ثلاث نصائح... أولًا لا تصدق الصور

الموجودة على الـ Menu فما تراه أمامك هي دجاجة كبيرة شهية وأوسم منك شخصيًا، بينما ما سيصل إليك هي نفس الدجاجة ولكن بعد أن تجور عليها الدنيا والأزمان وأصابع عم أشرف.. ثانيًا لا تثق في المادة اللزجة بجانب حوض الحمام، من فضلك لا تفترض أنها صابون لمجرد أنها لزجة، عليك أن تتذكر أن كمية لا بأس بها من المواد الكيماوية هي لزجة أيضًا، ونصفها أرخص من الصابون في نظر إدارة المطعم بالمناسبة.. ثالثًا لا تفتح زجاجة المياه ولا علبة المناديل على الطاولة، قد تظن أنك طالما ستدفع مائتي جنيه في الفاتورة، سيسامحك صاحب المطعم المليونير على هذا، لكنك مخطئ للغاية يا رفيق..

مشاعر كثير من البشر تجاه بعضهم البعض لا يمكن تلخيصها ببساطة في البخل، ولكن في عشق البخل..! عليك أن تكسب من كل شيء، عليك أن تأخذ المزيد، لا تترك للناس شيئًا.. هذه هي قواعد الحياة البسيطة التي نتوارثها منذ القدم عن أجدادنا الأولين.. وفي القرون القادمة ستتغير الكثير من العادات والتقاليد والقيم لكن ستبقى أمثال هذه القواعد (النذلة) باقية محفوظة لا تُمَس..

غير أننا لا نبخل على الناس بكل شيء، هناك الكثير من الأشياء التي نراها مجانية فنبذلها بلا عناء.. لا أحد يبخل بإعجابات الفيسبوك، أو بكلمات المواساة، أو بنظرات الشفقة.. ربما يصلح هذا في الحقيقة كمقياس لمدى قيمة الأمور لدينا، فالأشياء التي لا نرى لها كبير أهمية نعطيها بسخاء..

مثلًا في قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ (الماعون ٦-٧).. يتبين لك أن هناك من سيهب أجر الصلاة نفسها لعيون جاره، فيجمّل صلاته لأجله حين يراه في المسجد يوم الجمعة.. وبرغم ذلك فحين يطلب منه نفس الجار (ماعونًا) كإناء الطهي ليستعمله ثم يعيده، فإنه سيبخل عليه به..! هو قد أعطى حق الله ﷻ عليه هدية مجانية لنفس الشخص الذي يبخل عليه بـ (حلة التيفال)..! فما هو يا ترى قدر الله عنده..؟!

لهذا السبب يستغني الله تمامًا عن عبادة المرائي، كما يقول الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾ (النساء ١٤٢).. يظنون أنهم قد خدعوا الله بذلك، بل الحقيقة الله هو خادعهم إذ يجعل هذه الأعمال كالهباء المنثور، كأنها لم تكن..!

لهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ عن رب العزة ﷻ أنه قال: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"..! لأن كمال الإله يقتضي كمال استغنائه، لا يرغب الإله في عبادة أحد من خلقه يقدم له جزءًا من عبادته والجزء الآخر لشيء أو لشخص أو لإله مزعوم آخر..!



فالإله كذلك –ومن باب أولى– مستغنٍ وبالكلية عن أن يتخذ معه شريكًا في هذا الملك، أو أن (يتبنّى) أو (يلد) ولدًا، أو أن ينبثق منه أقنوم آخر، أو أن ينفصل إلى اثنين أو ثلاثة.. ومن باب أولى من كل ذلك يستغنى تمامًا عن أن يعتبر البشر –الذين هم خلق من خلقه– أبناءه وذريته..!

لذلك يجيبنا القرآن عن سؤال الوحدانيّة بدلالة هذا الكمال الاستغنائي لله ﷻ، فيقول الله ﷻ: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (الأنعام ١٠٠–١٠١)..

هذا المنطق الذي يقضي بأنه لو كان الإله يحتاج لسبب ما إلى هذا الشريك لكان هذا معناه أنه إلهٌ غير مطلق الغنى، وهو ما ينافي الفكرة العقلية السليمة من أن خالق كل شيء، وموجد كل شيء من العدم لا بد وأن يكون مطلق القدرة والغنى والملك والإرادة، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ (يونس ٦٨)..



لا يتعدد كمال الله ﷻ أيضًا من ناحية الإرادة، فالإرادة المطلقة لا بد أن تكون واحدة، إذ لو أراد أحد صاحبي هذه الإرادة أن يُنفِذَ إرادته، لكان هذا معناه أن هناك شيئًا سينفذ في الكون دون أن تكون بإرادة صاحبه الآخر.. يعني ليست مطلقة تمامًا..!

لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (البقرة ١١٦-١١٧).. ﴿**مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (مريم ٣٥)..

فلا يمكن لصاحب الإرادة المطلقة أن يتخذ ولدًا، لا يمكن أن يقع على شيء واحد كلمتا (كن) مختلفتان..! على أي صورة يكون إذن..؟!

على أن هناك من يمكن أن يقول أنه قد يكون هناك إلهان أحدهما أكبر من الآخر، أعلى إرادة من الآخر، أمتن من الآخر، كموقع الأب والابن مثلًا.. هنا لا يشكل تناقض الإرادتين مشكلة، إذ إن إرادة الكبير منهما هي التي ستسير..

في النهاية معنى ذلك الكلام أن الإله الأصغر سيتصرف بالحيّز الذي سيسمح به الإله الأكبر..! وأنه لن يريد إلا ما يريده له الأكبر..! وأنه لن يقدر على مخالفة أمره ولا طوعه، لأن إرادته هي النافذة..! في النهاية يبقى لنا أن نقول: ولماذا تسميه إلهًا إذن..؟! هذا كائن مسكين تمامًا على ما يبدو لي.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ (المائدة ١٧)..!

فيبقى في النهاية من الخطل أن يتعلّق الإنسان ويتوجه إلى إله ناقص كهذا لا يملك أن

يمنع إرادة الإله الأكبر في ذاته إن أراد أن يهلكه، فهل تراه سيمنع عنك أنت ذلك..؟!

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يس ٢٣-٢٤)..



وهناك كمالٌ إلهي آخر لا يتعدد، كمال العلو والقهر، لا يمكن أن يكون هناك أكثر من إله له كمال العلوّ والقهر..! معنى أن الإله قد علا على الكل، أنه لا أحد يساويه فضلًا عن أن يعلوه..

هذا الكمال متحقق بالفعل ولكن في الله ﷻ وحده، ولو تحقق في غيره معه لكان هذا تناقضًا منطقيًا ومتاهة لا تنتهي، من الأعلى شأنًا منهما، لو كان كلًا منهما أعلى شأنًا من الجميع..؟!

لذلك يقول الله ﷻ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون ٩١)..!!

والطريقة الوحيدة التي يمكننا فيها أن نتصوّر ذلك هي أن نتخيل أن هناك صراعًا دائمًا غير محسوم بين هذه الآلهة المتعددة لمحاولة فرض السيطرة وإثبات الهيمنة والعلوّ، من الممكن أن يكون كل واحد فيهم يظن أنه الأعلى شأنًا ويحاول إثبات ذلك للبقية ويتصارعون على الملك.. ولكن لك أن تتخيل لو قررت هذه الآلهة المتعددة أن تتصارع فيما بينها، كيف سيكون حال العالم والوجود..؟ هل سيكون مكانًا سالمًا آمنًا..؟ هل لك إلى أن تنظر في ملكوت السماوات والأرض وتخبرني إن كانت هناك حربًا دائرة هناك أم لا..؟! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء ٢٢).. ولأنهما لم يفسدا، فلا يوجد إلهٌ في الحقيقة سوى الله ﷻ..

بل هذا ملكٌ مستتبّ، وكونٌ قد استوى على عرش ملكه إلهٌ واحد، قد علا على الكل، حتى لو افترضنا فرضًا مستحيلًا بأن هناك آلهة أخرى لكانت هذه الآلهة المزعومة تدور في عبوديّة الإله الأعظم وتعبده وتتقرب إليه إذ إنه سيكون سيدها إذن، كما يقول ﷻ: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۞ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء ٤٢–٤٣)..!!

كما كان يقول الإمام أحمد بن تيمية:

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة... ولا عن النفس لي دفع المضراتِ

ولست أملك شيئا دونه أبدًا... ولا شريك أنا في بعض ذراتِ

ولا ظهير له كي يستعين به...كما يكون لأرباب الولايـاتِ

والفقر لي وصف ذاتٍ لازم أبدًا... كما الغنى أبدًا وصف له ذاتِ

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم... وكلهم عنده عبد له آتِ

فمن بغى مطلبًا من دون خالقه... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

٣- متعة الاتجاه الواحد..!

تثير غيظي بشكل خاص الإعلانات التي تعتمد على المشاهير.. فتجد مثلًا على قارعة الطريق لافتة عملاقة للإعلان عن أحد مزيلات العرق، يظهر فيها ممثل مشهور وهو سعيد جدًا لأنه تخلص من رائحة عرقه.. لا أفهم حينها ما المطلوب مني..! هل علي أن أسارع لشراء هذا المنتج لأن هذا الفلان سعيد به إلى هذه الدرجة..؟! افترض أن مستقبلاته الشمّية الخاصة به مصابة بالعته..! ماذا أفعل حينها..؟!

ولكني أقدّر من حجم انتشار هذا النوع من الدعاية أنه يؤتي حقًا ثماره.. هناك من الناس من لديه الاستعداد بالفعل للسماح لشخص غريب تمامًا عنه بأن يختار له العطر الذي يجب عليه أن يفضله..! فقط لأن هذا الشخص محبوب عنده لسبب لا أعلمه..

مباريات كأس العالم التي تصيب العالم كله بالحمّى كل أربع سنوات تصيبني بدهشة أخرى، فهناك نسبة لا بأس بها أبدًا من البشر قد قررت أن تعلّق أحزانها وأفراحها في فترة (المونديال) على مقدار براعة لاعبي فريقها المفضل.. تخيل مدى السخرية في أن يكتئب (ماجومبا) من (غينيا الجديدة)، أو يبكي (سباعي) من (باب اللوق) لأن إيطاليا خرجت من البطولة..!

هناك طائفة أخرى تفضل أن تعطي حق الولوج الاختياري لمشاعرها الداخلية لإنسان معيّن.. ربما تكون حبيبته من الجامعة مثلًا، تكفي رؤياها بالنسبة له لكي يشعر بعدة عصافير ملوّنة تحلّق حول رأسه من فرط السعادة، وتكفي مشاجرة بسيطة كي يرغب في الانتحار بسم فئران منتهي الصلاحية..!



مشاعرك الداخلية ليست مجرد ذكريات، أو أفكار، أو حوارات بينك وبين نفسك.. مشاعرك ليست مجرد حرارة غضب في صدرك، أو برودة حزن في قلبك، أو لذة انتشاء على شفتيك..

مشاعرك أعمق من كل هذا.. هي أمواج متلاطمة بداخلك، تارةً هي عميقة فلسفية غامضة، وتارة هي سطحية لا تريد من الحياة إلا متعتها الظاهرة.. تارةً تفكر في الغد في قلق أو في تفاؤل، وتارةً تفكر في ما مضى بالرضا وبالحسرات.. مشاعرك هي ما يحدد ما تكون عليه في هذه اللحظة، ما يحدد لك كيف ترى الدنيا من حولك، كيف ترى نفسك، كيف ترى أصحابك.. مشاعرك هي الغرفة المركزية التي تتحكم في أفعالك وتصرفاتك، هي

الشفرة الوراثية التي تُنسخ منها كلماتك، هي القوة الخفية التي سترسم عبوسك أو ابتساماتك، هي دفة روحك التي تحدد وجهتك..

ببساطة، مشاعرك الداخلية هي أنت..!

تخيّل مدى المتعة والراحة النفسية حين تسير هذه المشاعر في اتجاه موحّد..؟! حين لا يقف شيء وراء دفّتها إلا سبب واحد يتعلق بالمعبود الواحد الذي اخترت رضاه هو الوجهة الوحيدة التي تسير نحوها وتقصدها..! حين لا يقف خلف الحزن والفرح، أو الحب والكره، أو التردد والثقة، أو التفاؤل والقلق، أو الحبور والنفور، أو الملل والحماسة.. لا يقف خلف كل هذه الأحاسيس إلا سبب يتعلق بالله ﷻ..

إنها راحة أكيدة ومانع واضح من التشتت والتمزّق.. ناهيك عمّا هو أشد وأعمق من مجرّد مشاعر..! عن الوجهة التي تسير عليها في حياتك، والأفعال والتصرّفات التي تحكمك، والطريقة التي ترتضيها لمعيشة حياتك..



لذلك لما أجابنا القرآن عن سؤال الوحدانيّة ذكّرنا بهذه المتعة والراحة النفسيّة الكبيرة التي تجدها مع هذه الإجابة.. حين تصل إلى أن الإله واحد..!

فيخبرنا القرآن قول يوسف عليه السلام: ﴿**أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ (يوسف ٣٩).. وكما يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿**أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ**﴾ (الصافات ٨٦)..

كما يذكرنا الله ﷻ فيقول: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (الزمر ٢٩).. يذكرك بأن عليك أن تحمده لأنه واحد..! عليك أن تثني عليه لأنه إله فرد صمد..! حين تتخيل مدى الحيرة والاضطراب لو كنت مطالبًا بأن تعبد شركاء متشاكسين..!

وفي المقابل، فإن الإجابة القرآنية التي أخبرتك بوحدانيّة الله ﷻ ليست فقط كفيلة براحتك النفسية من أنك غير مطالب بإرضاء أحد إلا الله، بل أيضًا الحصول على هذه الإجابة كفيل بأن يشعرك بالطمأنينة، من أنه لا يتصرف أحد في هذا الكون إلا الله ﷻ، فلا تخف ولا تفزع من أي شيء آخر..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾ (الزمر ٣٦)..!



كما ترى فإن الإجابة القرآنية عن سؤال وحدانية الله ﷻ لم تكتفِ بأن ذكرتك باطّراد البشر على وحدانية الخالق فاطر السماوات والأرض، ولا بالإشارة إلى نمط الخلق والقيّومية الموحد في أقطار العالمين، ولا بالمناقشة العقلية المفصلة للأهمية الفلسفية بالقناعة بإله واحد من حيث امتناع تعدد القهر والعلو والإرادة والملك الإلهي..

ولكن الإجابة القرآنية ذكرتك أيضًا في النهاية، بأن وحدانية الله ﷻ هي السبيل الوحيد الذي يحميك أنت من التمزق بين طاعة وخوف الجهات المختلفة..

فأنت ستبقى واحدًا فقط، إن كان لك إله واحد..!

التشخيص: مجرد غرور

(عن سؤال: لماذا خلقنا لعبادته وهو لا يحتاجها)

يقول الفيلسوف الفرنسي (فولتير): "السرّ في أنك مثير للملل هو أنك تقول كل شيء"..! لربما أنت لا ترى هذا الملل الآن، ولكنك حين تجد أن هناك من أسئلتك ما هو غير مبرّر، وليس صعبًا أصلًا أو عسيرًا على الفهم، لربما حينها تجد أنه قد كان من الممل فعلًا أن تسأل عن كل شيء..

إنه كما يقول (ماسلو) عالم النفس الأمريكي: "إذا لم يكن لديك سوى مطرقة، فإنك ستميل إلى رؤية كل مشكلة على أنها مسمار".. لو لم يكن لديك سوى عقليّة التشكيك والاستشكال، فإنك ستجد الأسئلة السهلة أعوص مما هي عليه بالفعل..!

سألني أحدهم مرة: "لماذا خلقنا الله؟؟".. قلت له: "لعبادته".. قال بذكاء وانتصار: "وهل يحتاج الله إلى عبادتنا؟!".. قلت له: "لو كنت قرأت القرآن لوجدت أن هذا السؤال قد تمّ طرحه والإجابة عنه في الصفحة السادسة من المصحف.. هذا سؤال تقليدي جدًا!!"..

وبعد أن وضحت له مقصدي اندهش تمامًا، على ما يبدو لم يكن يتخيّل أن المسألة ستنتهي بهذه السرعة، وأن الشبهة القويّة التي كانت تمثل جدارًا ضخمًا اتضح أنها ليست أكثر من ديكور سينمائي مصنوع من (الفيللين)..!

ذكّرتني دهشته بقصة الأعرابي الذي ادّعى النبوة في زمان (المهدي) فأُخِذَ وسيق إلى المهدي، فقال له: هل أنت نبي..؟ قال: نعم.. قال: إلى من بُعثتَ..؟ قال: أَوَتركتموني أُبعَث إلى أحد..؟! بُعِثتُ في الصباح واعتقلتموني في المساء..!

وبالعودة إلى الصفحة السادسة من المصحف، نجد أن الملائكة قد سألت الله ﷻ حين أخبرها أنه جاعلٌ في الأرض خليفة.. فقالت: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ (البقرة ٣٠).. لم يكن جواب الله ﷻ عليهم أكثر من: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة ٣٠).. وهذا جواب متعالٍ جدًا لا يصدر إلا من إله.. ولكن ليس معنى ذلك أن الله لم يجبنا على هذا السؤال في آيات أخرى من كتابه..!

كان سؤال الملائكة لله ﷻ من أكثر ما استرعى انتباه (جيفري لانج) الملحد السابق الذي أسلم وكتب كتابًا سمّاه: (حتى الملائكة تسأل)..! ووضّح جيفري في كتابه أن أكثر ما دعاه إلى اعتناق الإسلام أنه قد وجد في القرآن الإجابات على كل أسئلته.. وهي العبارة التي تصلح دعاية ممتازة لموضوع هذا الكتاب الذي تقرؤه الآن..!

دعونا نرى إذن كيف أجاب القرآن عن هذا السؤال تحديدًا، وما هو السبب في تسمية هذا الفصل بهذا الاسم..!

١- عن البلاء..!

هناك قصة رعب قصيرة جدًا من تلك القصص الشهيرة على الانترنت بحيث لا تعلم أبدًا من الذي كتبها، وعلى الأرجح لم يكتبها أحد المشاهير.. تقول القصة: "عدت إلى منزلي فوجدت زوجتي السابقة تحتضن طفلي، لم أعلم ما هو الأكثر رعبًا بالنسبة إليّ.. أن أجد زوجتي الميتة تحتضن طفلي الذي وُلِدَ ميتًا، أم حقيقة أن هناك من اقتحم بيتي ووضع الاثنين هناك..؟!"

قصص الأشباح والعائدين من الموت هي أشهر قصص الرعب وأقواهم على الإطلاق.. الموت مخيف للنفس البشريّة، وسل عن هذا أي شخص اضطرّ للدخول إلى المقابر ليلًا، أو يعمل في مشرحة (زينهم)، أو يدرس الطب ويتعامل مع كل هذه العظام ورائحة الفورمالين، وشكل الجمجمة نصف الضاحك نصف اللامبالي وهي تنظر لك في برود من انقطعت صلته بهذه الدنيا.. هذا كان إنسانًا مثلك والله أعلم أين هو الآن..!

أكثر الأسباب قبولًا وراء خوفنا من الموتى أن هذا عالم شديد الغموض وشديد الرهبة بالنسبة إلينا، ومع ذلك فهو مصير محتوم للجميع، ونجلس في خوف ننتظره وننسج حوله

الأساطير والخيال..

بينما القرآن يخبرنا أن الموت إنما هو محطة انتقال من عالم إلى آخر، وأن سبب وجوده أن الله ﷻ قد خلقه ساترًا يفصل هؤلاء الذين تم اختبارهم بالفعل من هؤلاء الذين يخضعون لنفس الاختبار الآن..

فنجد مثلًا في القرآن الكريم قول الله ﷻ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ (الملك ٢).. يقول (القرطبي) رحمه الله أن الله ﷻ قدم ذكر الموت على الحياة لأنه إلى القهر أقرب..! ويَروي عن قتادة أثرًا يقول: "إن الله تعالى أذل عباده بالموت"..

في النهاية نجد أن سبب خلق هذه الدنيا بركنيْها: الموت والحياة، هو اختبار المكلّفين منهم (الإنس والجن) بمن هو أحسن عملًا..

وكعادة أي مُمتَحِن يقوم بتمييز الطالب المجدّ المتميّز عن الطالب المتوسط أو الضعيف بوضع (مُغريات) له بأن يجيب الإجابة الخاطئة، بينما الذي يعلم ويفهم ما يتكلم عنه فعلًا لا يقع في هذا الفخ أو ذاك..

ولله المثل الأعلى سبحانه، لا نشبهه بأي من مخلوقاته قطعًا، وإنما ذلك تقريبٌ لقوله ﷻ: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ (الكهف ٧).. عملية إغراء لضعاف المستوى الذين يسهل وقوعهم في فخ حب الدنيا، بينما وقت النتيجة — أي بعد الموت وفناء العالم — يتبين أن من صمد أمام هذا الإغراء كان محقًا، إذ إنه سرابٌ في النهاية..! كما يقول الله ﷻ في الآية التي تليها: ﴿**وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**﴾ (الكهف ٨)..

عن السبب الذي من أجله خلقنا الله ﷻ —نحن وكل الدنيا— يأتي جواب القرآن

بكلمة واحدة: البلاء.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ (هود ٧)..

هذا البلاء إنما كان نتاج إرادة الله ﷻ، وهي إرادة إلهية كاملة لا دخل لنا بها إطلاقًا، وليس لنا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله أراد الله ﷻ أن يخلق خلقًا من خلقه ليبتليهم ويرى من منهم سيكفر ومن منهم سيشكر.. ليس لنا ذلك لأنه في اللحظة التي سيسأل فيها أحدنا هذا سيأتيه جواب القرآن الذي كان ردًا على النبي محمد ﷺ في أحد المواقف: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ (آل عمران ١٢٨).. أو ما كان ردًا على النبي نوح عليه السلام في موقف آخر: ﴿**فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ (هود ٤٦).. أو الذي كان من التعليمات العامة للخلق في كل وقت وحين: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ (الإسراء ٣٦)..!! إنما هذا من جملة أفعال الله ﷻ وإراداته والتي قال الله ﷻ عنها: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ (الأنبياء ٢٣)..!

وأما الذي من شأنك فهو أنه لا يتم في هذا الاختبار ظلمٌ ولا محاباة ولا إجحافٌ لك يوم النتيجة..! بل في الواقع حجة الله تقوم بالعدل على الجميع وتابع لآخر الكتاب حتى تتأكد من ذلك..

ثم إن من ينجح في هذا الاختبار يكون جزاؤه أعلى مما يتخيل أو يظن..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ (البينة ٧).. أي أن الناجحين في هذا البلاء هم أفضل خلق الله ﷻ جميعًا..! ليس فقط أفضل ممّن دخلوا الاختبار معهم وفشلوا –وهذا مفهوم طبعًا– ولكن أيضًا أفضل من الذي لم يخض الاختبار، مثل الجمادات والدواب الطائعة لله ﷻ بطبعها، ومثل الملائكة التي لا تحسن أن تعصي الله..!

٢- عن العبادة..!

يحكون عن ملك خرج للصيد فأُصيبت قدمه بالقروح من خشونة الأرض، فأمر الملكُ وزيرَه بأن يبطّن الطريق الذي يسير عليه من أول قصره وحتى الغابة بالمطاط حتى لا تتقرح قدمه، بينما ما قام به الوزير بالفعل كان حلًا أبسط من هذا وأكثر منطقيّة: أهدى له حذاءً مطاطيًا..!

هذه هي المشكلة التي يُصاب بها من يظن أن ما يواجهه هي حالة فريدة من نوعها تتطلب تدخّلًا أكثر تميّزًا عن غيره، بينما هو في النهاية مجرّد رجل يحتاج إلى (كوتشي)..

هذا شبيه بالمشكلة التي يُقال أنها واجهت روّاد الفضاء الأمريكيين حين كانوا يحتاجون إلى قلم يكتبون به في الفضاء الذي تنعدم فيه الجاذبيّة بطبيعة الحال ممّا يؤدي إلى أن الحبر لا ينزل من القلم.. أنفقوا الكثير من الأموال والأوقات للتغلب على هذه المعضلة المتميّزة: نريد قلمًا مقاومًا لانعدام الجاذبيّة.. بينما استخدم روّاد الفضاء الروس قلمًا خشبيًا من الرصاص..!

المعضلة التي قد تنشأ في ذهن البعض من أن البشر مخلوقون للعبادة برغم أن الله لا يحتاج إلى هذه العبادة، هذه المعضلة نشأت في الحقيقة من التصوّر الخاطئ بتميّز موقع الإنسان من مسألة العبادة، بينما القرآن يقرّ فلسفة مختلفة تمامًا فيها الأمر ليس كذلك على الإطلاق..!

فالقرآن يخبرنا أن كل ما حولنا من حيوان أو طائر أو حشرة أو بكتيريا أو ذرّات جماديّة لا حياة فيها إنما هي تسبح لله ﷻ وتسجد له بطريقتها الخاصة..! كما يقول الله ﷻ: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۞ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** (النحل ٤٨–٥٠).. **﴿تُسَبِّحُ لَهُ**

السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء ٤٤)..!!

فمسألة العبادة لله ﷻ نحن كبشر —والجن معنا— لسنا مميزين فيها بأي حال، وإنما العبادة والذل والخشوع هي النتاج الطبيعي للعلاقة المنطقيّة التي تربط الخالق ووليّ النعم بالمخلوق الفقير الموهوب له كل شيء..! إنها علاقة قائمة على شكر النعم ومخافة البطش ورجاء المزيد من الفضل.. هي علاقة لا يؤثّر وجود الثواب والعقاب أو الاختبار والبلاء عليها..! إذ لو لم تكن هناك آخرة أو جزاء على الأعمال لظلّت العبادة هي المقابل الوحيد المعقول تقديمه من مخلوقات الله ﷻ..

ولكن الذي حدث فعلًا أن الإنس والجنّ قد اختُصّوا بالإرادة الحرّة، وهي جزء من البلاء الواقع عليهم وأمانة التكاليف التي تحمّلوها، كما يقول الله ﷻ: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾** (الأحزاب ٧٢)..

ولذلك أصبح هناك اختلاف بين عبادة (المكلّفين) من الإنس والجن، وبين عبادة (غير المكلّفين) من الشجر والحجر، هذا الاختلاف مفاده أننا (نختار) أن نعبد الله أو لا نعبده، نختار بين الإيمان والكفر، وبين الجحود والشكر، نختار بين أن ننضمّ لركب العابدين في الكون ونتسق مع هذا النسق الإلهي المحكم، وبين أن نشذّ عنه ونكون الاستثناء الوحيد في هذا الكون..! كما يقول الله ﷻ: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾** (الحج ١٨)..

من أجل ذلك احتاج الإنس والجن على التأكيد على غاية خلقهما دون سواهما من مخلوقات الله ﷻ..! لا تحتاج السماوات والأرض وما فيها من دوابّ أن يذكرها الله ﷻ

بأن عليها أن تعبد الله ﷻ لأنهم لم ولن ينسوا ذلك قط.. بل يأتون ربهم في كل حين طائعين، يخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون..

بينما نحن ننسى طوال الوقت، فنحتاج إلى التذكرة: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات ٥٥-٥٦)..!!

٣- عن الغرور..!

ضمن قائمة الأمراض النفسيّة تنتشر تلك الأمراض التي تحتوي لائحة معايير تشخيصها على الإنكار الشخصي لصاحب هذا المرض، لديك مثلًا مرض الفصام وجنون الاضطهاد والوسواس القهري، كل هذه الأمراض يشترك كثير من أصحابها في أنهم ليست لديهم أدنى فكرة عن أنهم مصابون بهذا المرض، على الأقل في مراحل المرض الأولى قبل أن يبدأ رحلة العلاج السلوكي..

ربما من الاستثناءات النادرة ويكاد يكون الاستثناء الوحيد من هذه الأمراض والتي تُعدّ من أفضل وسائل تشخيصها أصلًا الاعتراف المباشر من صاحبها هو مرض النرجسيّة، ومعناه عشق الذات، فبحسب دراسة أشرف عليها (براد بوشمان) عالم النفس الأمريكي في جامعة أوهايو وتضمنت ٢٢٠٠ شخص هم موضع الدراسة، أن الشخص النرجسي يكفي لتشخيص مرضه أن يتم سؤاله سؤالًا واحدًا فقط: إلى أي مدى تتفق مع مقولة: أنا نرجسي..؟! فكما يقول (بوشمان): "هم يفتخرون بذلك، لأنهم لا يعتبرونه شيئًا سيئًا، ويثقون بأنهم أفضل من الأشخاص المحيطين بهم وهم على استعداد للتصريح بذلك علانية"..!

النرجسيّة عامةً هي مرض نفسي يعني التعالي والشعور بالأهمية وعشق الذات، نسبةً

إلى (Narcissus) وهو صاحب الأسطورة الإغريقيّة الذي كان على درجة عالية جدًا من الوسامة، ولسبب ما لم تحبه (Nemesis) التي كانت تقوم بدور الرقابة على رذائل البشر، فاستدرجته لبركة ماء حيث رأى صورته المنعكسة عليها فوقع في عشقها حتى غرق في البركة من كثرة هيامه بصاحب الصورة..!

النرجسيّة تمثل أقصى درجات الغرور البشري، ولكن هذا ليس معناه أن غير النرجسيين قد سلموا من هذا الغرور..! نحن كبشر نشترك في هذه النرجسيّة بنسب متفاوتة، فكما يقول (جون شتاينبايك) الكتاب الأمريكي الحائز على جائزة نوبل: "في أغلب الأحيان فالناس ليسوا فضوليين إلا بخصوص أنفسهم"، ويقول (ستيف مارابولي) عالم النفس المعاصر: "كلما زادت نرجسيّتنا كلما كرهناها في الآخرين"، ويقول الروائي اليوناني القديم (سوفوكليس): "لا توجد سوى خطيئة واحدة: الكبر"، وهذا شبيه بما يقوله المؤرخ الأسكتلندي (توماس كارلايل): "الخيلاء هي مصدر وملخّص كل التعاسات والعيوب"، ولخّص لاعب كرة القدم الأمريكي (فرانك ليهي) المسألة كلها في كلمته: "الغرور هو المخدر الذي يخفي آلام الغباء!!"..

في تراثنا الإسلامي تجد التحذيرات من الغرور والكبر كأقوى ما يكون.. يكفينا من ذلك أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عنه ابن مسعود ﵁ وذكره الإمام مسلم في صحيحه.. وقال (محمد بن الحسين بن علي): "ما دخل قلب امرئ شيء من الكِبْر قط، إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك أو كثر"، وقال (عبد الله بن المبارك): "لا أعلم في المصلين شيئًا شرًا من العجب"، وجاء في السير للذهبي رحمه الله أن الأمير (يزيد بن المهلب) —وكان ذا تيه وكبر— لما رآه (مطرف بن الشخير) يسحب حلته فقال له: "إن هذه مشية يبغضها الله"، قال: "أَوَمَا تعرفني؟؟!"، قال: "بلى أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة"..!!

لا يحق للإنسان أبدًا أن يتكبر ويشعر بفضل عظيم له حين يأمره الله بعبادته، ويقول له: ولماذا تحتاجني أن أعبدك..؟! من الذي أقنعك بأن الله هو من يحتاج منك عبادتك أيها التافه..؟! ومن تكون أنت أصلًا..؟! إنما أنت هباءة في ملكوت الله ﷻ أو أقل من ذلك.. وما يحمل الله ﷻ العظيم خالق السماوات على أن يبالي بك أو يهتمّ..؟! كما يقول الله ﷻ: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ (الفرقان ٧٧).. أي لولا إيمانكم ما كان الله ليبالي بكم إطلاقًا..!

هذا الغرور البشري العتيد هو ما منع الإنسان من أن يدرك أن العلاقة التي تربطه كمخلوق بالله ﷻ الخالق لا تسمح له إلا بأن يكون عبدًا ذليلًا لله ﷻ طوال حياته، ثم عندما تقوم الساعة يقول: سبحانك ما عبدتك حق عبادتك..! لماذا يفعل ذلك..؟ لأنه لا يسعه سوى ذلك أصلًا..

هذه المكانة الإنسانيّة الضعيفة التي هي في الحقيقة أقل بكثير من المكانة المتوهّمة التي يظنها أغلب الناس في أنفسهم، مما يجعل عقابهم حتى —حين يريد الله أن يعاقبهم— أقل شأنًا بكثير مما كانوا يتوقعونه..! كما يقول الله ﷻ في آل ياسين المكذّبين: ﴿**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ۞ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ (يس ٢٨–٢٩)..

لذلك يحدثنا الله ﷻ عن عبادة الملائكة التي هي أفضل وأكمل من عبادتنا بما لا يُقارَن، عبادة لا يخالطها السأم أو التعب أو الملل أو الفتور.. فيقول الله ﷻ: ﴿**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ**﴾ (فصلت ٣٨).. ثم يوضّح لنا أن هذه الملائكة هي أشد منّا في الخلقة، أجمل منّا في الصورة، أفضل منّا أخلاقًا، أكرم منّا مكانةً، وبرغم ذلك لم يتكبروا أو يغترّوا بأنفسهم مثلما فعلنا..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ**﴾ (الصافات ١١)..؟!!

إذن فالله ﷻ قد خلقنا ليبتلينا ويختبرنا، ولأننا من مخلوقات الله فتبقى العلاقة الوحيدة التي تربطنا بالله ﷻ هي أن نعبده، وأن نسبح بحمده ونقدس له..

فلا يوجد أي معنى للسؤال القائم يقول: لماذا خلقنا الله لعبادته وهو لا يحتاجنا..؟

هذا هو السبب في النهاية في أن تشخيص المشكلة ومنبع السؤال ومصدر هذا الاستشكال ليس أكثر من مجرّد غرور فعلًا..!!

مُغمِضُو الجفون
في القطار السريع

(عن البعث واليوم الآخر)

في عام ١٩٠٧ قام الطبيب الأمريكي المتديّن والمتحمّس (دونكان ماكدوجال) بواحدة من أكثر التجارب العلميّة تخلّفًا وانحيازًا ولا أخلاقيّة..! حيث عمد إلى ستة من المرضى المصابين بالسل في دار للعجائز وكان يعرف أنهم سيموتون حتمًا فثبّت بأسفل كل واحد منهم ميزانًا وقام بوزنهم قبل وأثناء وبعد عمليّة الاحتضار كي يثبت أن هناك جسمًا ماديًا قد خرج من أجسامهم عند الموت: الروح..!

كانت النتائج غير مبشرة، حيث أعطى كل واحد منهم نسبة اختلاف ضئيلة وغير متساوية مع بعضها البعض إطلاقًا، إنه وكأن الروح كانت تملك وزنًا مختلفًا في كل مرة.. هذا بالطبع كان كفيلًا بإجهاض تجربته (العلميّة) حيث إنها غير خاضعة للقياس بهذا التفاوت الكبير، إلا أن ماكدوجال لم يستسلم وقام بجمع هذه النسب المتفاوتة وقسمتها على ستة، ليخرج بمتوسط (وزن) الروح وهو ٢١ جرامًا..!

كرر نفس التجربة مع كائنات أخرى، فلدهشته كان الخروف يزداد وزنه عند الاحتضار ولا يقل..! لم تشكل هذه مشكلة أيضًا أمام ماكدوجال المتحمس وكوّن نظرية تقضي بأن روح الخروف تقوم بعمل نفق لخروجها من جسده عند الاحتضار مما يُزيد مؤقتًا من وزنه..!

كرر التجربة مع الكلاب ففوجئ بأن الكلاب لا تظهر أي تغيرات في الوزن عند الاحتضار، لا بالزيادة ولا بالنقص، فكوّن نظرية جديدة تقضي بأن الكلاب لا روح لها..!

وهكذا لا يوجد ما يمنع ماكدوجال من الفكرة الغريبة التي سيطرت عليه، ومات بعد أن بلغ الرابعة والخمسين من العمر دون أن يفطن إلى أنه قد قضى حياته في الهراء..! فالروح من سرّ ربنا وما أوتينا نحن من العلم إلا قليلًا..!

لم يتم أبدًا اعتبار هذه التجارب شديدة الغباء واللاأخلاقية: علمًا.. لكن هذا لا يمنع من أن هذه النتائج قد تسرّبت إلى وجدان العامة بشكل أو بآخر..! وأنت إن بحثت عن الـ (٢١ جرامًا) —التي توصل لها ماكدوجال كوزن للروح— لوجدت أنها عنوان فيلم درامي

من إنتاج هوليود سنة ٢٠٠٣ يتحدث عن نفس المبدأ..!



لم يكن الوعي البشري يحتاج إلى تجارب ماكدوجال حتى يوقن بوجود (الروح) على كل حال.. فقد كان الإغريق القدماء مثلًا يضعون في فم الميّت قطعة معدنيّة، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن (شارون) سيطلب من الميت أجرًا على عمله.. حيث شارون هو عامل (المعدّية) على نهر (ستيكس) الذي ينقل الأموات من عالم الأحياء إلى مملكة (هاديس) حيث يمكث الموتى في انتظار أن يتم الحكم عليهم وعلى مصيرهم الأبدي.. لم تذكر لنا الميثولوجيا الأغريقية عمّا كان سيحدث لو نسى أهل الميت أن يضعوا القطعة المعدنية في فمه، هل سيتركه (شارون) في عالم الأحياء إذن ولا ينقله معه على قاربه..؟! ولكن ألن يكون هذا أمرًا جيدًا..؟!

أما القدماء المصريون فكانوا ينزعون أحشاء الميّت كلها ويتركون قلبه، لأن القلب هو ما سيتم وزنه على ميزان الآلهة بعد البعث ليتم تقرير مصيره..

وأما الهندوس والبوذيّون والكثيرون من وثنيي أفريقيا يعتقدون بأن الروح لا تذهب إلى عالم آخر ولكن تدخل في جسد وليد جديد، وأنه على حسب أعمالك الصالحة والطالحة يتم اختيار هذا الحاضن الجديد لروحك، فبالتالي قد تكون حياتك الأولى في جسد زعيم القبيلة ولكن لأنك لم تكن ذا أخلاق حميدة فإن حياتك الثانية قد تكون في جسد صرصور يعيش في المراحيض العامة ومصاب بالتهاب المفاصل..! هذا هو مبدأ (تناسخ الأرواح) الذي كان موضة فكريّة في الستينات..

نحن إذن أمام اطّراد بشري جديد، في هذه المرة الاطّراد يتعلق بوجود شيء لطيف في الكائنات الحية، وهذا الشيء يذهب بعد الموت إلى مكان ما..! وعلى الأرجح يتضمن هذا المكان ثوابًا وعقابًا لصاحب هذا الجسد الذي مات..

ولكن الكثير من البشر فضّلوا أن يتعاملوا مع هذه المسألة بطريقة طريفة وذكيّة للغاية: أغمضوا أعينهم..! وبنفس منطق من يركب القطار السريع في مدينة الملاهي فلا يريد أن يرى المهابط المخيفة ولا الارتفاعات الشاهقة التي هي أمامه، يفضل حينها أن يغض طرفه عن كل ذلك ويتجاهله تمامًا..!

هذا هو الذي يقوم به الكثيرون ممن لا يؤمنون بوجود حساب أو بعث بعد الموت، ولكنهم برغم ذلك لا يعلمون وليست لديهم أدنى فكرة عن كنه المصير الذي ينتظرهم بعد أن يتوقف قلبهم عن ضخ كمية الدم المعتادة التي تبقى جسدهم الفاني المتهالك على قيد الحياة.. لا يعلمون ما المكان الجديد الذي سيذهبون إليه، وهم لا يبالون كثيرًا بذلك، واختاروا أن يُغمضوا أعينهم في القطار السريع..!

نحن كمؤمنين بالقرآن —ومعنا طائفة كبيرة من أصحاب الديانات الإبراهيمية— نعلم أن هذا المكان هو يوم القيامة الذي سيجمعنا فيه الله ﷻ ليحاكمنا ويحكم بيننا ويلقى كل إنسان مصيره الأبديّ..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ (النساء ٨٧)..

هذا القرآن الذي لم يتركنا من دون أن يقدم لنا إجابة شافية عن سؤال البعث والنشور واليوم الآخر والحياة بعد الموت..!

فلنشاهدها معًا..

١- ما هو أهون..!

اعتاد خبراء التواصل على أن يذكّروا بأهمية التكرار في إيصال الرسالة، حتى إنهم يقولون أنه ولكي تقنع شخصًا برسالة ما فإن عليك أن تكرر رسالتك ثلاث مرات بطرق مختلفة،

من دون أن يفطن إلى أنك قد كررت رسالتك..!

الخطاب القرآني أوضح مثال موجود لدى البشرية على الخطاب الإقناعي، ومن ضمن سماته فعلًا النزعة التكرارية لتقرير المعنى وتأكيده.. وهو تكرار لا يشوبه الملل أو الإطناب، وإنما هو تكرار من نوع جديد، تكرار مثير للاهتمام في حد ذاته..!

من ضمن هذه الأمثلة على التكرار: الحجة القرآنية التي أتت على الرد على من يتعجبون من البعث بكونه عملية مستحيلة الإمكان.. حين طالب القرآن كل من له عقل على قدر متوسط من الذكاء أن يفطن إلى أن خالق كل شيء وموجد كل الوجود من العدم، إنما لن يعجز أو يصعب عليه أن يعيد كل شيء كما كان..!

لذلك يقول الله ﷻ مخاطبًا هؤلاء الذين آمنوا به كخالق، ولكن لم يصدقوا في إمكانية إعادتهم وبعثهم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ (الحج ٥).. ويقول لهم: ﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ (الأنعام ١٣٤)..

بل بمقاييس البشر التجريبيّة المحضة، سيكون هذا أهون عليه: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (الروم ٢٧)..!!

ولكن هناك من البشر من هو فقير الإحساس إلى الحد الذي يجعله لا يفهم شيئًا أبعد ممّا يراه بعينيه، فيضرب لله الأمثال..! هل سيقدر الله أن يحيينا بعد أن صرنا ترابًا..؟ كيف سيحيي الأمم السابقة بعد أن صارت نفطًا استعملته أنا في سيارتي واحترق وانتهى الأمر..؟!

فنجد أن القرآن قد أجابهم بنفس الإجابة المنطقيّة والتي تصلح جوابًا لكل أمثلتهم

المتعددة والتي مهما بلغ عددها المئات تبقى في النهاية فكرتها واحدة: لا نصدق أن الله يقدر على ذلك..! فيقول القرآن: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ (يس ٧٨-٧٩)..

وجمع القرآن كل أمثلتهم سويًّا ورد عليها بنفس الرد مرةً واحدة: ﴿**وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ (الإسراء ٤٩-٥١)..!!

حين تسألني: لماذا يكون هناك بعث..؟!

فإني سأدعوك أولًا إلى إزالة علامة التعجب من سؤالك، بل ولماذا لا يكون..؟!

٢- أنت تراه في الدنيا..!

الجمال النائم ليس في قصص (ديزني) فقط، بل من الممكن أن يُصاب به الناس في الحقيقة..! مثل المصابين بمتلازمة (كلاين ليفين) الذين يعانون من اضطراب في النوم يصل إلى درجة الغياب عن الوعي تمامًا لمدة تتراوح من ثلاثة أيام إلى ثمانية أشهر..! في هذه الفترة هم قد يضحكون ويبكون بلا سبب ويأكلون بشراهة ويتصرفون كالأطفال، ولكن في داخل رؤوسهم هم لا يفعلون شيئًا سوى مجرد حلم طويل يستيقظون منه بعد أشهر وكأنهم كانوا نائمين فحسب..!

هناك اضطراب نومي آخر نعرفه جميعًا وهو السير أثناء النوم.. لكن ما يثير العجب أن هناك بضعة حالات تم تسجيلها لأناس خطوا خارج نوافذهم وهم نائمون، مثل مراهق وقع من الدور الرابع في ٢٠٠٧ حين كان يسير وهو نائم ثم لما وقع إلى الأرض أكمل نومه بشكل عادي جدًا..!

هناك (لي هادوين) الذي كان يعمل ممرضًا ولكنه كان ينام فيبدأ في الرسم..! الغريب أنه كان يخرج لوحات فنية فعلًا والأغرب أنه لم يهتم بالرسم في أثناء يقظته إطلاقًا..! وهناك مرض (أمبين) الذي يصاب به بعض السائقين حين يدخلون في نوم كامل ومع ذلك يستمرون في القيادة بأعين مفتوحة.. وهناك طبعًا حالات القتل التي تتم أثناء النوم، فحتى عام ٢٠٠٥ تم تسجيل ٦٨ حالة قتل وقعت أثناء نوم القاتل وهو لا يدري شيئًا، مع العلم أن المحكمة لا تحكم للقاتل بهذا إلا بإثبات قوي مثل فحص كهربيّة المخ أثناء هذه النوبات العنيفة لديهم والتي تثبت أن مخّهم الآن في حالة نوم كامل، بل وهادئ أيضًا..

اضطرابات النوم كثيرة، حتى إن أحد فروع الطب في الدول المتقدمة مختص فقط في أمراض النوم ومحاولة علاجها.. وغالب هذه الاضطرابات غريب جدًا، وهي تفوق كل المواقف الغريبة التي نحفظها جميعًا عن أشخاص قاموا بأفعال غير معتادة أثناء نومهم، تلك الحكايات التي نرددها في جلسات السمر حول أكواب السحلب..

النوم يشبه الموت فعلًا، في حتميّته وقهره وقدرته على إفقاد صاحبه وعيه وبكل هذه السرعة والسهولة..! والله ﷻ وضّح لنا أن ما يحدث لنا عند النوم شبيه بالفعل لما يحدث لنا عند الموت، كما يقول الله ﷻ: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الزمر ٤٢)..

ما يحدث لنا إذن كل صباح هو في الحقيقة مثال على إحياء الله ﷻ للموتى، نستطيع أن نفهم حينها أن إحياء الله ﷻ للموتى يوم القيامة ليس بأمر معجز لله سبحانه، وأن استردادك لذاتك حين البعث سيكون بنفس السهولة التي استرددنا فيها وعينا مع أصوات خطوات الباعة في الشارع أو رائحة الإفطار الخارج من مطبخ الوالدة..!



يعطينا القرآن أمثلة أخرى لهذا الإحياء وهذه الإعادة، تتمثل في الدورة المستمرة للضياء والظلام والتي لم تنقطع منذ خلقنا الله ﷻ، هذه الدورة التي تعني الطريقة التي قُضيَ بها على الأرض أن تُفني حياتها في دورانها حول محورها أمام الشمس..

هذه هي الحقيقة التي لاحظها إبراهيم عليه السلام لما احتجّ على النمرود وأراد أن يثبت له أن الله يحيي ويميت، فقال له: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ (البقرة ٢٥٨).. حيث نرى في كل يوم شكلًا من أشكال الفناء والانتهاء لضوء الشمس يختفي من أمام أعيننا، قبل أن نجده مجددًا في الصباح أمام أعيننا لنعلم أن البدء والانتهاء إنما هما سنتان متلازمتان في خلق الله ﷻ دائمًا..! كما يقول الله جل جلاله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (المؤمنون ٨٠)..



وهكذا.. وأنت تسير في درب الحياة، حاول أن تلاحظ التغيرات الجذرية التي تحدث من حال إلى آخر، والطريقة التي يتحول فيها فجأة وبشكل يثير العجب شيءٌ من نقيض إلى نقيض..!

مثل الأرض البعيدة في أواسط أفريقيا التي غاب عنها الماء عدة شهور فتشققت وترسبت الأملاح على جانبيها وتحوّل الطين اليابس إلى ما يشبه الصخر، وما أن يأتيها بقايا المطر الواقع على خطوط الاستواء حتى تتغير إلى مرعى أخضر تتغذى عليه كل الحيوانات المهاجرة..! ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (الحج ٥-٦)..

يمكنك أن تلاحظ أن هذه الإعادة المتكررة هي سنة الحياة من حولك..! يمكنك أن تلاحظها في جميع خلايا جسدك التي تتجدد باستمرار باستثناء خلاياك العصبية، حتى إنك بعد فترة من الزمن تكون قد حصلت على كبد جديد تمامًا، وقلب مختلف، وجلد شخص

آخر..!

تلاحظها في الفكرة الملحّة التي تأبى أن تموت، في العزيمة الراقدة على سرير اليأس تحتضر، ولكنها تتمالك وتحاول القيام من آن لآخر، تلاحظها في الدمعة التي تتساقط مرارًا لنفس الأسباب، وفي الروح المرحة التي سرعان ما تعود بعدما ظننت أنك لن تبتسم مرةً أخرى..

هذا التكرار وهذه الإعادة يَبُثّان فينا الاطمئنان والأمل..!

الاطمئنان بأن الهواء العليل الذي سيختفي بعد وقت الضحى سيعود فجر الغد مرة أخرى، بأن الفرصة الرائعة التي فاتتك اليوم ستأتيك غدًا ربما في صورة أفضل، بأن الضحكة التي تأخرت عنها اليوم، غدًا تجلس في انتظارها، بأن الذنب الذي اقتنصك في لحظة ضعف، غدًا يأتيك وأنت قويٌ منيع ضده..

إنه نظام خلق وإعادة كاملين جعلهما الله عز وجل سنةً في خلقه، وبث بعضًا من دلائله في حياتنا الدنيا، تراها أنت فلا يكبر عليك أن تؤمن بأن الله سبحانه سيعيدنا كما خلقنا، و أننا نحن أنفسنا سنكون جزءًا من دائرة البدء والانتهاء التي قضى بها على خلقه..! كما يقول جل جلاله: ﴿**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۞ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۞ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾ (البروج ١٣–١٦)..

٣- حين يكتمل العدل..!

باستثناء الـ (السوشي) لا أظن أن هناك أية كلمات يابانية أخرى نحفظها غير (هيروشيما) و(ناجازاكي)، من ذا الذي لم يسمع عن قنابل أمريكا النووية..؟ التي لم يكن لها داعٍ فعلًا إلا فرض الرعب والهيمنة في أسوأ صورها، وبنفس منطق (البلطجي) الذي يلوّح

باد (سنجة) في شوارع المطريّة..! جميعنا يذكر صورة عش الغراب الشهيرة بالأبيض والأسود مع بعض المناظر المحطمة للأعصاب هنا وهناك لمجموعة بيوت مُبادة أو طفلة يابانية محترقة.. إنها الإبادة الشنيعة التي قام بها طيار أمريكي بضغطة زرّ ليتسبب بموت مائتيْ ألف ياباني..

غير أننا لم نسمع غالبًا عن مدينة (نانجنج) الصينية التي اجتاحها اليابانيون أنفسهم وقبل أعوام قليلة من تاريخ القنبلتين الشهيرتين، ليقوموا بقتل ثلاثمئة ألف إنسان..! هذه المرة كان القتل بالرصاص والسونكي حين تتلاقى عيناك بعيني قتلاك دون أن تعبأ بذلك..! الجريمة أبشع بلا شك، خصوصًا لو عرفت أنها من أشهر المذابح التي ارتبطت بالاغتصاب في التاريخ، حيث تم اغتصاب عشرين ألفًا في اليوم الأول فقط، ولم يغتصبوا الفتيات فقط، ولكن أيضًا الأطفال والعجائز..!

احتفظ التاريخ بمذبحة (نانجنج) وغيرها من مذابح اليابانيين في سجلاته المخفيّة حيث لا يتذكرها أحد تقريبًا.. وبنفس الطريقة التي احتفظ بها بسجلات قتلى (ستالين) في الحرب العالمية الثانية التي فاقت ضعفي عدد قتلى (هتلر)، لكن بالطبع الكل يعلم أن هتلر مجرم حرب سافل قد نال جزاءه، بينما ستالين استمر في حكمه إلى أن مات على فراشه بجوار زجاجات الفودكا وتشييعات الملايين من محبيه بأعينهم الدامعة وزهورهم الحمراء على قبره الذي لا يزال الناس إلى اليوم يزورونه كل عام..!

ماذا عن (ماو تسي تونج) الذي قتل ستين مليونًا من أجل إقامة الثورة الشيوعية في الصين..؟ لم ينل هذا الوغد جزاءه أبدًا إلى أن مات.. وماذا عن جنكيز خان وهولاكو وفلاد المخوزِق وكاليجولا ونيرون، وغيرهم من معاتيه التاريخ الذين نشروا الدماء في كل مكان ومات معظمهم على فراشه بسلام لم يعكّره عليهم أحد..!

التاريخ لا يرحم أحدًا فعلًا لكنه لا يمانع أحيانًا في الواقع من أن يسجل كل شيء في غرفة مكتبه الخاصة بسجلات باهتة لا يطّلع عليها أحد.. العدل –ككل شيء في هذه

الدنيا— ناقص بحق، والذين يفلتون من العقاب أكثر من أن نحصيهم..! علمتنا السينما أنه لا توجد جريمة كاملة وأن المجرم سينال جزاءه في النهاية، بينما معظم جرائم الحياة كاملة فعلاً، أو هكذا تبدو لنا..

لم يتسنّ لك الانتقام أبدًا من ابن العميد الذي أخذ مكانك في الجامعة، ولا بائع الفاكهة الذي باعك هذه البطيخة البيضاء، ولا سائق سيارة الأجرة الذي سَبَّكَ ثم لاذ بالفرار..! لم يُقتصّ أبدًا من المسئول عن شهادة البكالوريوس التي حصل عليها ابنك دون أن يتعلم حقًا، ولا عن مياه النيل التي قتلت أباك بالفشل الكلوي، ولا عن دخان قشّ الأرز الذي تقضي كل عام بسببه شهرًا في صداقة دائمة مع السعال.. ولربما لا تستطيع أن ترى بعينيك نهاية أي سفّاح من حولك، وما أكثر السفّاحين من حولك..!

مظالم الدنيا من حولنا بشعة، ربما أبشع من أن يتحملها المرء في كثير من الأحيان.. إنها مرارة القهر، ودموع الحسرة، والرغبة العارمة في الانتقام، والحاجة الصادقة للقصاص، ونظرات العين المنكسرة في صمت بليغ..! إنه جوع قارص، وظمأ قاتل.. وككل ظمأ في الدنيا هناك ما يرويه ويشبعه.. هناك في مكان ما، أو زمان ما، هناك عدل كامل، هناك انتقام جبار، هناك قصاصٌ نافذ..

يخبرنا القرآن أن هذا اليوم آتٍ حتمًا: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ**﴾ (غافر ١٧).. لا ظلم هناك، في ذلك اليوم..!

هذا دليل وجودي على اليوم الآخر، أننا نحتاج إليه حقًا..! فكما يدل شعور العطش على وجود الماء في مكان ما، فشعور الظلم يقودنا إلى وجود العدل الكامل المطلق..



هؤلاء الذين أظهروا الجانب المظلم من نفوسهم كان هذا لأنهم لم يكونوا على إيمان

بوجود يوم آخر، أو كانوا على علم بذلك ولكنهم لم يهتموا إلى هذا الحد.. لك أن تتخيل قدر ما كان سيكون في البشرية من جرائم إن كان الناس جميعًا لا يؤمنون به، أو إن لم يكن هناك يومٌ آخر فعلًا..! ما كم الرقابة الذاتيّة المتبقي على أفعالنا حين نؤمن من داخلنا أن كل الجرائم ستمر مرور الكرام..؟؟ لذلك يحكي لنا القرآن قول موسى عليه السلام: ﴿**إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ (غافر ٢٧)..

ويحكي لنا المنهج الإصلاحي الذي حرص عليه شعيب عليه السلام، والذي عرف أن إرادة الدنيا دون الآخرة تنتج الكثير من الفساد في الأرض..! فقال لهم: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ (العنكبوت ٣٦).. ذلك المبدأ الذي أقرّه الله عز وجل في قوله جل جلاله عن الآخرة: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (القصص ٨٣).. يكفينا الخراب الذي حدث في الدنيا من كل هؤلاء الذين يريدون علوًّا في الأرض وفسادًا، وأما في هذا اليوم، فلا يوجد ظلمٌ هناك ولا خراب..!



ومن أكبر مظاهر هذا العدل ألا يضيع عمل العاملين، ولا أجر الصالحين، أن يعمل من يعمل في الدنيا وهو على اطمئنان كامل بوعد القرآن له أنه في يوم القيامة لن يجد إلا جزاء ما كان يعمل، ليس ضائعًا كما كان يضيع في الدنيا، بل محفوظ عند الله جل جلاله: ﴿**أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**﴾ (آل عمران ١٩٥).. وليس منقوصًا كما كان في الدنيا، بل سيكون كاملًا ومُستوفىً: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ (آل عمران ١٨٥).. لن يُقابَل المحسن إلا بمثل فعله: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ (الرحمن ٦٠)..



ويحدثنا القرآن عن مظهر آخر من مظاهر هذا العدل وهو القضاء العادل..! حيث يفصل الله ﷻ بنفسه في النزاعات والخصومات والاختلافات التي لطالما قامت بسببها الحروب والشقاق والعداوة في الدنيا.. سوف نعرف الآن من كان المصيب ومن كان المخطئ، سوف نعرف من كان الأحق بالله ﷻ في كل الحروب الدينية التي قامت على وجه الأرض، سوف نعرف من كان الظالم ومن كان المظلوم، أو من الذي أصاب اجتهاده بين كل هؤلاء الفقهاء..! هذا القضاء الفاصل يحدثنا عنه القرآن فيقول: ﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ (آل عمران ٥٥).. ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ (الحديد ٥)..!



أيضًا يمكننا اعتبار (التفرقة) و(التمييز) من بين مظاهر العدل يوم القيامة..! فالمساواة بين المجرم والضحية إنما هو واحدة من أسخف صور الظلم المقنّع، والله ﷻ بريء من هذا.. في يوم القيامة يتبين لنا أن هناك نظامًا تفريقيًا كاملًا سيحدث لنا، لن يبقى حجر على حجر، أو يقف أخ بجانب أخيه، أو رجل بجانب امرأته.. بل سيمتاز الجميع إلى فريقين، وتعود كل الخيوط الرماديّة الدنيوية إلى لونين من الأبيض والأسود على اختلاف درجتيْهما، فريق هنا وفريق هناك..! ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ (يس ٥٩).. ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**﴾ (الروم ١٤).. ﴿**وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾ (الشورى ٧)..!



على أن أكبر مظاهر العدل الكامل في تلك الدار أنها تتميز بالعدل في منح العدل..! فلا يوجد فيها محاباة لأحد، ولا تختصّ بها فئة عن فئة.. لم يتوان القرآن في إقرار هذه المساواة بين البشر في أحقيتهم في التمتع بعدل هذه الآخرة الذي قد طال كل نفس

مخلوقة..! كما يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام ١٦٤).. ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ (يونس ٣٠)..

لم يكتفِ القرآن بذلك..! بل انبرى يرد على هؤلاء الذين ظنّوا أنهم اشتروا الآخرة بمكانتهم عند الله، أو أن لهم حظوة ومكانة عند صاحب مفاتيح الجنان تجعلهم الفائز الحصري الوحيد لدار البقاء..! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة ٩٤).. ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (البقرة ١١١–١١٢)..

فالآخرة عند ربك للمتقين..

كل المتقين..!

٤- خيارات غير متكافئة..

منذ أن كنّا في الثانوية العامة ونحن نقنع أنفسنا أن القادم أفضل وأننا الآن في عنق الزجاجة، ثم كبرنا وأدركنا كما يقول د. أحمد خالد توفيق أن هذه أنبوبة اختبار وليست زجاجة أبدًا..!

فأنت بعد الليالي الطويلة في المذاكرة والحفظ تدخل الكلية التي تريدها أخيرًا، فتراقب الأيام الباقية على الخلاص منها، وبعد أن تنتهي منها بالفعل تفاجئك فترة الامتياز، وهي أولى خطوات دخولك إلى عالم العمل الحكومي الرحب، حيث يتحول فيها (إمضاء الحضور والانصراف) من فعل يُقام به إلى مكان يُذهَب إليه..! إحساسك بذاتك مفقود تمامًا حيث تقوم في عز البرد لا للعمل ولكن لوضع توقيعك التعيس في ورقة أتعس أمام عيني موظف

مكتئب..! ثم تقضي معظم الساعات المتبقية حتى موعد الانصراف في التبضع من كافيتريا المستشفى ذات الأهل الطيبين والأطعمة الشريرة، محاولًا ألا تتقيأ وأنت تشمّ رائحة طهي (الكبد) في الصباح.. لماذا يسمحون لأناس يأكلون شطائر الكبد في التاسعة صباحًا بالدخول لحرم المستشفى..؟!

بعدها تبدأ فترة (التكليف الإجباري) في الوحدة الصحية التي تذهب فيها إلى عملك راكبًا حمارة صغيرة متسخة..! ثم تبدأ في التدرّج الوظيفي وتنطلق في رحلة عملك الروتينية المملة، يتحول يومك إلى رحلة شاقة تهدف إلى الوصول للفراش ليلًا.. وعندما تصل تتساءل في تعجب عن السبب الذي قد يدفعك إلى القيام ثانيةً..؟!

تنجب طفلًا صغيرًا تحبه في البداية، سرعان ما ترجع عن رأيك حين يكبر قليلًا ويتحول إلى آلة محطمة لكل ما هو جميل في هذه الحياة بصوت صراخ مزعج ورغبته الدائمة في تهشيم هاتفك كنوع من الهواية.. وبعد أن يكبر أكثر يجعلك تمر بكل الأطوار الكريهة في حياتك ثانيةً، ولكن معه هو: المدرسة ثم جحيم الثانوية ثم الكلية والعمل والزواج ... إلخ ..

وعندما يستقل أبناؤك بحياتهم ويكملون الدورة.. تكون هي اللحظة التي تفر فيها أخيرًا من متاعب الحياة لتقع في أحضان سرطان البروستاتا وضيق الشرايين التاجيّة..!

لو كنت تنوي أن تكون هذه هي حياتك: مجموعة من المراحل المؤلمة التي تنتظر نهايتها، تعيش في بحث مستمر عمّا يكفل لك المزيد من العيش، وكأنك في حلقة مفرغة ودائرة لا نهائية، لو كنت تنوي أن تكون هذه حياتك فأنت قد اخترت لنفسك عذابها..

بينما الله ﷻ قد دعانا أن نكون أكثر عقلانيّة، أن ندرك أننا أتينا لهدف عظيم يتمثل في عبادة رب العرش العظيم.. وأنه ليس لأحدنا من هذه الدنيا إلا ما أكل فأفنى، ولَبِسَ فأبلى، وتصدق فأبقى.. وأن تكون في الدنيا كعابر سبيل يوشك أن يرحل عنها، وأنه لا عيش إلا عيش الآخرة، وأنه من أرادها وسعى لها سعيها وهو مؤمن فالله يحييه حياةً طيبة

سعيدة ويوم القيامة هو أسعد، وأنه من كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا ..!

هذان خياران غير متكافئيْن إطلاقًا، فالدنيا التي نحيا فيها سريعة الفناء والتحوّل والتغيّر إلى الحد الذي يجعلنا جميعًا نفهم وبدون كتاب تفسير المثل القرآني المضروب لها..! ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (يونس ٢٤)..

يوجد كبير علاقة ارتباط بين ملاحظتنا لعجلة الفناء التي تطول كل شيء، وبين يقيننا في الدار الآخرة وإرادتها، هذه معادلة مطّردة..! يعطينا القرآن مثالًا لرجل تعطّلت عنده هذه الملاحظة، فاختلّت المعادلة ككل: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ (الكهف ٣٥-٣٦)..

هذه العلاقة بين تعظيم بقاء الدنيا ونعيمها وبين استبعاد —أو لنقل استحباب إغماض الجفون عن— اليوم الآخر، تتبين من خلال الصرخة التي ألقاها صالح عليه السلام على قومه علهم يفيقون..! ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ**﴾ (الشعراء ١٤٦-١٤٩)..؟!



ننحاز أيضًا دومًا للآخرة حين نفطن إلى أن رغباتنا في اللذائذ والمتع تفوق بكثير كل ما تحويه الدنيا منها..!

الإنسان مخلوق أصلًا بالكثير من الجشع الذي لا يشبعه شيء، يمكنك أن تقدّر ذلك

من حجم الجشع المالي المستمر من حولك، والذي يقوم به الأفراد الساعين للكسب السريع، وتقوم به وبشكل أكبر: الشركات الكبيرة (التايكونات)، التي تمتص أموالك وترسم على وجهك ابتسامة أثناء هذا الامتصاص، لتكون في منتهى السعادة حين تنفق الكثير من مدّخرات حياتك على ساعتهم الذهبيّة الجديدة، فقط لأنهم أقنعوك —ومعظم سكان العالم معك— أنها Cool..!

هذا الجشع المستفز ليس في المال فقط..! فأنت ترى مثلًا ذلك الذي يقع في عشق فتاة جديدة كل سبعة وعشرين يومًا.. وتلك التي ملأت آخر ملليمتر مكعب من دولاب ملابسها، وترغب دائمًا في المزيد..

الكثير منا يعاني من الجشع.. قد تكون واحدًا من هذا الجمع الكبير دون أن تدري..! قد يكون هناك شيء ما لا تقدر على أن تتوقف عن حبه، وعشقه، وإدمانه، وجمعه، والتعلق به، والتحسّر على ما فقدته منه..

المشكلة أننا سرعان ما نفطن إلى أننا لن نحصّل أبدًا القدر الذي نطلبه، وأننا طالما ارتضينا اتّباع رغبتنا فلن نتوقف أبدًا عن الركض، ولن نحصل أبدًا على ما نريد..! ستسمع عن نصف نساء العالم اللاتي هنّ أجمل من زوجتك، وستسمعين عن معظم رجال العالم الذين هم أوسم من زوجكِ.. ستسمع أن هناك دائمًا الكثير ممن هو أغنى منك، وهناك طبعًا الكثير ممن هو أظرف منك.. معظم الطعام الشهيّ لن نأكله، معظم النكات الجميلة لن نسمعها، معظم الأطفال اللطفاء لن نراهم..

هذه الرؤية الواقعية السوداء تمتزج بجشع رغبتنا في هذا الشيء أو ذاك، فتنتج حالة نفسية غريبة لا تتحمل معها مرارة فراق المفقود، ولا تقدر على ألم البذل والجود..! حالة نفسية غريبة هي خليط من الخوف والقلق والتوتر، ممزوجة باللهفة والشغف والتعلق..! حالة نفسية غريبة جمعها القرآن في كلمة واحدة، ثم ذكر نتائجها: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا**﴾

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج ١٩–٢١)..

إنه تعلق كامل إذن..! ليس بوسعك أن تتخلص منه إلا بتعلق أقوى، وصلة أمتن، وحبلٍ أشدّ..! ليس بوسعك أن تتخلص من إدمان الجمع، وقلق السمع، وحب المنع، إلا بصنع شغف آخر أهم، واعتياد لذة أخرى أجمل.. ثم الدوام على هذه الصلة الجديدة.. فكانت الآيات التالية تقول: **﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۞ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۞ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾** (المعارج ٢٢–٢٧).. صلتك الجديدة بالآخرة هي ما سيعينك على النجاة من هذا الجشع، والأجمل من ذلك: يعينك على التخلّص من آلامك حين لا تستطيع أن تُشبِعَه أبدًا..!



إذن فحين أجابنا القرآن على سؤال البعث ألمح إلى أن الذي خلقنا قادر على أن يعيدنا، وأكّد على أن البدء والإعادة هي سنة الحياة التي اختارها الله عز وجل في خلقه من حولنا، وقرر بأن العدل الكامل الذي نحتاج إليه حقًّا لن نجده إلا في يوم القيامة، ثم ذكّر بكدر الدنيا وفنائها وبأن المقارنة بين الآخرة والدنيا تجعلنا ننحاز دومًا للآخرة..

بملاحظة كل هذا يتبين لنا أن القرآن قد أجابنا على سؤال البعث..!

النعمة التي يُساء فهمها

(عن أسئلة القدر)

(أرشميدس(لم يكتشف قانون الطفو في الحمام، هذه قصة مشكوك فيها بقوة.. وأيضًا لم يكتشف)نيوتن(قانون الجاذبية حين سقطت تفاحة على رأسه..! لقد سادت هاتان القصتان في الوعي الشعبي لأنها تحقق أحلام كل واحد منا: يمكنك أن تصبح مكتشفًا جبارًا بحمام بخار، وشجرة تفاح، وقليل من الحظ..! وبالطبع ازداد الأمر سوءًا وكسلًا لما انتشرت القصتان بشكل أكثر تحريفًا، مما جعل أرشميدس يجري عاريًا من الحمام من فرط المفاجأة..! وأما نيوتن فقد كان نائمًا أصلًا تحت الشجرة لما وقعت عليه التفاحة..

بالمثل انتشرت خرافات أخرى، مثلًا نظريات)آينشتاين(لم تقل أبدًا أن بوسعك العودة بالزمن للنجاح في مادة الكيمياء، والزواج من ياسمين، وقتل مديرك في الشغل وهو في رحم أمه، لتصبح حياتك رائعة.. في الحقيقة النظريات لم تتعرض لحياتك على الإطلاق ولا لحياة ياسمين أو أم مديرك في الشغل..

معظم الناس لم يعرفوا آينشتاين إلا من فكرة (آلة الزمن) وهي فكرة ليس له بها كبير علاقة، في الواقع السفر عبر الزمن إلى الماضي حسب نظرية آينشتاين مستحيل تمامًا، ولكن ما قاله آينشتاين فعلًا أن الزمان نسبي، أي أنه يتباطأ مع زيادة سرعة الحركة، هذا هو كل شيء..! وقد كان مندهشًا جدًا إلى أن مات بسرّ شهرته الغريبة التي حققها، وبالطريقة التي خرج بها عن النطاق الأكاديمي الضيق إلى هذه الشعبية العالمية غير المفهومة..!

عرف قرّاء الأدب آلة الزمن منذ أن كتب (ويلز) قصته الخيالية الأولى: (آلة الزمن) في ١٨٩٥، وربما منذ أبعد من ذلك.. وهناك من لاحظ في خبث أن لو كانت آلة الزمن ممكنة، أليس من المفترض إذن أن يحيط بنا القادمون من الغد ليشهدوا بعضًا من اللحظات التاريخية، أم أن كل ما نمر به على هذه الدرجة من التفاهة بحيث لا يحب أن يشهدها أحد..؟! وعلى ما يبدو كان هناك من يستمع من غرباء الأطوار إلى هذا، فأعد بعضهم بحثًا مطولًا عن صور قديمة تبين أحداثًا تاريخية يظهر فيها رجل من الجمهور بثياب عصرية

وبآلات تصوير حديثة لا تنتمي لذلك العصر..! هذه من الأمثلة التي تبين لك قدرة البشر على تتبع سفاسف الأمور وإفناء حياتهم فيها دون أن يصابوا بتأنيب الضمير..!

ولكن فلنفترض أن آلة الزمن كانت حقيقة..! ماذا لو أني قد حصلت عليها في المستقبل فعلًا واستخدمتها عدة مرات، وفي كل مرة أنسى أني استخدمتها، وأعيش حياتي وكأنها حياتي الأولى دون أي تعديل..؟!

ربما أنا سافرتُ في ٢٠١٥ إلى مجاهل أفريقيا وأُصبتُ هناك بملاريا حمى الماء الأسود، ثم عدت إلى ٢٠١٤ لأتخذ مسارًا آخر لا يتضمن الماء الأسود في آخره.. ربما في ٢٠٠٧ دخلتُ كلية طب الأسنان التي كنت أحلم بها، فتعرفت على مجموعة منحطة في الكلية انتهت بي إلى مقعد وثير تحت كوبري ١٥ مايو بحفنة بيضاء على ظهر إبهامي.. لربما حدث هذا كله فعدت إلى عام ٢٠٠٧ مرة أخرى ودخلت كلية الطب، ولكنني نسيت كل شيء عن هذا الموضوع..!

ربما أنا صباح اليوم تعرضت لحادث سيارة بشع انتهى بي إلى فقدان عيني اليسرى، فعدت بعدها بالآلة الرائعة إلى اليوم مرة أخرى لأبتعد عن طريق بلبيس نهائيًا دون أن أعلم لماذا فعلت ذلك..! ربما أكلت غدًا طبق (البامية) المسبوك الذي أتمناه، ثم استلقيت على الأريكة وقد قرر مريئي أن يشتعل ذاتيًا بلا سبب مفهوم، حينها لربما أنا قمت ودخلت الآلة إياها وعدت إلى اليوم وأوعزت إلى أمي أن غدًا هو يوم مناسب جدًا لمعلبات السردين التي أكرهها بطبيعة الحال..

الكثير جدًا من السوء كان بإمكانه أن يحدث، ولكني لم أتعرض له، بل ولم يخطر على بالي أصلًا..! في كل دقيقة تمر يمكنني أن أتخيل مئات الكوارث الضخم منها والصغير، التي كان (من الممكن) أن تحدث فيها، ولكني سالمٌ منها تمامًا..!

حينها أفرح بأن الله ﷻ قد وضعني في مسار مغاير انتهى بي إلى اللحظة السالمة التي

أعيشها الآن بعيدًا عن كل تلك المصائب المتخيلة.. أفرح بأن الله ﷻ لم يعبأ بتأففي من هذا التقدير أو ذلك، لما علم في علمه السابق أن الخير فيه.. أفرح بأن الله لم يستجب للكثير من دعائي الذي دعوته وأنا على جهل عظيم.. أفرح بأن الله العظيم جعل من نفسه مقدّرًا لأمور حياتي الخاصة..! أنا الإنسان التافه الذي لا يساوي شيئًا..! أفرح بأن الله يختار لي.. أفرح بأن الله لا يختار لي إلا الخير.. أفرح بأنه لم يرضَ بأن يشاركه غيره في ذلك..! أفرح بهذه الآية: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (القصص ٦٨)..!!

لذلك كان يقول أحد الحكماء: " إني أدعو الله في حاجة فإذا أعطاني إياها فرحت مرة وإذا لم يعطني إياها فرحت عشر مرات لأن الأولى اختياري والثانية اختيار الله علام الغيوب"..!!

هذه النعمة التي يُساء فهمها إلى الدرجة التي يتأفف البعض منها..! هذه المنة التي لا نلاحظها إلى درجة الجحود الكامل واعتبارها (قيدًا) و(تحكمًا) زائدًا..! أن تكون أمور حياتنا مقدّرة من علّام الغيوب، ألا تُترك لنا مصائرنا نتحكم فيها بكل هذا الجهل الذي نحمله، والإصرار العنيد على أن نغشى منازل الخطر لأننا كنا نراها (فرصًا) لن تُعوَّض..!

في المقابل فإن الله ﷻ لم يسمح في خلقه بأن تحكمهم العشوائية والعبثية، بل أراد وحكم لنا وعلينا بأن يكون كل شيء على درجة عالية من التقدير.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۞ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾ (القمر ٤٩–٥٠).. فبرغم أن قدرة الله ﷻ كلمح البصر، مما يجعلها في استغناء عن التخطيط المسبق، إلا أن الله ﷻ قد قدّر كل شيء في خلقه من قبل أن يخلقه.. إنها أفعال من اتصف بالحكمة البالغة والحلم الكامل والقداسة التامّة..!



بيْد أن هناك سؤالًا وجوديًا قديمًا كقدم الوجود ذاته، يقول: "ومن الذي يختار أفعالي..؟ هل أنا..؟ إذن الله لا يُقدّر..! أم يختار الله..؟ إذن أنا غير مُلام..!"

هذا السؤال الذي كان عويصًا للدرجة التي جعلت معظم البشر يتحيّرون فيه، وباستثناء أتباع رسالات السماء منهم، نستطيع أن نقول عنهم جميعًا بشجاعة واثقة: لم ينجح فيهم أحد..!

مثلًا أرسطاطاليس —الشهير باسمه الذي اختصروه: أرسطو، وجيد أنهم فعلوا ذلك— قال بأن الله القديم لا بد أن يكون علمه قديمًا ولا يمكن أن يعلم الأشياء الجديدة..! فبالتالي الإنسان هو الذي يقوم بأفعاله باستقلال تام عن العلم الإلهي، لأن هذه الأفعال جديدة كما اتفقنا..

هناك يوناني آخر اسمه (أبيقور) جمع الناس في حديقته الخلفيّة وأسس مدرسته الفلسفيّة الخاصة باجتهاده..! هؤلاء أصبح اسمهم (الأبيقوريّون) واختاروا نفس الفكرة: لا دخل للإله بأفعال الإنسان..

المجوس أيضًا اختاروا نفس المذهب، وجزء من اليهود (الذين كانوا يعظّمون التلمود منهم) وجزء من النصارى (مثل الأرثوذكس على وجه التحديد).. ومن هؤلاء النصارى رجل كان يعيش في دمشق اسمه (يحيى)، وأقنع أحد المسلمين (غيلان) بنفس الفكرة، فأصبح (غيلان الدمشقي) أول من حاول نشر هذا المبدأ وسط المسلمين: الإنسان هو من يستقل بإرادة فعله عن الله ﷻ..!

ولكن كل هؤلاء لم يجيبوا لنا عن التساؤل البسيط الذي قد نطرحه: يعني هناك من الأشياء ما يتم في الكون غصبًا عن الإله..؟!

أم أنه قد سمح بحدوثها..؟ إن كان قد فعل ذلك فهو إذن أراد لها على الأقل أن تتم..!

أليس كذلك..؟!

هؤلاء قد رسبوا إذن بجدارة..!

هذا يدفعنا إلى محاولة استراق النظر إلى الجهة الأخرى.. أولئك الذين أصرّوا على أن الله ﷻ هو الفاعل الحصري الوحيد لكل ما يحدث في الكون، ولأنه لن يسمح بشيء يحدث في كونه رغمًا عنه، فلا بد إذن أن الإنسان يتوهم أنه يختار فعله، بينما هو في الحقيقة دمية من الماريونيت مربوطة حبائلها إلى السماء..!

ربما تاريخ هذه الفكرة قديم، فمنهم مثلًا (زينون الرواقي) اليوناني الذي كان يدعو إلى مدرسة فلسفية مادية تمامًا قبل ميلاد المسيح عليه السلام ببضعة مئات من الأعوام.. هناك كذلك الملاحدة القدماء الذين عاشوا قبل بعثة النبي محمد ﷺ وتحدث عنهم القرآن في آية خلّدت عليهم اسم (الدهريّة) فبرغم أنهم كانوا لا يؤمنون بوجود إله فاعل أصلًا إلا أنهم نسبوا كل أفعال الإنسان لحتميّات الطبيعة والوجود..!

وهناك كذلك العرب في الجاهلية، والجزء المتبقي من اليهود (الذين لا يؤمنون إلا بالتوراة فقط) والجزء المتبقي من النصارى (ومنهم الكاثوليك) والملاحدة الجدد الذين يرون أن الإنسان لا يختار أفعاله حقًا وإنما يرقص على أنغام شفراته الوراثيّة..

المشكلة في أصحاب هذا المبدأ أنهم لن يفهموا أنفسهم في كل مرة يختارون فيها أن يأكلوا شطيرة من الجبن بدلًا من القشدة، أو يصعدوا الدرج بدلًا من النزول، أو يدخلوا المرحاض بدلًا من الموت باحتباس المثانة..!

ما معنى أنهم (اختاروا) أن يفعلوا شيئًا ما..؟! أم أنهم يقنعون أنفسهم أنهم يتوهمون الاختيار في كل مرة بينما هم في الحقيقة يتم التلاعب بهم مثل دُمُى (الأراجوز) من خلف الساتر الخشبي..؟ هل هم يشعرون بفقدان ذاتي للدرجة التي تجعلهم لا يعرفون من الذي

يفكر لهم ويختار لهم أفعالهم الآن..؟!

وإن كانوا كذلك، فكيف يثقون في رأيهم أصلًا..؟! إن هذا يذكرني بكلمة عا لم السلوك البريطاني (بول ماكينا): "يدهشني ذلك الذي يأتي إليّ ويقول أنا إنسان فاقد الثقة بالنفس، وحين أسألهم: هل أنت واثق من ذلك، يقول: بالطبع أنا أثق في هذا تمام الثقة!!"..

الحقيقة أن هؤلاء قد رسبوا بشكل أكثر إحراجًا من الذين كانوا قبلهم..!



بينما القرآن يعرّفنا على الإجابة الوحيدة الصالحة والتي تتوافق مع عقلك في مسألة القدر، والذي هو كما اتفقنا: النعمة التي يُساء فهمها..!

١- حتميّة الإرادة الإلهيّة..

في ملحمة (جلجاميش) السومريّة، يتحدث كاتب الملحمة عن (جلجاميش) الذي كان ثلثي إله وثلث بشر..! مما يجعله في قوة الآلهة إلا أنه يموت وليس بخالد..

لم يحب (جلجاميش) ذلك فذهب إلى رجل من البشر –كان هذا الرجل هو الوحيد هو وزوجته من أُنعِم عليهما بالخلود– كي يعرّفه بسرّ الخلود، فقال له: عليك أن تحبس نفسك عن النوم سبعة أيام..! لم يستطع جلجاميش أن يفعل ذلك وغلبته نفسه ونام، هنا أشفقت عليه زوجة الرجل –الخالدة هي الأخرى– فدلته على عشب تحت الماء عليه أن يأخذه ويتناوله فيعود إليه شبابه فيطول عمره قليلًا.. فعل جلجاميش ذلك ولكنه أجّل تناوله، وبينما هو عائد إلى وطنه قرر أن يستحمّ وترك العشب على ضفة النهر فأخذته أفعى وهربت..! فعاد إلى وطنه بدون العشب ومات بعد عدة أعوام كأي رجل آخر يموت بفشل كلوي أو تليف في الكبد..!

تذكر أن هذا من المفترض أن تُلْثَيْه إله..! وبرغم ذلك قد قهره النوم بهذه البساطة، ناهيك عن أنه كان يحتاج إلى (النظافة)، وفي النهاية استطاعت أفعى أن تخطف منه عشب شبابه أثناء أخذه (شاور)..!

نحن في غنى عن هذا النوع من الآلهة (المهزّأة)..! في المقابل نحن نؤمن بإله حقيقي له صفات تليق بعظمته وبجلاله، ومن هذه الصفات بالتأكيد أن أحدًا لا يجرؤ ولا يقدر على أن (يخطف) منه شيئًا لا يريده في لحظة غفلة —سبحانه عن ذلك— ولا أن (يرغمه) على فعل شيء في لحظة قهر..!

يحدثنا القرآن عن إله له إرادة إلهية حتميّة الحدوث..! كما يقول ﷻ: ﴿**وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**﴾ (الرعد ١١)..

هذه الإرادة التي لا نستطيع أن نمنعها إن قررت أن تصيبنا بشر أو بسوء: ﴿**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**﴾ (الجن ١٠)..

بل لا يستطيع أن يقف أمام هذه الإرادة إرادةُ الأنبياء أو نصحهم، بل هم في ذلك مساكين تمامًا مثلنا.. كما يقول نوح ؑ: ﴿**وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ**﴾ (هود ٣٤)..!

حتميّة الإرادة الإلهية تأتينا جليّة في القرآن الكريم، وتجعلنا ندرك أن أفعال البشر غير منفكّة عن مشيئة الله ﷻ الكونيّة، وأنهم حتى ولو وقع منهم ما هو ضد ما (يريد الله منهم أن يقوموا به)، فسوف يستحيل عليهم أن يقعوا في ضد ما (أراد الله بأن يحدث في النهاية)..!

لذلك يقول موسى ؑ: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ**﴾ (الأعراف ١٥٥).. ويقول الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا**

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة ٢٥٣)..!!

هذه الإرادة التي يتعلق بها حدوث كل شيء من أمر الدنيا أو الدين.. فحتى الإيمان لن يدخل إلى قلب امرئ إلا لو شاء الله ﷻ ذلك..! كما يقول ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩).. حتى لو كان الداعي إلى هذا الإيمان أقوى ما يكون: الحواس أنفسها..! فحتى لو كان الإيمان بهذه السهولة واليسر فلم يكن ليتم إلا بمشيئة الله في النهاية..! كما يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام ١١١)..

هذه الإرادة الحتميّة لحدوث الأشياء لا تعني بالضرورة أن هذا هو ما أحبه الله وأراده أن يحدث..! ولكي نفهم هذا اللغز، دعانا علماء الإسلام إلى فهم وجهيْن ومعنييْن مختلفيْن لكلمة (الإرادة)..!

فهناك الإرادة بمعنى: الشيء الذي يحبه الله أن يحدث، مثل قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء ٢٧).. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٦).. بمعنى أن الله يحب ذلك ويدعوكم إلى ذلك.. هذه سمّاها هؤلاء العلماء باسم: الإرادة الشرعيّة..

وهناك الإرادة بمعنى: ما قضى الله في النهاية بأن يحدث، مثل قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ (آل عمران ١٧٦).. ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ (التوبة ٨٥).. وهذه سمّوها: الإرادة القدرية أو الكونيّة..

على كل حال الأسماء والاصطلاحات لا تعنينا في شيء، ولكن ما يعنينا هو: لماذا هناك نوعان من الإرادة الإلهية إذن..؟!

السبب وراء أن ليس كل ما يريده الله ويحبه، أراده الله أن يقع فعلًا في الوجود.. هو أن الإنسان له إرادة كاملة..! فقد يريد الله منه الإيمان وهو يريد الكفر، قد يريد الله منه التوبة، وهو يريد المعصية..! ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (الأنفال ٦٧)..!!

٢- عن إرادة الإنسان..!

قرأتُ مرة أن أحد الأساتذة أجرى اختبارًا لطلابه وقسّمه حسب الصعوبة إلى ثلاثة نماذج، النموذج الأول الأشد صعوبة، والثاني متوسط، والثالث هو الأسهل.. ثم خيّر طلابه في أن يختاروا النموذج الذي يريدون.. وبعد أن ظهرت النتيجة تبيّن أن كل من اختار النموذج الأصعب حصل على (امتياز) وكل من اختار النموذج المتوسط حصل على (جيد جدًا) وكل من اختار النموذج الأسهل حصل على (مقبول).. فاجأهم الأستاذ أنه لم ينظر إلى حلول أي واحد منهم أصلًا، بل كافأهم حسب اختيارهم، وأن الاختبار لم يكن لمعلوماتهم ولكن لأهدافهم وطموحاتهم..

هذه قصة خيالية في الأغلب من قصص تنمية الذات المبالِغة التي لا أبلعها أبدًا والتي تقنعنا منذ الأزل أن الهدف والطموح هو كل شيء، وأن علينا أن نحلم الأحلام الكبيرة وكل شيء سيكون على ما يُرام..! برغم أن جرم تضخيم تقدير الذات: OverEstimation لا يقل في الضرر أبدًا عن جرم التقليل من هذا التقدير: UnderEstimation..!

بينما أقرب الأمثلة الواقعيّة لهذا الاختبار فعلًا هو اختبار الآخرة..! حيث أخبرنا الله ﷻ أنه اختبار إرادة في المقام الأول..! وأن كل من سيختار اختيارًا سيحصل على مراده، أو بمعنى أصح: على القدر الذي يريده الله ﷻ منه..! كما يقول الله جل جلاله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كُلًّا

﴿نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء ١٨–٢٠).. على أنه ليس اختبار إرادة مجردة من العمل.. فلك أن تلاحظ قول الله ﷻ (وسعى لها سعيها)..! إنها إرادة يتبعها عمل..

منذ اللحظة الأولى لقارئ القرآن يتبين له أن إرادة الإنسان واختياره إنما هما حقيقيّان تمامًا.. فمثلًا يقول الله ﷻ عن أهل الجنة: **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (السجدة ١٧).. أثبت أن قيامهم بالليل يصلون كان عملًا يُنسَب لهم، إذ إنهم اختاروا ذلك من أنفسهم.. وأيضًا يقول الله ﷻ عن أهل النار: **﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** (النمل ٩٠).. فأثبت أنهم هم من اختاروا هذه الأعمال، وهم من تسببوا لأنفسهم في هذا المصير..

هذه الإرادة الإنسانية قد تتعارض مع الإرادة الشرعيّة لله ﷻ كما وضحنا، وحينها يُنفِذُ اللهُ إرادةَ الإنسان..! هذه من خصائص المكلّفين الذين ميّزهم الله ﷻ بحرية الاختيار إلى هذا الحد..! بينما الملائكة مثلًا وهم أكمل في الخلقة منّا وأقوى وأجمل، لم يحصلوا على هذه الخصيصة، فقال الله ﷻ: **﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** (التحريم ٦)..!

وهذه الخصيصة ليست نعمة أو نقمة في حد ذاتها، وإنما هي ابتلاء، قد تؤدي بك إلى أعلى عليين (حين توافق بإرادتك الإنسانية إرادة الله الشرعيّة)، أو إلى أسفل سافلين (حين تخالف بإرادتك الإنسانية إرادة الله الشرعيّة)..

ولكن هذه الإرادة الإنسانية لا تنفك بأي حال عن إرادة الله الكونية القدرية..! فلا يمكن أن تشاء شيئًا كائنًا ما كان إلا وكانت مشيئة الله ﷻ له أسبق..! كما يقول الله ﷻ: **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۞ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** (التكوير ٢٧–٢٩)..

لأنه كما اتفقنا: من ذا الذي يقدر على أن يُرغم الله على شيء لا يريده..؟!

معنى وقوع شيء في ملكوت الله أن هذا لم يكن خارج المكتوب، لم يكن خارج المشيئة الإلهية، كان مأذونًا به، كان قدرًا..!

٣- على مواقع القدر..!

في أوائل السبعينيات قتل (هربرت مولين) ثلاثة عشر إنسانًا في كاليفورنيا.. حين تم القبض عليه لم ينكر أيًا من جرائمه، ولكنه ادّعى أن على الشعب الأمريكي أن يشكره على فعلته..! والسبب وراء ذلك يرجع إلى اعتقاد مولين أن خسائر الأمريكيين من حرب فيتنام كانت المانع الوحيد الذي يمنع زلزالًا مدمرًا سيبتلع كاليفورنيا ويلقي بها إلى المحيط، ولما هدأت الحرب وقلت الخسائر البشرية أمره الله أن يزيد من عدد (الضحايا) البشرية حتى يمنع هذا الزلزال..!

هذا نوع من القتلة المتسلسلين المعروفين في الغرب باسم (Visionary Serial Killers) أي القتلة الذي دافع قتلهم هو الرؤى والهلاوس، أغلب هؤلاء يعتقدون أنهم ينفذون ما يأمرهم به الرب في هذا القتل..! وهذا شبيه بنوع آخر هو: (Missionay Serial Killers) وهم الذين يعتقدون أنهم يقومون بـ (مهمة الرب) فيخلصون المجتمع من بعض العناصر فيه حتى يرضى عنهم الإله..!

هؤلاء وأولئك ينفذون رغبات الرب فيما يبدو لهم، ولكن هذا لم يمنع السلطات الحاكمة من معاقبتهم تمامًا كما لو كانوا ينفذون رغبات الشيطان، لا يعنينا ما يقولون، فنحن نعلم أن الله لم يتكلم إليهم فعلًا، وكونهم لا يريدون تحمل مسؤوليّة أفعالهم فهذا لا يعفيهم من النتيجة..

ربما هذا النوع من القتلة المتسلسلين يمثلون صورة شديدة التطرف لمن يلقي باللوم على الإله في كل ما يفعل من مظالم وآثام.. لكن هذا لا يعني أنه لا توجد صور أقل تطرفًا من ذلك التصرّف المدلّل..!

فالقرآن يحدثنا عن أن إبليس حين عصى الله بكل تجبّر وتكبّر وبرود، ألقى باللوم على رب العزة في ذلك..! كما يقول: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (الحجر ٣٩)..

ولأن هذه هي الطريقة التي يفكر بها الشيطان، فإنه من الطبيعي أن يعلّمها لكل من يوسوس في آذانهم ويثرثر على مآدب الشهوات والعصيان، لذلك كان القرآن على علم بأن هذا الفعل سيصدر من أولاد آدم من قبل أن يقوموا به..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا**﴾ (الأنعام ١٤٨)..

ثم عاد القرآن لتذكيرنا بذلك بعد أن صدر ذلك الفعل منهم بالفعل..! ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ (النحل ٣٥)..!

لا يحق لإبليس ولا للإنسان أن يقوموا بذلك، لأن الإرادة التي أعطاها الله لهم إرادة كاملة غير منقوصة، والدليل على ذلك أنهم اختاروا هذا الفعل طواعيةً، ثم لما اختاروه نسبوه لله، من أدراهم إذن أن الله لم يكن ليريد لهم الطاعة..؟ هل اطلعوا على علمه..؟ لذلك يقول الله تعالى في الرد عليهم: ﴿**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾ (الأنعام ١٤٨).. لماذا لم تختاروا أن تقوموا بالطاعة ثم تقولون أن هذا هو قدرنا الذي أراده الله..؟!

لذلك قال النبي ﷺ –في الحديث الذي رواه عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذكره البخاري

في صحيحه- "ما منكم من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار، وإلا كُتِبَ شقية أم سعيدة" فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال ﷺ: "أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فيُيَسَّرون إلى عمل أهل الشقاء".. ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ**﴾ (الليل ٥-١٠)..!

الإجابة القرآنية هذه المرة أتتنا من المعلّم القرآني الأول، النبي محمد ﷺ، حيث نبّهنا إلى أن هذه الآيات قد أعطتك الإرادة الكاملة التي تجعل التيسير أو التعسير من الله ﷻ (نتيجة) على (مقدمة) أنت فاعلها، وهو العمل الذي تقدمه، فمن اختار أن يقوم بالعمل الصالح فالله ﷻ ييسره له، ومن اختار غير ذلك الله ﷻ ييسره له، حتى يسير الناس في النهاية إلى أقدارهم التي رسمها الله ﷻ، ولكنهم مع ذلك يسيرون إليها طواعيةً من دون أن يجبرهم أحد..!

ولكن كيف ذلك..؟

كيف أن الله قد اختار لهم سلفًا مصيرًا هم سائرون إليه.. ثم مع ذلك هم اختاروا بإرادتهم الحرة هذا المصير..؟!

كيف لم يحدث ولو مرة واحدة، ولو على سبيل الخطأ، ولو على سبيل الاستثناء، أن يكون اختيارهم (الحر) خارجًا عن اختيار الله..؟؟!

الإجابة: لا أدري، وأنت أيضًا لا تدري، وكل البشر لا يدري..!

كي تفهم أكثر فإني أدعوك للانتقال إلى الفقرة التالية..!

٤- السرّ..!

تساءل الروائي الأسترالي (جارث نيكس) في روايته (سابرييل): "هل الماشي هو من يختار الطريق، أم الطريق هو من يختار الماشي..؟!"، وتساءل الروائي الأمريكي (نيكولاس سباركس) في روايته (مِشية للذكرى): "هل سألت نفسك يومًا لماذا كان يجب على الأشياء أن تصير إلى ما هي عليه..؟!"، وهو شبيه بسؤال مواطنه الأمريكي الآخر (جيم بوتشر) في روايته (الليل الأبيض): "ما هي فائدة أن أملك خيارًا حرًا طالما لا يستطيع المرء أن يخطو ولو مرة واحدة فوق قدره..؟!"..!!

هذه الحيرة نجد أضعافها وسط الفلاسفة والمفكرين، حيث اعتبر الفيلسوف الفرنسي (رينوفيي) أن كيفية التوفيق بين (الحرية) و(الحتمية) هي الإشكالية الفلسفية الأولى عبر التاريخ..! ويرى الفيلسوف الفرنسي الآخر (فولتير) أن هذه القضية تتجاوز طاقة العقل لذلك هي غير ممكنة الفهم والإدراك.. وقال الفيسلوف الأسكتلندي الشهير (ديفيد هيوم) أن مشكلة الحرية والضرورة تبين بوضوح حدود العقل وعجزه عن النفاذ إلى بعض الأمور..! وأما الفرنسي (لافيل) فقد قال أن إشكاليّة الحرية هي حتف النظر العقلي..! بينما شكّلت مسألة القدر المحور الرئيسي الذي تدور حوله فلسفة كل من (بوهم) و(جرسونيد) و(لوكيي)..!

الفلاسفة الميتافيزيقيّون بشكل عام (هؤلاء الذين يهتمون بالبحث في ماهيّة الأشياء وعلل الوجود إلى آخر هذه الأشياء) توصلوا في النهاية إلى الكلمة التي أقرّها عليهم أستاذ الفلسفة المصري (زكريا إبراهيم) حين قال: "الأصل في الحرية هو سرّ هيهات لنا أن نزيح النقاب عنه"..!

هذا السرّ هو ما عناه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه حين قال في كلمته الخالدة التي جعلتها آخرًا لأنها أفخرهم بلا منازع: "القدر سرّ الله ﷻ في خلقه فلا

نكشفه"..! أي لا تحاول أن تميط اللثام عن هذا السر فهو لن ينكشف أبدًا، ليس لك، وليس لي، وليس لهؤلاء الأدباء، وليس لأولئك الفلاسفة، وليس لأي أحد..!

مسألة القدر عسيرة على الفهم البشري بشكل عام، وعلى اختلاف ثقافات أو ديانات هذا العقل البشري..! لذلك فإن القرآن ينبهنا إلى إدراك هذا العُسر حين يقول الله ﷻ: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾** (الحديد ٢٢)..

إن القرآن يعلم أنه من العسير علينا أن ندرك كيف أن كل مصيبة صغيرة أو كبيرة حدثت على وجه الأرض أو سوف تحدث إنما هي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله هذه الدنيا بأسرها..! لذلك تؤكد الآية علينا أن ذلك الأمر الذي نستصعب فهمه إلى هذا الحد إنما هو على الله ﷻ يسير..!

في مسألة القدر، فإننا نكون أحوج ما نكون إلى ما يجيبنا به القرآن حين يحدثنا: **﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾** (الإسراء ٨٥)..! فإجابات القرآن تروي ظمأنا للمعرفة، لكننا مع ذلك نعلم أننا محدودون في هذه المعرفة..!

نستطيع أن نفهم الكثير من الأشياء ولكن سنصل إلى نقطة معينة ونقول بعدها: لا ندري، كلنا لا يدري..!

والشرّ ليس إليه

(عن سؤال وجود الشرور والآلام في الدنيا)

قرأتُ مرة أن أحد الرؤساء الأمريكيين قام بدعوة مجموعة من الريفيين للطعام في البيت الأبيض، فتناول فنجان اللبن وسكب بعضًا منه على الطبق.. ظنوا أن هذا (بروتوكولًا) غامضًا لا يعرفونه أو قاعدة من قواعد (أتيكيت) الطعام غابت عنهم.. وعلى الفور أخذ بعضهم في تقليده وسكب اللبن من الفنجان إلى الصحن تمهيدًا لأن يشربوه بهذه الطريقة، قبل أن يفاجئهم الرئيس ويضع الصحن على الأرض لتشرب منه قطته..!

مشكلة التقليد —وخصوصًا حين يندمج معه الانبهار— أنه يجعل المقلِّد لا يفطن لاختلاف ظروفه وأحواله عن المقلَّد.. خذ عندك مثلًا على ذلك أعياد (الهالوين) في بلادنا الشرقية..! الهالوين في الأصل خرافة وثنيّة من بقايا ثقافة (السلتيك) من قبل ولادة المسيح ؏، والتي تتحدث عن يوم يخرج فيه الموتى من باطن الأرض برعاية الإله (سامهاين) ليسيروا وسط الأحياء، ومن ثمّ كان السلتيك يلبسون أقنعة تجعلهم يبدون كالموتى حتى لا يقوم الموتى الحقيقيون الخارجون من الأرض بأذيّتهم.. ومع انتشار النصرانية في القارة الأوروبية في العهد القسطنطيني صارت الأعياد الوثنية التي ارتبط بها الناس شعوريًّا: أعيادًا نصرانيّة دينية..! وهكذا صار عيد الموتى هو عيد كل القديسين الذين يلبسون فيه أقنعة مرعبة، ويشوّهون ثمرات اليقطين، ويقلّدون ما كان يقوم به أسلافهم الوثنيّون..

لذلك فهو أمر شديد السخرية أن نقوم بالاحتفال بهذا العيد في بلادنا الشرقية التي لم يكن فيها السلتك ولا سامهاين..! مثل الاحتفال بـ (الكريسماس) الذي هو في الأصل مجاراة لعيد آخر لوثنيين كانوا يحتفلون بميلاد ابن الشمس في الخامس والعشرين من ديسمبر، فلما انتشرت النصرانية أخذت هذا اليوم منهم كالعادة، بينما قد وُلِدَ المسيح فعلًا في الصيف أصلًا على حسب أقوى التتبّعات التاريخية الممكنة..!

ولو أردت أن تأخذ مثالًا أكثر عمقًا على مسألة التقليد هذه، فلدينا مثال استشكال وجود الشر في العالم، واعتبار هذه المشكلة عائقًا حقيقيًا أمام التسليم بوجود إله خالق

ومسيطر على الكون..!

وبرغم أن مشكلة وجود الشر والعذاب يرجع تاريخها إلى ما قبل المسيح عليه السلام نفسه، ربما إلى (أبيقور) الذي زعم أن هناك مشكلة منطقيّة في الاعتقاد بأن يكون الإله مطلق الخيريّة ومطلق القدرة وبرغم ذلك لا (يريد) أو لا (يقدر) على منع الشرور..

برغم ذلك فإن مشكلة الشرّ في الأساس تمثل استشكالًا رئيسيًا للعقل الغربي النصراني في الأصل الذي يؤمن أن الإله قد قرر التضحية بابنه الخاص من أجل أن يفدي خطايا البشر، وقام هذا الإله ابن الإله بالصراخ ألمًا على خشبة الصلب من أجل البشر الذين هم أبناء الرب وأحبابه بذواتهم.. وتظهر لك الأفلام الأمريكية قصص الرعب المتمثلة في الشيطان (ساتان) الذي لا يهدف إلى (إغواء) البشر –كما يؤمن المسلمون– ولكن إلى (قتلهم)..!

يعني لديك إله يضحي بنفسه من أجل إسعاد الإنسان، ولديك شيطان يسعى إلى أذيّتهم.. في النهاية، فإن هذا العقل الغربي سوف يستشكل وبشدة أن يرى الدنيا محتوية على آلام وشرور وعذابات وفقر ومجاعات وأوبئة وحروب وفساد وبراكين وزلازل وبكاء واغتصاب وقتل.. سوف يتساءل حينها: "أين الإله الرحيم إذن..؟ كيف له بأن يسمح بهذا..؟!"

نحن نتعامل إذن مع مشكلة مستوردة..! وقضيّة يتم التقليد فيها دون أن نفطن إلى أن وضع المسلمين وخلفيتهم الثقافية على اختلاف كبير مع هذه العقليّة..! هذه الخلفيّة التي تحتوي على قول الله جل جلاله: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (المائدة ١٨).. من الذي ادّعى في الإسلام أننا أبناء الله أو أحباؤه بذواتنا..؟؟ لو كان هذا صحيحًا لكان من الغريب حقًا أن يعذبنا الله في الدنيا أو الآخرة بذنوبنا..! ولكن الحقيقة أننا مجرد بشرٌ ممن خلق..

في المقابل فإن الله ﷻ يدعونا إلى النظر إلى مصائب الدنيا على أنها (مأذونٌ) فيها من الله الذي كان يقدر على منعها لو شاء.. وأن هذه المصائب ليست منفكة عن علم الله ﷻ ولا حكمته.. وأنها ستكون شديدة على النفس وتحتاج إلى هداية من الله لقلب المتعرض لها..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (التغابن ١١)..!

لذلك، وكما اعتدنا، فإننا نعلم أننا سوف نجد الإجابة عن سؤال الشرّ كأوفى ما يكون، في هذا القرآن الحكيم..

١- عن الدنيا التي لا تستحق..!

يحكون أن ملكًا كان سمينًا بشدة، فجمع بعض الحكماء يسألهم مساعدته في إنقاص وزنه، فقال له مُنجّم أنا آتيك بالحل غدًا بعد أن أنظر في طالعك، فجاءه وقال له أنه وجد للأسف أن جلالته سيموت بعد شهر، وقال لو لم تصدقني احبسني عندك شهرًا فإن كذب الخبر اقتلني، فحبسه الملك وانتظر الموت في كآبة وانعزال حتى هَزُلَ وزالت سمنته، فبعد أن مر الشهر ولم يمت استدعى المنجم فأخبره أنه لا يعلم الغيب وإنما وجد أنه لا شيء إلا الهمّ يحرق الشحم.. فكافأه الملك، ورقص المنجّم، وغرّدت العصافير..!

لما قرأت هذه القصة وجدتها سخيفة للغاية، من أدرى هذا المنجم أن الملك كان ممن يصاب بفقدان الشهيّة مع الاكتئاب..؟! لربما كان العكس تمامًا هو الصحيح، فالاكتئاب يتميز باضطراب في الشهية إما بزيادتها أو بنقصها.. فلربما كان هذا الملك من الذين اعتادوا قضاء اكتئابهم داخل برميل من الـ Nutella..! حينها كان سيخرج له بعد شهر ليفاجئه بخطته العبقريّة فيجده قد تضاعف ميتوزيًّا، لا بد أن الملك حينها كان سيجلس عليه حتى الموت انتقامًا.. ثم من هذا الملك العبقري الذي أراد الاستعانة بمنجم لعلاجه من السمنة..؟!

أريد أن أفهم وجهة نظره في هذه النقطة..!

وهكذا تجد أني لم أقف في القصة إلا على ثغراتها المنطقيّة وغبتُ بالكامل عن العبرة المختبئة بداخلها وهي تقريبًا: (احزن كثيرًا كي تفقد وزنك) أو شي من هذا القبيل..! نفس ما حدث معي حين سمعت من يحكي عن ذلك الذي ماتت أمه فأخذ يبكيها في جنازتها فقال له رجل: لماذا تبكي؟ قال: كيف لا أبكي وقد أغلق عليّ اليوم بابٌ إلى الجنة.. تجد نفسك قد انصرفت تمامًا عن العبرة الجميلة في القصة إلى التفكير في ذلك الأبله الذي وجد رجلًا يبكي في جنازة أمه فقرر أن يسأله عن السبب..!

تبسيط مُخِلّ أدى إلى ثغرات منطقيّة زاعقة، فصار من العسير أن تُؤخذ بالجدية المطلوبة..! هذه سمة مميّزة في قصص الأطفال على كل حال، فالمفترض أن تجد قمة الرومانسيّة في جميلة رضيت بالزواج من وحش لأن لديه قصرًا به ألف غرفة.. هذه رومانسيّة مصريّة جدًا..! وفي مكان آخر من العالم هناك أمير قد قرر أن أفضل وسيلة في التاريخ للبحث عن فتاة قابلها في حفل، هو مقاس قدميها..!

بينما القصص الجيدة فعلًا المصنوعة للكبار تحوي كمية لا بأس بها من الواقعيّة والبؤس والميلودراميّة والتشابك والتعقيد، ببساطة لأن هذه طبيعة الحياة أصلًا..! لا بد أنك لاحظت أنك لستَ مدللًا تمامًا في هذه الدنيا، وأن النهايات الدراميّة السعيدة متوفرة بكميّات مُرضية في أحلام اليقظة فقط..

هناك بعض الإحصائيات تقول أن الناس لا يصدقون أنهم يقعون تحت الإحصائيات..! أننا جميعًا نصدق أن الأشياء السيئة تحدث وبكثرة، ولكن للآخرين فقط.. وأنه كما يقول الدكتور أحمد خالد توفيق لو قال القائد لجنوده قبل المعركة: أتوقع ألا ينجو ٩٠% منكم.. لنظر كل واحد منهم إلى زملائه وقال في نفسه: سوف يُؤلمني فقد الرفاق..!

ونتيجة لهذا التبسيط المخِل في نظرنا إلى الواقع، نقع بسهولة في قول الله تعالى: ﴿لَا

يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت ٤٩).. تكون صدمتنا أكبر حين نصاب بما لا بد أن نصاب به، لأننا ظننّا أن قصة حياتنا هي حكاية أخرى من والت ديزني.. بينما في الواقع الحياة الخالية من المنغّصات، هي في الجنة فقط.. نتعلم هذا حين نكبر في السن، وبالطريقة الصعبة غالبًا..!



أنت مثلًا كطبيب تعيش أزمة متكررة ومملة في كل مرة تضطر فيها إلى الكشف على طفل صغير لما يراك قادمًا نحوه بمعطفك الأبيض وعلى وجهك ابتسامة شنيعة.. وبالرغم من أنك لا تحمل في يدك إلا كشاف ضوء صغير أو سماعة بريئة تؤلم أذنك أنت أكثر بكثير مما ستؤلمه، إلا أنه يبدأ في صراخ حاد متواصل وينظر لك بهلع حقيقي لا يتأثر بابتسامتك الشنيعة السابق ذكرها.. كل ذلك بسبب أن أم هذا الطفل ككل أمهات الأطفال في الواقع قد اعتادت على أن تقول له في كل مرة يرفض فيها أن يأكل القرنبيط المسلوق الذي تعده: "سأحضر لك الطبيب كي يعطيك الحقنة"..

إذن حضرتك أم كسولة قد قررتْ ألا تُحسّن من درجة طهيها للقرنبيط، ثم قررت ألا تتعلم أساليب تربوية جديدة أفضل من (الأكلاشيه) المحفوظ إياه..!

أنت سمحت لهم يا صغيري أن يقنعوك أنني أكبر خطر يهددك في الحياة، وظننت أنك ستكون آمنًا طالما ابتعدت عن كل طبيب وعن كل حقنة، لكنك ساذج جدًا.. ماذا عن المغتصبين والسفاحين واللصوص والسايكوباثيين الذين يستمتعون بضربك دون سبب..؟! ماذا عن أبلة (لواحظ) مدرسة الرياضيات التي ستلاحقك بـ (خرزانة أسوانيّة) لأنك لم تجلد الكشكول بالجلاد الطحيني..؟! ماذا عن دراجتك الجديدة التي ستُسرق من أمام منزلك، فيُعوّضك أبواك بدراجة أجدد، فقط لتُسرَق من أمام مدرستك..؟!

أبواك لطيفان يا صغيري فأخفيا عنك حقائق هذه الحياة.. قررا أن يقنعاك أن العالم

مكان آمن لا داعي للخوف منه.. لقد فعلا ذلك فقط لأنهما مرعوبان بالفعل من كل شيء..! أنت تحسب أن الصغار هم من يخافون ولا تعلم شيئًا عن خوف الكبار..! مشاعر الخوف الحقيقية لم تختبرها بعد، ولكنك ستفعل..

حين تكبر سوف تتعلم الخوف من شرطي المرور بدفتره الصغير.. سوف تتعلم أن تشعر بضربات قلبك حين تراقب أسعار السلع التي اشتريتها في يوم قبضك لراتبك الهزيل.. سوف تتعلم الفزع مع رقم ٤٢ الذي سيظهر على (الترمومتر) الخارج من حلق طفلك الصغير حين يصاب بالتهاب حَلْقِي صديدي في الثانية صباحًا..

نحن الكبار نخاف جدًا يا صغيري، نخاف طوال الوقت.. الخوف المزمن هو معنى الحياة بالنسبة لنا، وتعريف (اليوم) هو مشقة وعناء القلق من الغد.. وما منا إلا وهو كذلك، ولكن يذهبه الله بالتوكل..

هذا الخوف هام جدًا، بدونه كنا سنصبح جميعًا فراعنة.. أنت ترى كل هذا الجبروت في وجوه الناس، كل هذا الكبر، كل هذا الغرور.. تخيل أن كلهم يخافون مهما بلغت قوتهم وغناهم..! التايكون صاحب المليارات يكاد يجن من الهلع وهو يراقب حركة أسهم شركاته في البورصة، ورئيس أقوى الدول يموت من القلق على ابنه وإدمانه للمخدرات..!

تخيل لو كان الله قد خلقنا في بيئة آمنة كيف كان ليكون تجبرهم وعنادهم..؟! كيف كانت لتكون الحياة مع مجموعة من البشر دون أن تنكسر..؟! كنا سنأكل بعضنا البعض يا صغيري.. إننا الآن سيئون، وبدون الخوف كنا لنصبح أسوأ بما لا يقاس..!

هذه المكابدة التي تصيب كل أحد هي رحمة من الله علينا..! الخوف والقلق والمشقة والعناء والتعب، كل هذه أدوية يا حبيبي، يعالجنا الله بها حتى نتعلم أن البكتريا تقدر علينا، والفقر يقدر علينا، والبرد يقدر علينا، والألم النفسي يقدر علينا، وظلم البشر يقدر علينا.. جميع نوائب الدهر تقدر علينا.. يعلمنا الله ذلك حتى لا ننسى ولو للحظة واحدة، أن خالق

كل شيء ومدبر كل شيء بالفعل يقدر علينا..!

هذا يا صغيري ما أخبرنا به الله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۞ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾ (البلد ٤–٥)..؟!



منذ اللحظة الأولى التي نحاول التعرّف فيها على إجابة القرآن عن وجود الشرور في العالم، فإننا نلاحظ نظرة القرآن إلى الدنيا على أنها دار (ابتلاء) و(مِحَن) وليست دار (رفاهية) أو (دلال)..!

الإنسان مخلوق في هذه المكابدة، وهو الأمر الوحيد الذي كان يصلح لطبيعة الدنيا واختبارها، والأمر الوحيد الذي كان يصلح لطبيعة الإنسان المليء بالتجبّر والتكبّر، والأمر الوحيد الذي كان يصلح لطبيعة العقوبة التي ابتُليَ بها آدم عليه السلام لما خرج من الجنة..!

حينها لا نتعجب أن نكون في دار فيها جوع وظمأ وآلام حرّ الشمس وقت الضحى وآلام البرد في العراء.. لا نتعجب من ذلك لأننا نعلم أننا سبق وقد نزلنا من المكان الوحيد الذي لم تكن موجودة فيه هذه الآلام، كما يخبرنا القرآن بقول الله جل جلاله لآدم عليه السلام عن الجنة التي كان يحيا فيها: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۞ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾ (طه ١١٧–١١٩)..

لذلك –ومن قبل ذلك– لم يدّعِ القرآن أبدًا أن نعيم الدنيا هي هدفنا، أو أكبر همنا، أو غاية وجودنا، أو أنها تستحق أصلًا اهتمامنا..! في المقابل فإن القرآن دائم التذكير لنا بأن هذه الحياة الدنيا إنما هي متاع قليل القيمة قصير العمر رخيص الثمن، وأن الآخرة هي المستحق الحقيقي لأحلامك بالنعيم والرفاهية..! كما يقول الله جل جلاله: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (العنكبوت ٦٤)..

وأن استشكال الناس للتفاوت في تقسيم الأرزاق إنما كان بسبب نظرة معظّمة إلى هذه الدنيا بدون أن تستحقها إطلاقًا..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ**﴾ (الرعد ٢٦)..



هذه النظرة للدنيا، على أنها دار مكابدة وابتلاء في الأساس، وعلى أنها لا تستحق أن تكون هي الغاية المرادة منك، تتفق مع (الآلام) التي قد يأمرك الله ﷻ بارتكابها في حق نفسك بنفسك..! لا يكون أمرًا عجيبًا أن ترتكب في نفسك بعض الألم والحرمان لو كانت الدنيا عندك بهذه القيمة الهيّنة التي يصر القرآن على تمريرها إلى ذهنك، كما يقول الله ﷻ: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا**﴾ (النساء ٧٧)..



لذلك لا يستشكل المؤمن بالقرآن مسألة الحدود فعلًا، حيث يرى فيها عذابًا دنيويًا يخفّف من عذاب الآخرة..! لو كنت غير مؤمن بالآخرة، لكان من الطبيعي أن تأخذك الرأفة بمن يُطبّق عليه الحد.. أما لو نظرت إلى كل من الدنيا والآخرة النظرة الحقيقية التي يستحقها كل منهما لكان يسيرًا عليك فهم هذه الآية: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ (النور ٢)..!

في أولى إجابات القرآن عن سؤال الشرّ إذن ينبهنا إلى ضرورة أن نصحح المفهوم الخاطئ لدينا، بأن الله خلقنا في الدنيا من أجل أن يرفه عنا ويدللنا..! بل نحن مخلوقون لنُختَبر في دارٍ قد أُعدّت بشكل يناسب جدًا هذا الاختبار..!

٢- عن النِعَم التي هي أكثر..!

هل تعرف تلك الإصابات اليومية الصغيرة التي لا تكاد تخطئ أحدًا منا..؟

تلك القُرَح الفَمَوية البيضاء الأليمة التي تفاجئك بدون أن تتوقع في يوم ما حين تستيقظ من نومك مثلًا.. في هذه القرح تصبح الأعصاب الناقلة للألم مكشوفة أمام حركات لسانك العابثة.. فلا تستطيع أن تأكل أو أن تتكلم حتى..! كل هذا بسبب نقص بعض الخلايا الطلائية (Epithelium) في مكان القرحة ذي البضعة ملليمترات.. بينما يغطي الـ Epithelium جميع أنسجة جسدك، دون أن تتذكر على الإطلاق أن تشكر الله على هذه النعمة..!

ماذا عن الشد العضلي الذي يصيب عضلة قدمك بعد مباراة حماسية من كرة القدم..؟ الألم المبرح الذي لا يعطيك الفرصة للكلام أو الشكوى، فقط تعض على أسنانك وتنتظر حتى ينتهي.. كل هذا الألم بسبب نقص بعض عملات الطاقة (ATP) في عضلتك عن مقدار حاجتها له، مما أدى إلى أن تدخل خلايا عضلتك في التنفس اللاهوائي وتنتج حمض اللاكتيك المؤلم.. فهل خطر على بالك حين تعد نعم الله عليك أن تضع في عين الاعتبار مليارات جزيئات الـ ATP التي تمرح في كل مكان من جسدك..؟!

وحين تصاب ببعض الاكتئاب وتتمنى أن لو كنت في عداد الأموات، ويفتت الكرب فؤادك، دون أن يكون هناك سبب واضح لهذا الحزن..! فتذكر أن كل هذا بفعل نقص بعض الدوبامين، الناقل العصبي الذي يمرح في الوضع الطبيعي بين نوايا مخّك القاعديّة، والذي يسبب نقصه كل هذا الاكتئاب والحزن، والذي لم نتذكره أيضًا من ضمن النعم التي أحببنا أن نحمد الله عليها..!

لذلك يعرف علماء الطب أن العضو الذي لا تشعر به هو على الأرجح سليم، والعضو الذي تشعر بوجوده في جسدك يعني على الأرجح أن فيه عطبًا ما..!

والسؤال هنا: لماذا لا نتذكر النعمة إلا بعد فقدها..؟! لماذا لا نشعر بالامتنان لذلك الشيء الصغير الذي نملكه في كل حين إلا بعد أن نشعر بألم فقده..؟! لماذا نحتاج دائمًا إلى تلك التذكيرات اليومية، وهذه الدروس اليسيرة حتى نفطن إلى معنى قول الله ﷻ: ﴿**وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ**﴾ (فصلت ٥١)..؟! لماذا نعرض عند النعم وننسى، ثم عندما يصيبنا الشرّ نعوي بكل هذا البكاء، ونتذمّر بكل هذه الشكوى، ونلجأ لكل هذا الدعاء العريض..؟!



ولكن هذا ليس كل شيء، فهناك أيضًا الأعراض الفيسيولوجية التي نُصاب بها من آن لآخر في حالات غير مرضية فتذكرنا بهذه النعم..!

مثلًا، هل جرّبت أيام اختبارات الجامعة أو أيام العمل المضغوطة حين كنت تضطر إلى شرب عدة أكواب من القهوة..؟ وسواء كانت قهوة أمريكية مائعة أو قهوة عربيّة بطعم الهيل الرائع أو قهوة تركيّة ثقيلة ذات رائحة زكيّة وقوام سميك، ففي كل الأحيان أنت تعلم أن الإكثار منها سيؤدي بك إلى الإكثار من زيارة الحمام..! إنه تأثير القهوة المدرّ للبول (Polyurea) وهي تأثيرات مزعجة دائمًا.. ولكن هذا يجعلك تتساءل عن كُنه النشاطات اليومية غير المحببة للنفس التي يبذلها مكرهًا مريض السكر أو بشكل أشد مريض السكر الكاذب (Diabetes insipidus) والذي قد يصل به الحال إلى إفراغ عشرين لترًا من البول يوميًا..!

المحاولات المثيرة للشفقة التي تقوم بها بالسيارة عندما تكتشف فجأة أنه يوجد مطب وقح لم تره من قبل على بعد عدة أمتار بينما أنت تسير على سرعة ٩٠..! تتذكر حينها معاناة المصابين بقِصَر النظر (Myopia) حين لا يستطيعون رؤية الموجودات البعيدة، والذين قد يتعرضون لمثل هذا الموقف عدة مرات يوميًا حتى لو كانوا يسيرون على الأقدام..!

عندما تستيقظ من نومك من الاختناق والحاجة للهواء لأن الغطاء الذي كان عليك التفّ أثناء نومك حول رقبتك بالخطأ فحرمك من الهواء، تتذكّر حينها المصابين بالتهاب الجيوب الأنفية أو ضيق الشعب الهوائيّة، كثيرًا ما يستيقظون من نومهم بحثًا عن الهواء..!

هذه الأمثلة التي حكيتها تقع في نطاق يسمّى (الأعراض الفيسيولوجية)، وتعني هي الأعراض التي تشبه الأعراض المرضيّة في صورتها ولكنها تقع لأسباب طبيعية تمامًا..

أتخيل أن الله ﷻ من حكمته في خلق هذه الأعراض الفيسيولوجية أن يذيقنا جزءًا من المعاناة التي عند غيرنا، ولو مرة، ولو بشكل مخفف للغاية، ولو على سبيل التذكرة وليس الابتلاء.. يذيقنا ما يشعر به هذا وذاك من الذين حرموا شيئًا بسيطًا جدًا أنت تتمتع به ولا تدري لكم هو عزيز حقًا..!

إن الأعراض الفيسيولجية تخبرنا بقاعدة يسيرة تتمثل في أن كل لحظة تمر عليك في عافية لهي هدية ثمينة قد عرفت أنت الآن قيمتها، وأنها محض فضل من الله ﷻ، الذي قد يلحقك بهؤلاء الذين منها قد حُرِموا..! قاعدة قد نصّت عليها الآية: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ (النحل ٥٣)..

إذن نحن أمام نظام متكامل من النعم التي نحن غارقون فيها ولا ندري، في الواقع نحن نفطن إلى هذه النعم فقط حين نُحرم منها.. حينها نتساءل عن رحمة الله ﷻ في أن يحرمنا من هذه النعمة أو تلك، دون أن نفطن إلى كم النعم الأخرى التي نحن غارقون فيها دون أن نعيرها انتباهًا.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ**﴾ (هود ٩)..



لكننا قد نقول: نحن منعّمون نعم، ولكن ماذا عن هذا المبتَلى أو ذاك..؟ ماذا عن

مريض السكر وقِصَر النظر وضيق الشعب الهوائية..؟ أين النعم التي هم فيها..؟

الحقيقة أن هذا سؤال ساذج يفترض أن هذه الأمثلة الصغيرة المذكورة هي كل النعم في العالم، بينما الحقيقة أن نطاق النعم أكبر بكثير من هذا، وأن الأرزاق مقسّمة على الناس، بحيث لا يكسب أحد كل شيء، ولا يخسر أحد كل شيء..!

فكلٌ منا مثلًا لديه أمنية ما يضعها نصب عينيه.. يظن أن حياته ستتغير تمامًا فقط لو أنه استطاع أن يحوز على هذه الأمنية أو تلك.. ينظر لزميله الذي عنده ما يرغب فيه.. ويتساءل ترى هل هو يقدر النعمة التي هو فيها..؟؟ ألا يعلم أنه مستعد لفعل المستحيل في سبيل ما هو عنده..؟!

وهناك آخرون ينظرون لك قائلين في أنفسهم نفس الكلام.. هناك حتمًا من يتمنى من سويداء قلبه شيئًا لربما أنت تملكه ولا تدري كم هو نفيس إلى هذا الحد ..!

ماذا عن الألبينو (عدوّ الشمس) ذو البشرة باهقة البياض والذي يتمنى أن يحصل منك على بعض الخلايا الصبغيّة (Melanocytes)..؟؟ هناك من يتمنى أن يكون شريانه التاجي أوسع.. أو أن تكون الأجسام المضادة (Antibodies) لديه أقل عنفًا فيحميه من أوجاع النقرس الذي لا يريد أن يترك أصبع رجله الأكبر في حاله أبدًا..! وهناك من يحقن نفسه بإنسولين الخنازير كل صباح متسائلًا كيف كانت لتكون الحياة لو كان عنده إنسولين طبيعي مثلنا..؟! كانت لتكون أسهل بالتأكيد ..!

كلٌ منا لديه أمنية ما.. ولا يعلم أنه قد حصل بالفعل على آلاف الأمنيات.. فقط، كانت هذه أمنيات الآخرين..!

في المقابل فنحن نرى المنعّمين ولا ندري أنهم يعانون مثلنا وأكثر..

فالممثل المشهور الذي حاز الشهرة والمال والرفاهية، لربما هو واقع في إدمان حفنة من

(الكوكايين) ونحن لا ندري، فنحسده نحن على ماله، ويحسدنا هو على العافية من ألم التعلّق والإدمان..! والمتزوج من أجمل امرأة في العالم لربما زواجه منها سبب تعاسته، لربما هي متكبرة أو متعجرفة أو سيئة الخلق أو يشك هو في سلوكها وإخلاصها له، من جديد هو يتمنى أن يحصل على زوجة غير جميلة ونأخذ منه زوجته..!

بطل كمال الأجسام ذو العضلات المنفوخة لربما يموت من جرّاء تضخم عضلة قلبه في النهاية، وعالم الرياضيات المشهور الذي يحسده الناس على ذكائه لربما هو مصاب بالوسواس القهري فيحيل حياته جحيمًا، وحاكم أقوى بلد في العالم ربما لا يستطيع النوم ويخاف على حياته في كل لحظة من أتباعه المقرّبين قبل أعدائه..!

لذلك قبل أن تنظر إلى أحد بنظرات الشفقة تذكر أن نعم الله ﷻ كانت أكثر من ذلك البلاء الذي تراه عليه.. وقبل أن تنظر إلى أحد بنظرات الغبطة والحسد ضع في الاعتبار كم الحرمان الذي لربما هو فيه مقابل هذه النعمة أو تلك..!

هذا هو ما أخبرتنا به الآية القرآنية: ﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾ (الشورى ١٩).. فاللُطف الإلهي قد طال الجميع، ومهما كان نصيبهم من توزيعة الأرزاق..! في النهاية الله قد لطف بهم، ونعم الله عليهم أكثر من حرمانه..!



هناك أمرٌ آخر علينا أن نفطن له في مسألة النعم، أن كل هذه النعم كانت من الله ﷻ تفضلًا منه ومنة.. وليس أننا نستحقها منه أو نوجبها عليه بشكل من الأشكال..!

مجرّد وجودك في هذه الحياة هو أمر يعني أن الله قد امتنّ عليك وأذن بهذا الوجود.. فلو مات الطفل في بطن أمه قبل أن يولد، أتراه كان يستحق شيئًا من الله فعلًا..؟ أتراه قد حُرِمَ من شيءٍ كان واجبًا على الله أن يعطيه له..؟

معنى أنك تتحرك الآن أن الله قد رزقك بأعضاء الحركة، فلو أن الله قد جعل أحدهم يُولَد مشلولًا، أيعني هذا أنه قد ظلمه..؟ ومن الذي استحق من الله أصلًا بأن يرزقه بهذه الأعضاء..؟ إنما هو محض تفضّل منه سبحانه، وحرمانه له —ولو افترضنا أنه لم يكن لحكمة وهذا افتراض خاطئ كما سنوضح بعد صفحات يسيرة— هو أمر خالٍ من الظلم تمامًا..

لذلك يقول ﷻ: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۞ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (النجم ٢٤–٢٥).. الإجابة: لا، ليس له كل ما يتمنى، ليس يستحق كل ما يهواه، الله وحده له الآخرة والأولى، يعطي منهما من يشاء، ويحرم منهما من يشاء..

هذه النظرة الصحيحة للنعم بأنها ليست استحقاقًا نطالب به، بل محض تفضّل من المنّان، هي نظرة تتعارض مع الطريقة المجحِفة التي يمتاز بها بعض الناس في نظرتهم للأمور..! حين يرون أن كل نعمة هم فيها كانت بسبب أنهم (يستحقونها) وكل حرمان لديهم هو (ظلم) من الإله حين منع عنهم ما هو لهم..! كما يحكي القرآن لنا عن حال أحدهم: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (الزمر ٤٩).. أي أنه يقول أن هذه النعم قد أوتيتها على علم من الله بأني أستحقها..

هذا الغلوّ في الزهو والغرور ورؤية فضل النفس وأهميتها يصل إلى ذروته عند بعض الناس أحيانًا فيجعلهم يجزمون بأن هذا الفضل الإلهي كما كان لهم في الدنيا فلا بد أن يكون لهم في الآخرة، لماذا؟ لأنهم أهلٌ لذلك..! ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ (فصلت ٥٠)..!

ليت هؤلاء اطّلعوا على إجابات القرآن ليعلموا مدى الوهم الذي هم فيه، ليعلموا كيف أن علاقة النعم التي تربطنا بالإله كانت من اتجاه واحد، اتجاه المنة والفضل من الإله وحده..!



علينا أن نتذكر نعم الله ﷻ إذن قبل أن نتذكر حرمانه، علينا أن ننظر إلى منته وفضله قبل أن ننظر إلى بلائه، علينا أن نفطن إلى النعم التي هي أكثر، وإلى المنن التي هي أسبق، وفي النهاية: ﴿**وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ (لقمان ١٢)..

٣- عن الشر الذي هو ليس كذلك..!

هناك قصة فانتازيّة شهيرة جدًا في التراث الغربي، تُدعى (موعد في سامرّاء)، القصة من تأليف الكاتب البريطاني (سومرست موم).. وهي عن التاجر الذي يسكن في بغداد وأرسل خادمه إلى السوق، فيرى الخادم ملك الموت يحدق فيه بثبات، ففزع منه وشعر أن موعد موته قد حان.. فامتطى جواده وانطلق يعدو نحو سامرّاء.. فلما رأى التاجرُ ملكَ الموت بعد ذلك سأله لماذا كنت تحدق في خادمي حتى أفزعته..؟ قال لم أقصد أن أخيفه ولكني كنت متعجبًا جدًا من وجوده في بغداد، حيث إني من المفترض أن أقبض روحه غدًا في سامراء..!

خطرت هذه القصة على ذهني حين فكّرتُ بأن مريض السكر يعيش طوال حياته يعاني من ارتفاع السكر في الدم، ثم قد لا يموت بعدها إلا بغيبوبة نقص السكر..! بينما مرضى الضغط العالي الذين قد يعانون أصلًا من زيادة كمية الدم في عروقهم فإنه من أسباب موت بعضهم هو الهبوط النزفي الحاد للدورة الدموية..! والطفل الذي يعاني من الجفاف (Dehydration)، قد لا يقتله إلا الطبيب حين يحاول أن يعيد إليه السوائل بطريقة سريعة (Overhydration)..!

الهروب إلى سامرّاء يتكرر كثيرًا في دروس الطب..

ولكنه يتكرر أكثر في دروس الحياة..!

كم من رجل ادّخر أمواله لشراء سيارة فارهة، كانت بعد ذلك تابوته الحديدي السامرّائي على قارعة الطريق.. وكم من مجتهد للوصول إلى كلية، أو درجة وظيفية، أو مكانة علمية، صارت بالنسبة إليه المعنى المجسّد للفشل واليأس.. وكم من حبيبين قد وصلا في الرومانسية إلى حد اللزوجة، ثم هما الآن في محاكم الطلاق، وعلى وجههما أعتى علامات البؤس والعذاب، لقد فرّ كل منهما إلى سامراء الخاصة به..!

في مدرسة الحياة نتعلم أن الإنسان لا يتعلم أبدًا من مدرسة الحياة..! أنه يسعى أحيانًا إلى جنته، ولا يدري كم ألوان العذاب التي قد تحويها جنته، أنه يهرب من شقائه ولا يتخيل لكم سيشتاق إليه..!

ظاهرة الفرار إلى سامرّاء لا تحدث بسبب رغبة ذاتيّة غامضة في تحطيم الذات.. ولكن بسبب الجهل الإنساني المتوغّل والذي يكون جهلًا مركبًا في معظم الأحيان..! الجهل بأنك تجهل..!

هذا الجهل –وبعد أن نلاحظ نتائجه في تجربة لنا أو اثنتين– يدفعنا إلى اليقين في أننا لسنا أفضل من نخطط لأنفسنا طريق الحياة والنجاة فيها.. التسليم لهذه الحقيقة هو ما تهدف إليه الآية التي تذكرنا بـ: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة ٢٦٦)..!



عملية اختيار المصير لو كانت بأيدينا نحن، لكنّا فرحنا في البداية، ثم دمّرنا كل شيء بعد ذلك، ثم ندمنا على ما فعلنا في نهاية الأمر..!

فَبِداخل كل منا طفل صغير يتمنى لو كان للحياة لوحة keyboard.. تخيّل كم اللذات والمتع التي ستحصل عليها لو كان لديك زرّ (Search) عندما يقرر هاتفك المحمول

أن يختبيء أسفل المكتب، ولا يحلو له ذلك إلا لو كان صامتًا..! أو عندما تجد زرّ (Refresh) في لحظات السأم والتعب..! تخيل لو تستطيع أن تنسخ من محبيك عدة نسخ وترفعها على بريدك الإلكتروني كاحتياط في حالة فقدهم..! تخيل لو تستطيع أن تضغط على (Undo) بعد أن تتلفظ بكلمات غبية تسيء إليك أو إلى أحد أصدقائك في أحد المحافل العامة..!

أن تتحكم في حياتك، وتأخذ بزمام الأمور، لهو حلم بشري عتيد.. من منا لم يندم أو يتحسر على مفقود..؟ من منا لم يتمنَّ وصل المحبوب..؟ من منا لم يبكِ في لحظات الشعور بالضياع، وفقدان الأمل، وينظر حوله في ذهول متسائلًا: ترى ما أحضرني هنا..؟ من بنى هذه الجدران الأربعة..؟ وماذا أفعل في هذا المكان..؟!

والآن تخيل لو أنك أُعطيتَ هذه القدرة في مساحة محددة هي جسدك..! حاول أن تشكّله كما تشاء.. أستطيع أن أتخيل أنك ستتصرف بنفس الحماقة التي كنت سأتصرف بها..

ستجد أن كل عضلة من جسدك أقصر من اللازم، أقصر من المسافة بين المنشأ Origin والمدخل Insertion .. تمط شفتيك متعجبًا ثم تقوم بإطالتها إلى الطول المناسب، فقط لتتسبب في ضياع (الشدّة) الانقباضيّة الدائمة فيها Tone وتضمر هذه العضلات للأبد..!

ستحاول تنظيف أمعاءك الخاصة بك من كل البكتيريا القذرة Flora التي فوجئتَ بأنها تستوطنها كسكن دائم لها..! ولكنك ستدرك الخطأ الذي وقعت فيه حين ترى كم الالتهابات التي ستصاب بها حينها والتي كانت تحميك منها هذه الطفيليات الكريهة..!

ستفكر في أنك تحتاج إلى المزيد من مصانع الدم، ستجد أنه ليست كل العظام ينتج نخاعها خلايا الدم، فتقوم بزرع نخاع عظمي نشط في كل عظمة، بما فيها عظام الوجه،

فينتفخ وجهك ويتضخم ويتشوه تمامًا..!

ستضاعف قوة الجهاز المناعي لتحمي جسمك أكثر من أمراض العدوى، فقط لتقع في أحضان أمراض المناعة الذاتيّة (Auto-immune diseases) حين يقرر جهاز مناعتك الجديد الشرس أن يهاجم خلايا جسدك الخاص..!

بعد عدة محاولات خرقاء ستفطن أخيرًا للحقيقة.. أنك لست أفضل من يدبر حال نفسك.. بل على الأرجح أنت أسوأ من يدبر حال نفسك..!

لو أن الله قد ترك لك تدبير جسدك لتسببت في دماره في عدة دقائق.. فلماذا أيها المسكين تظن أنك قادر على تدبير أمر حياتك كلها، وتحزن لأنك لا تستطيع ذلك..؟!

بينا الحال مع الله ﷻ جدّ مختلف.. فاللهُ يعلم..!

يعلم ما في الشهادة، ويعلم ما في الغيوب.. يعلم على أيّ حالٍ ستنهي يومك، في أيّ مجال سيجول خاطرك الآن.. يعلم في أي سحابة تقبع نقطة الماء التي ستروي عطشك في يومٍ ما بعد العودة متعبًا من العمل، ويعلم اسم اللحّاد الذي سيقلبك على يمينك في قبرك..

إنها حقيقة نختبرها في كل حين.. أن البون الشاسع بين جهلنا المطبق وبين علم الله، لا يعطينا أبدًا الحق في الشكوى من أي شيء يصيبنا منه..

هذا البون الشاسع لا نملك معه إلا أن يقودنا إلى الرضا الغريب عن كل ما نكرهه، إلى التصديق التام لكل ما يقوله، إلى الاستسلام الكامل لكل أمر، إلى الحذر البالغ من كل نهي.. يدفعنا إلى رؤية الحق والخير في كل ما يقذفه إلينا من تشريع أو تقدير..

لماذا؟

لأنه يعلم ما تجهله القلوب..

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (سبأ ٤٨)..!

٤- عن الحِكَم التي قد تخفى..!

مهما كان المركز الذي يحتله الطعام في قلبك، ومهما كان الرقم الذي يظهر لك على ميزانك، فإننا جميعًا وبلا استثناء قد جربنا تلك اللحظة المريضة التي نتعرف فيها على لؤم الجوع حقًا، ونعرف لماذا أجمعت الأمة على تكفيره..! حينها لو خلوْت بطبق تشتهيه من الطعام تذوق أجمل معاني الحب، إنها العاطفة الصافية التي لم تلوّثها الضغائن.. والعشق المجنون الذي كان سيجعل قيسًا يخجل من فشله..

وبعد أن تنتهي المذبحة، وتستلقي على الأريكة بزاوية ١٢٥ لتساعد حجابك الحاجز على القيام بعمله وإبقائك على قيد الحياة.. حينها لربما أنت تفكر في عدد الملايين من البشر الذين يعانون في هذه اللحظة بالذات مما كنت تعاني منه قبل عدة دقائق..! وكم يا ترى تكون نسبة من سيحصلون على مثل هذا الطبق العزيز من هؤلاء المساكين..؟!

تكبر قليلًا وتراقب في سعادةٍ مغتاظة، أو حزنٍ مستلذ، زميلك الذي كان يجلس بجانبك في درس الكيمياء، وهو يسير بجانب كائن منفوخ البطن، ويحمل كائنًا آخر منفوخ الخدود.. فتسعد له وتغتبط، ولكنك أيضًا تتأثّر وتتذمّر، وتُحبَط وتتحسّر، لأنه لم يحن موعد زواجك أو إنجابك إلى هذه اللحظة.. يجعلك هذا تفكر في حال المساكين الذين زاروا ساحل الأربعين من العمر، ولما يُرزَقوا بعد..!

وهكذا... في كل مرة تذوق نوعًا من الألم، تفطن إلى حجم خزانة هذا الألم من حولك، تفطن إلى معنى جديد من معاني المعاناة، وهي أن تعاني من كثرة ما تراه من المعاناة..! أن ترى هذا وذاك من المبتليْن فتشعر بالحزن لحزنهم، وتتمنى لو كان بإمكانك أن تشتري فرحتهم بكل ما تملكه..

لو صارت أصوات البشر من حولك تتناغم وتتآلف وتُختصَر في صوت واحد، لسمعت صوتًا يشبه في بعض جوانبه صوت الأنين..

الأنين هو صوت المحرومين.. هو صوت المحتاجين.. هو صوت ذلك الذي لا يجد ما يحتاجه من مال، وتلك التي لم تكن دنياها على مستوى حلمها.. صوت الشاب الذي لم يَصِرْ زوجًا، وصوت الزوجة التي لم تَصِرْ أمًّا..

وهو أيضًا صوت ذلك الجنين في بطن أمه وهو يعاني من كمية الأكسجين الشحيحة المارة بحبله السرّي.. صوته وهو يتساءل لماذا لا يحصل على ما يحتاجه..؟ ولماذا يكون رزقه شحيحًا..؟ دون أن يعلم أنه لولا هذا الحرمان الهوائي Hypoxia التي تعيشه خلايه، ما كانت أفرزت كليتاه هرمون الـ Erythropoietin وأنه ما كان ليحصل بفضل ذلك على معدلات هيموجلوبين تتجاوز حد العشرين..! مع العلم بأن هذه المستويات العالية من الهيموجلوبين في خلاياه هو السبيل الوحيد له كي لا يشعر بحرمان هوائي حقيقي بعد الولادة..

قد حصل الجنين على إجابته إذن..!

حرمانه مما يحتاج، كان هو عين ما يحتاج..!

إن صوت الأنين المتصاعد يسأل عن حاجاته، عن إكمال أرزاقه، عن أحلامه وأمانيه.. يجيبه صوت آخر شجيّ يتصاعد من مكانٍ ما ويتلو علينا قول الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ (الشورى ٢٧)..!

لم يكن الله أبدًا ببخيل أو شحيحة يداه..! سبحانه وتعالى هو الذي يمينه ملأى، كريمٌ يعطي بلا حساب ولا حد ولا مراجعة.. ولكن لعله قد حرمك من هذه النعمة أو تلك لأنه

يعلم أنك تحتاج إلى هذا الحرمان أكثر مما تحتاج إليها فعلًا..! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾ (الحجر ٢١)..



ربما الكثير من الناس يظنون أن (الأخذ) أفضل دائمًا من (المنع).. وأن كل ناقص لديهم سيكون أجمل لو اكتمل.. بينما في الحقيقة قد يكون النقص هو عين الحسن..!

فالغمّازات التي تجمّل الوجه هي في الواقع (ضعف) أو انشقاق في عضلة من عضلات الوجه اسمها: Zygomaticus Major ..! والعيون الزرقاء الجميلة كان سبب زرقتها هو (فقرها) من الخلايا الصبغيّة في قزحيّتها..! بينما الشعر الناعم الأملس أصبح كذلك لأنه (ليست لديه) طبقة نخاعيّة غنية بالبروتين كتلك التي تملكها الشعور الخشنة المجعدة..!

هناك أمثلة كثيرة للفكرة الفلسفية ذاتها.. أحيانًا كثرة الموارد أسوأ من قلتها، أحيانًا بطر النعمة لا يقل سوءًا عن ألم الفقد، أحيانًا يكون عدم كمالك هو سبب جمالك..! لذلك كان بعض الحُكماء يقولون: "واعلم أن نعمة الله فيما منعه عنك أعظم من نعمته فيما أعطاك"..!

غير أنه من العسير علينا تصديق ذلك.. أو على الأقل من العسير أن نصدق ذلك الآن.. ولكن لما نصاب بالفعل بتجربة أو اثنتين سوف نتأكد من هذا بأنفسنا..

هذا ما وقع للناس الذين عاصروا مال (قارون) ورفاهيته فتمنّوا ما كان عليه من هذا النعيم.. هذا التمنّي الذي كان شديدًا لدرجة أن هناك من العقلاء من نصحهم وقال: ﴿**وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ (القصص ٨٠).. فلم يأبهوا كثيرًا بنصيحتهم..! ولكن لما رأوا بأعينهم أن رفاهية قارون جعلته مفسدًا في الأرض، وأن هذا الفساد جلب عليه الوبال والغضب الإلهي والعقاب الشديد.. لما رأوا بأعينهم كل هذا

وشاهدوا بيت قارون مخسوفًا به الأرض، حينها فهموا وأدركوا: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص ٨٢)..!! الآن رأوا أن حرمان الله ﷻ لهم كان نعمة ومنة..! الآن شاهدوا فضل الله في منعه بعد أن كانوا يشاهدونه فقط في عطائه..!



لا يقتصر الأمر على المنع فقط، ولكن حتى الضرر الواقع، فقد يكون أحيانًا رحمةً من الله ﷻ الذي يعلم عنك أكثر مما تعلمه عن نفسك، ويعلم أن ربما كان هذا العطاء سببًا في فسادك بعد ذلك، كما يقول جَلَّالِهِ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (المؤمنون ٧٥).. هؤلاء صنف من البشر وحالة من أحوالهم يعلمها الله عنهم أن لو رفع عنهم ما يشتكون منه لاستمرّوا في ضلالهم وظلمهم دون أن يردعهم رادع أو يوقفهم انكسار..!



في أحيان أخرى فإن السبب وراء هذا المنع أو هذا الضرّ أن يكون محض اختبار من الله ﷻ ليصفّي به هذه الصفوف والصنوف المختلطة من البشر..!

فهؤلاء الذين يدّعون أن جميعهم أبرار أتقياء يراقبون الله في أفعالهم في السراء والضراء، فلنرَ إذن ما هم بفاعليه حين تُضيّق عليهم الأموال والأرزاق ويكونون في فقر وحاجة ثم تسنح لهم فرصة الغش أو السرقة، هل يستغلونها..؟! أم يصبرون..؟! لذلك يقول الله جَلَّالِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة ١٥٥).. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد ٣١)..

في المقابل فإنه لو لم يكن هناك تضييق وكان الاختبار بهذه السهولة لنجح الجميع، واختلط من يستحق بمن لا يستحق وسط هذه الجموع الناجحة..! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران ١٧٩).. بل تعجّب القرآن من هؤلاء الذين ظنوا مجرد الظن أن عدل الله وحكمته يسمحان بأن يمضي الناس ويعبروا من الدنيا على الآخرة دون أن تحدث مثل هذه التصفية، فيقول ﷻ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت ٢-٣)..



هناك حكمة أخرى أنبأنا الله بها لمثل هذه البلاءات غير الرحمة والتصفية، وهي حكمة الإنذار والتهديد..! أن يذوق ذلك المعتدي أو تلك المتسلّطة جزءًا يسيرًا من عقاب الله ﷻ في الدنيا، لعل ذلك يعيد إليه رشده، مثل الصدمة الكهربائية التي يستخدمونها مع مرضى الذُهان العقلي، شيئًا من العذاب يراه المتجبّر فيخاف ممّا هو أكبر منه من العذاب.. هذه الحكمة قد أخبرنا بها القرآن حين قال الله ﷻ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة ٢١)..

غير أن المجرمين يتفاوتون في إجرامهم، ولأن هناك من الناس من لا يمنعهم عما يريدون من الضلال شيء، وسيتصرّفون دائمًا بنفس الغباء التقليدي الذي امتازوا به في ظنهم أنهم لن يقدر عليهم أحد.. لذلك لن ينتفع كل الناس بهذا الإنذار الربّاني..! كما يقول الله ﷻ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة ١٢٦)..

وهناك من الناس من هم أقل من هؤلاء إجرامًا.. الصنف المنتشر من البشر الذي يصيب ويخطئ، ويتأرجح بين الضفتين.. نحن نعرف هذا الصنف بالذات أكثر من أي

صنف، لأننا جميعًا منه وبلا استثناء.. وقد وضّح لنا القرآن أننا قد أخذنا حظّنا أيضًا من الأضرار الواقعة والحرمان من الأرزاق، بسبب ذنوبنا وآثامنا وأخطائنا الكثيرة.. إن الإله الرحيم —ولأنه رحيم— سوف يقوم بمعاقبتنا عليها بشكل سريع وبسيط في الدنيا، وسيبقى ذلك أخفّ وأفضل كثيرًا من أن تدّخر عقوبتنا في الآخرة..!

هذا هو ما يُعرَف باسم (تكفير الذنوب) وهو أمر تحب أن يحدث معك بالتأكيد، لأن الصداع، أو الشجار مع زوجتك، أو (الحكّة) اليسيرة في جانب سيارتك الجديدة، سيبقون دائمًا وأبدًا أسهل وأيسر وأرحم من نفحة من عذاب ربك يوم القيامة..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (آل عمران ١٦٥).. ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ (النساء ٧٩)..

غير أننا نكون قد أسأنا بالله الظن، وأحسنّا الظن بأنفسنا إلى أقصى حد لو تخيلنا أن كل ما نخطئ فيه يُردّ إلينا بهذه العقابات البسيطة..! فالحقيقة أن ذنوبنا وآثامنا أكثر بكثير من قدرتنا على العدّ، بينما كل ما نكرهه مما يصيبنا فهو أقل من ذلك بما لا يُقاس..! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ (الشورى ٣٠)..



وهناك حكمة خامسة، تتمثل في شرح وتفسير ما يحدث لهؤلاء الصالحين من تضييقات، هؤلاء أخيار بالفعل، فلماذا يتعذّبون بكل هذه الأضرار..؟!

يخبرنا القرآن أن الله ﷻ إنما أراد لهم علوّ المكانة التي قد تأتي بطبيعتها ببعض الألم..! وأنه أحب أن يسمع منهم دعاءهم وشكواهم وسؤالهم، فأعطاهم سببًا لهذه الشكوى منهم..! مثل مريم عليها السلام التي أراد الله أن يرفع ذكرها إلى يوم القيامة بين معظم الجنس

البشري..! ومن أجل ذلك كان عليها أن تتحمل الكثير من البلاء، لدرجة تمنّيها الموت..! كما أخبرنا القرآن عنها: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ۞ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم ٢٣-٢٤)..



إذن فحكمة الله قد تخفى علينا بعض الأحيان..! وقد تتنوع هذه الحكم ما بين الرحمة بعباده الذين لا يعلمون ما كان سيصيبهم لو كانوا حصلوا على مرادهم، وبين التصفية والغربلة لصفوف الناس الذي يبدون قبل البلاء على سواء، وبين الإنذار الإلهي لهؤلاء الذين أجرموا في حق أنفسهم علّهم يفيقون قبل فوات الأوان، وبين المعاقبة الفوريّة السريعة على بعض من ذنوبنا الكثيرة لترفع عنا عقوبة الآخرة الأشدّ، وبين الرفعة الإلهية التي قد تأتي إلى عباد الله الصالحين في صورة متخفّية، ولكن هؤلاء العباد الصالحون يفهمونها أكثر منّا على كل حال..!

وهناك من الحِكَم ما هو أكثر وأكثر مما لا نعلمه، وقد لا نعلمه أبدًا..!

هذا لا نجيده بطبيعة الأمر..! ولكن ما يجيده بعضنا للأسف أن يأتي إلى صورة الحزن، صورة المرأة الباكية، أو العجوز المكسور، أو الأرض الخربة، أو الدماء المتناثرة، أو الفقر اللئيم.. يأتي إلى هذه الصور فيطيل التحديق فيها ثم يسارع في الخروج من مسرح الحياة قبل أن يكتمل العرض، قبل أن يرى مشهد النهاية، أو أن يتساءل حتى عمّا وراء الكواليس..!

٥- عن ضريبة الحرية البشرية..!

في أواخر القرن التاسع عشر وحيث كان (مندل) ما زال يلعب بحبوب البازلاء، لم يكن علم الوراثة الذي أسسه قد اكتمل بعد، وبرغم ذلك ظهرت في الأوساط العلميّة فكرة (اليوجينيا) لتدّعي أن علينا أن نسعى إلى التحسين الوراثي للبشر، ونعامل بني آدم بالطريقة

التي عامل بها مندل البقوليات، فنأتي على سلالات البشر التي (تستحق) ونحاول أن نكثر من نسلها، ونأتي على سلالات البشر (المعيبة) ونحاول أن نقلّل من تناسلها، حتى نقضي في النهاية وبالتدريج على الأنواع الغبية والمريضة والفقيرة من البشر عن طريق تحديد نسلهم نهائيًا..!

كانت فكرة أن هناك أجناسًا من البشر أفضل وأعلى وأذكى من الباقي متداولة وغير مستهجنة في السبعين عامًا التالية، وسواء كانت من ساسة مثل (هتلر) و(تشرشل)، أو فلاسفة مثل (برتراند راسل)، أو كانت من رجال علم مثل (جوليان هكسلي) آمنوا بها كامتداد طبيعي لإيقانهم بالتطور.. أصغى هتلر لأفكار اليوجينا بشكل أدق من اللازم، وكان أشد المتحمسين للتجربة، حيث أمر بإخصاء نصف مليون من السود واليهود والغجر لأنهم لا يملكون حق إمرار صفاتهم الوراثية الرديئة للجيل الجديد..! وأما في الولايات المتحدة فقد تم التعقيم القسري لـ ٦٣٦٧٨ شخصًا فيما بين عامي ١٩٠٧ و١٩٦٤ كما يقول (آلان تشيس) في كتابه (تركة مالتوس)..

بعد الحرب العالمية الثانية التي لعبت العنصريّة فيها الدور الأكبر، والتي خسرنا فيها عدة عشرات من الملايين من البشر، صارت العنصريّة من التابوهات المحرّمة، وصار رجل الشارع يشمئز من الشخص الـ Racist.. لكن هذا لم يستمر طويلًا، فمع انحسار اليسارية بدأت اليوجينيا في الظهور مرة أخرى، ففي عام ١٩٩٤ تم نشر كتاب (منحنى الجرس) لمؤلفيْه: (ريتشارد هيرنشتاين)، و(تشارلس موراي).. وتم اعتباره كتابًا علميًا، الكتاب يدعو لفكرة واحدة: الذكاء صفة وراثية فبالتالي هناك من الشعوب ما هو أذكى من الآخر، لذلك علينا نحن البيض أن نشفق على السود لأنهم لن يتقدموا أبدًا ولا مانع من أن نحكمهم من آن لآخر..! وفي عام ٢٠٠١ نشر (ريتشارد لين) كتابه: (اليوجينيا، إعادة تقييم) وهو كتاب عنصري مقرف للغاية، ومن جديد تم قبوله في الأوساط العلمية..

ربما تكون (العنصرية) واحدة فقط من الصفات السيئة التي قد يتصف بها الإنسان الذي لم يهذّب أو يزكِّ نفسه بالقدر الكافي.. هذه العنصرية قد تؤدي إلى استرخاص حياة الآخرين وبخس قدرهم إلى الدرجة التي (تُسهّل) عليه أن يبدأ الحروب العالمية من أجل أن يسيطر عرقه (الأعلى) على بقاع الأرض التي لا تستحقها الأعراق الأدنى من البشر..! أو أن يذهب إلى أفريقيا فيأخذ بعضًا من سكانها ليكونوا عبيدًا عنده، لأن نسبة الخلايا الصبغية في بشرتهم كانت أكبر من أن يعترف بهم كبشر يشاركونه في أحقيته للحرية والحياة..! أو أن يهاجر إلى الأمريكتين فيُفني سكانها الأصليين أو يكاد لأنهم مختلفون عنه..! ناهيك عن أنه إلى الآن ما زال يسميهم باسم (الهنود الحمر) وهي تسمية كانت ناتجة عن خطأ (كولومبوس) الذي كان يظن أن هذه هي الهند، ولكن الإنسان الأبيض يرفض أن يصحح خطأه إلى اليوم.. فهم بالنسبة إليه أقرب إلى (الأشياء المكتَشَفة) التي تُلصَق عليها التسمية الأولى..!

ولكن ليست العنصرية هي الصفة السيئة الوحيدة التي قد يتصف بها الإنسان.. فهناك البخل والحرص على المال والجشع الذين قد يدفعونه إلى أكل الميراث والغش والسرقة وامتصاص حياة الناس ببطء بدون كثير اهتمام..!

مثل شركات التصنيع الأمريكية الكبيرة ذات الأسماء العالميّة (براندات) والتي تحتاج إلى إنتاج ملايين القطع من منتجاتها دون أن تسمح الأيدي الأمريكية العاملة –ذات الحقوق الماليّة المحترمة– بإنتاج هذه الكميات.. لذلك تذهب إلى بلاد شرق آسيا الفقيرة لتستثمر فيهم هذه المهمة، وهكذا يقضي الأطفال الصينيّون فترة طفولتهم في العمل المتواصل لمدة اثنتي عشرة ساعة مقابل عشرة (يوانات) في مصنع لإنتاج الأحذية الرياضية التي لن يستعملوها هم بطبيعة الحال، وتُصدّر إلى أطفال العالم الأول ليلبسوها في مباريات الهوكي أو البيسبول ويفخر آباؤهم بهم ويصيحون فيهم: Just do it..!

ربما من أوضح الأمثلة على هذه الجرائم الماليّة، عندما عثر ثري أمريكي على صيدلي ألماني في منتصف الخمسينات ادّعى أنه قام بتصنيع دواء يخفّف من أعراض الحمل في الشهور الأولى مثل الصداع والأرق والقيء، على الفور بدأ الثري الأمريكي في تصنيع هذا الدواء دون عمل الدراسات الكافية حوله، مما أدى إلى إنتاجه وطرحه في الأسواق عام ١٩٥٧ في الولايات المتحدة ودول أوروبا.. وبحلول عام ١٩٦٠ تم تسجيل ولادة ١٢ ألف طفل مشوّه بلا يدين أو قدمين بسبب تناول الحوامل لهذا الدواء.. هذا هو عقار (الثاليدومايد)، فضيحة صناعة الأدوية الأمريكية..!

تم وقف الدواء في ١٩٦١ في أوروبا وأمريكا، ولكن بعد سنوات قليلة تم تسريب الدواء مجددًا إلى أفريقيا، حيث الفقراء سود البشرة طيّبو القلب الذين لم يسمعوا عنه من قبل.. هذه المرة الجريمة كاملة، فالشركة كانت على علم بما يسببه هذا العقار، ولكنهم لم يبالوا كثيرًا بذلك، بقدر مبالاتهم بالمال الوفير الذي ملأ جيوبهم..!

هناك الكثير أيضًا من هذه الصفات التي تكون دافعة للإنسان إلى ارتكاب الجرائم والآثام..! هناك الشهوة الجنسية التي قد تدفعه إلى الاغتصاب والتحرّش وخيانة شريك الحياة.. وهناك الرغبة في العلوّ والظهور التي قد تدفعه إلى الكذب والنفاق والنميمة.. وهناك الغضب الذي قد يدفعه إلى السباب والإيذاء والقتل في كثير من الأحيان..



الكثير جدًا من السوء يمكننا أن نتوقعه من البشر الذين يحملون هذه الصفات دون أن يهتم الكثير منهم بتهذيب أنفسهم وصيانتها..! الكثير جدًا من الشرور والمصائب ننتظر وقوعها على الأرض في كل لحظة يحيا فيها هذا النوع من الجنس البشري عليها..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ (البقرة ٢٠٥)..

هذه هي ضريبة حرية الإرادة البشريّة..! لو أردنا أن نحيا في مجتمع خالٍ من الشرور البشريّة لكان هذا معناه أن يتدخل الله ليمنع الإنسان من شرّه، بمعنى آخر: أن يُجبِرَ اللهُ الإنسانَ على الخير.. بمعنى ثالث: أن تُنزَع من الإنسان حرية إرادته.. بمعنى رابع وأخير: ألا يكون هناك داعٍ للحياة الدنيا، ولا لخلق الإنسان بعد وجود الملائكة..!



على أن الله لم يتركنا وحدنا لهذه النزوات الإنسانية أن تلقي فينا كل هذه الشرور من دون أن يتدخل بشرعه وأمره وقدره..

بل أمر اللهُ الإنسانَ بألا يكون من المفسدين في الأرض: ﴿**لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ (النساء ٢٩).. يعني: لا تقتلوا بعضكم البعض.. وأوضح له أنه لا يحب هذا الصنف من البشر: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (المائدة ٦٤).. وأغلظ له في العقوبة يوم القيامة: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (المائدة ٣٢).. وأمر عباده المؤمنين في الدنيا بملاحقة ومعاقبة هؤلاء المفسدين: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (المائدة ٣٣)..!

لم يكتفِ القرآن بذلك بل وضّح لنا أيضًا أن دائرة الفساد قد تعود عليه في الدنيا إن شارك هو فيها بنفسه..! كما قال ﷻ: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾ (النساء ٩).. أي هؤلاء الذين سوف يتركون من بعدهم ذرية ضعيفة من الأطفال عليهم أن يتقوا الله ويتحرّوا العدل والإحسان مع اليتامى، حتى ييسّر الله لهم من بعد موتهم من يحسن إلى أطفالهم أيضًا..! إنها دائرة (السَلَف) و(الدَّيْن) التي يعرفها عموم الناس من تجاربهم في الحياة، فالبرُّ لا يبلى والذنب لا يُنسَى

والديّانُ لا يموت، فافعل ما شئت فكما تدين تُدان..!

يأتي أحدهم فيقول: ولكن لماذا لا ينتقم الله من كل من يظلم..؟ لماذا لا ينزل عذابه على كل أحد يبغي على غيره..؟

هذا السائل يحسن الظن بنفسه أكثر من اللازم..! إنه يفترض أن الله ﷻ لو فعل ذلك فإنه لن يتضرر ولن يكون من الذين تنزل عليهم صواعق السماء..! بينما في الحقيقة كلنا يستحق..! من الذي لم يرفع صوته على والديْه، أو يكذب على معلمه، أو يخدع من يشتري منه، أو يضرب طفلًا، أو يُبكِ امرأة، أو يقطع رحمًا، أو يخلف وعدًا؟؟ يذكرني ذلك بكلمة (أنيس منصور): "لا تغضب من أحد، فأنت أسوأ كثيرًا مما تعتقد"..!

كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون.. وأما هؤلاء الذين يصرّون على تقديس أنفسهم هم أسوأ البشر طرًّا.. في الحقيقة كلنا —بشكل أو بآخر وباختلاف وتفاوت كبير— ظالمون فعلًا..! لذلك كان جواب القرآن على هذا السائل أن قال الله ﷻ: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ (النحل ٦١)..!

٦- عن لغز إدراكنا لمعنى الشرّ..!

منذ طفولتي وأنا أتمنى أن أستيقظ لأجد نفسي في مدينة البط، أو بلاد العجائب التي زارتها (أليس)، أو حتى عالم (أوز) المدهش.. إنه إبداع الأخوين (جريم)، و(لويس كارول) و(فرانك باوم) و(كريستيان أندرسن) و(والت ديزني) وغيرهم، الذين أغرقوا خيال البشرية بعوالمهم السحريّة الرائعة المليئة بالغابات الخضراء والخرفان البيضاء وكعك التفاح الشهيّ والحيوانات الثرثارة..

هذا جو غير ملائم في واقعنا العربي على كل حال وغير مفهوم..! فقصص الأطفال

لدينا تنبع من واقعنا نحن، فأنت تستطيع أن تفهم وجود (النداهة) بجانب (الترعة)، لكن حاول أن تتخيل مثلًا موقف الضفدع الذي تحول فجأة إلى أمير، وهو يحاول أن يقنع مدام (سحر) في السجل المدني بأنه موجود ويستحق شهادة ميلاد..!

معظم هذه القصص هي في الأصل أساطير وحواديت كانت تحكيها الجدات لأحفادها على مر العصور حتى جمعها هؤلاء أو استوحوا منها كتابتهم.. هي إذن قصص تتحدث عن الواقع البشري كما يتخيله البشر في أبسط الصور وأكثرها رمزية.. ولعل أكثر ما قد تلاحظه فيها هو عنصر المبالغة والحدّية..! فلا بد للأميرة أن تكون أميرة أحلام في جمالها، ولا بد للمرأة الشريرة أن تكون ساحرة شمطاء تستمتع بقتل الأطفال، بينما تجد (عبقرينو) الرمز المجرّد للعبقرية، لا يوجد ما لا يستطيع اختراعه، وعم (دهب) رمز الثراء، لديه خزينة مليئة بالأموال، يسبح بها طوال اليوم..

هذه المبالغات تدل على الحجم الضخم للمعنى المجرّد الذي يحمله صاحب هذا التراث (الإنسان)..! الإنسان يحمل بداخلة صوره المثاليّة الصافية عن القيم، والتي تكون في العادة أكثر تركيزًا وأنقى كثيرًا من تلك الموجودة فعلًا في الواقع، وعلى مرّ أطوار حياته يتعلم الفجوة الكبيرة بين هذه القيم كما هي في وجدانه وبين نفس القيم كما هي في سلوكه وسلوك الناس من حوله..!

خذ عندك مثلًا المراهق العاشق الذي يقرأ شعر (أبي فراس الحمداني) ويقطف الأزهار في الحديقة، هو في الواقع يملك بداخله المعنى المجرد للحب، ويبحث عن شخص يركّبه عليه، فما أن يجد أول فتاة قد تصلح لذلك حتى يهديها كل تلك المشاعر، وهي بالطبع قد لا تستحق كل هذا، لأنه في الواقع يبالغ بشدة..! وفكر في قيمة الوفاء مثلًا، هي بداخلنا كقيمة مجردة أكبر بكثير من وجودها في البشر، لذلك يمتلئ المجتمع بهؤلاء الذين يبكون على خيانة أصدقائهم لهم..

هناك فجوة بين القيم الصافية التي خلقها الله ﷻ في الإنسان وبين سلوكه المعتاد فعلًا، ليست التجريديات والحدّيات موجودة في واقعه كما تخيل هو في أساطيره الشعبية..

إنها اللحظة التي تصطدم فيها الطبيعة التجريدية للإنسان بكل خياله السريالي ومثاليته الحالمة، بالعالم المادي الذي وجد نفسه فيه وسط رائحة العوادم وصوت نفير السيارات في الطريق المزدحم.. اللحظة التي يدرك فيها الإنسان أن وعاءه المادي الذي يحتوي روحه هو أصغر منها بكثير، وأن إنسانيته شيء وجسده شيء آخر.. اللحظة التي يدرك فيها عظمة الخالق سبحانه الذي أهداه منظومة قيم أوسع منه شخصيًا ويشترك في فهمها جميع أبناء جنسه، ذلك الخالق الذي قد تفرّد بمصدريّة القيم والأخلاق، ثم تفرّد بالدلالة عليها..!

الله ﷻ وحده هو الذي أعلمنا بمعنى الخير وبمعنى الشرّ..! الذي خلق فينا جهاز التمييز الأخلاقي، فجعلنا جميعًا نفهم ما هو الحسن وما هو القبيح..! إنها نوع من الهداية المتفرّدة التي اختصّ بها الله ﷻ وحده، كما اختصّ من قبل بنوع الهداية للحق والطريق المستقيم والذي يتبين لنا في الآية: ﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ (يونس ٣٥).. أي أن كل من سوى الله لا يملك أن يهدي غيره ولا يستطيع إنما هو لا يهتدي إلا أن يُهدَى، أي أنه المفعول به دائمًا في معادلة الهدى.. هي آية توضح لنا أن الله وحده هو الذي يهدي للحقّ والرشاد والنهج القويم، كما كان ﷻ وحده دائمًا هو من يهدي جميع الخلائق قبل ذلك وبعد ذلك لمعنى الحق ولمعنى الرشاد ولمعنى النهج القويم..!



لو لم يكن هناك إله، فكيف نفسر قدرتنا على فهم الخير من الشر وتمييزهما عن بعضهما..؟! في عالم بدون إله فإننا سنكون محض (نفايات نجميّة) كما يقول (كارل ساجان)، أو مجرّد (أجساد بيولوجيّة) كما يقول (كريستوفر هيتشنز)، أو نحن فقط (قرود

أخرى) كما يقول (ريتشارد دوكنز)..! أيُّ معنىً للخير أو للشر في عالم كهذا..؟! كيف تشعر النفايات النجميّة بالحسن وبالقبيح..؟!

لو كان ما يقولونه صحيحًا، فلماذا —وعلى عكس ما يظنون— نجد أننا نفهم ما هو الشرّ فعلًا..؟! وبطريقة نتفق عليها جميعًا، حتى هم لن يخالفونا فيها..!

لذلك يقول (مايكل روس): "الرجل الذي يقول أنه من المقبول أخلاقيّا أن يتم اغتصاب الأطفال الصغار مخطئ تمامًا كذلك الرجل الذي يقول أن ٢+٢=٥"..!

الجميل أن (روس) نفسه ملحد أيضًا..! لكنه يعلم أنه من المعاندة والجدال الباطل أن ندّعي أنه لا يوجد ما يتفق عليه البشر بشأن الأخلاق والقيم..

هذا على عكس (دوكنز) مثلًا الذي قال: "لا يوجد خير ولا شرّ، لا يوجد سوى عدم المبالاة القاسية"..! ثم بعد ذلك لما سُئِل إن كان يتبرع بأمواله لصالح أعمال خيريّة، قال: "نعم، وإن سألتني عن السبب الذي يدفعني لذلك فإني سأقول لك: لا أعلم"..!

ولكننا نحن نعلم..!



يمكنك مثلًا أن تدّعي أن خسران فريقك المفضل لكرة القدم، هو شرّ، ولكن سيخالفك الرأي حتمًا الذي يشجّع الفريق المقابل..! يمكنك أن تظن أن نزولك في ترتيب دراستك من المركز الأول للمركز الثاني هو شرّ، ولكن صاحب المركز الأول سيراه أكبر خير حدث له هو..!

في الحقيقة هذا مما تختلف فيه وجهات النظر وزاوية الرؤية، إذن لا يمكننا أن نعتمد على (المفهوم الشخصي) للشرّ..

ولكن يمكننا أن نتأكد أن هناك (مفهومًا موضوعيًّا) له..! سيكون ثابتًا بين الناس على اختلافهم، فالقتل والاغتصاب والسرقة والغش والخيانة، كل هذه شرور سيتفق عليها (وونج) من كوريا، و (زوربا) من الكونغو، و(ليلى) من الإمارات.. كل البشر على اختلاف هيئاتهم وثقافاتهم سيتفقون على معنى الشرّ في جوهره..!

إحساسك بوجود آلام من حولك، هو في حد ذاته دليل على وجود إله خلق في نفسك جهاز استشعار لهذه الآلام..! حيث إن الشرور لديها عندنا معانٍ (موضوعية) بحتة يمكن للجميع أن يتفقوا عليها..!

٧- عن الشرّ الذي هو أهمّ مما يبدو..!

عليك أن تفكر في راكب طائرة من (لوس أنجلوس) إلى (الرباط) حين يقضي عدة ساعات نائمًا على كرسيه المريح، ثم ما إن يصل إلى محطته حتي يبدأ في التذمر.. تخيل أني ثنيتُ ركبتي خمس عشرة ساعة في هذه الرحلة، ثم اضطررت إلى الوقوف ساعة أخرى في المطار حين وصلت.. فنبدأ نحن في الرثاء لحاله بحق، لقد تحمل الكثير بالفعل..! هذا قبل حتى أن نعلم أن الوجبة التي كان يأكلها كانت باردة والقهوة كانت رديئة ولم يكن الفستق طازجًا.. لقد كانت هذه الرحلة أسوأ رحلة قام بها على الإطلاق..

برغم أن الرحلة التي قطعها في شطر اليوم اعتاد إنسان ما قبل القرن العشرين على أن يقطعها في ستة أشهر على متن قطعة خشب بلهاء تدّعي أنها سفينة مع عواصف ليلية دائمة ودوار بحر لا يمزح، ففقرات عظامه تئنّ من البرد ليلًا ومعدته تلعب الأكروبات صباحًا لتغرق ملابسه بالقيء، ومن آن لآخر ينزلق أحد أولاده إلى الماء، وربما ينجح بعدها في إنقاذه وربما لا، وفي النهاية وباحتمالية لا تتجاوز الخمسين بالمئة تصل سفينته آمنة إلى وجهتها.. لا بد أنه سيكون وقتها قد نسي ما دفعه إلى القدوم إلى هنا أصلًا..! لقد كانت

هذه الرحلة أيضًا أسوأ رحلة قام هو بها على الإطلاق..!

أحيانًا تأتينا فتيات إلى استقبال المستشفى الجامعي بهبوط نفسي حاد، جهازها العصبي الباراسمبثاوي لم يتحمل ألمها العاطفي فأعطى إشارة إلى قلبها أن يبدأ في التكاسل التدريجي المتعمد عن أداء وظيفته وينهي حياة هذه البائسة، هي لا تدّعي، هي بالفعل ضغطها قد وصل إلى حافة الستين وهو أمر خطير بالفعل.. بسؤالها عن السبب تنظر لك بـ (صعبانيّة) وتقول: "أحمد سامي تركني"..!

ولكن ماذا لو لم يكن أحمد سامي تركها..؟ ماذا لو كان تزوجها وقضت معه أحلى قصة حب لمدة سنتين ثم أخذها في رحلة، وتوقف بسيارته على جانب الطريق حتى يشتري لها بعض الفول السوداني الذي تحبه فصدمته سيارة وهو يقطع الطريق فتلقفته سيارة نقل كبيرة في اتجاه الطريق العكسي لتستقر رأسه المقطوعة في النهاية على حجرها وهي في السيارة..؟! ماذا ستفعل حينها..؟ جهازها العصبي لن يفعل شيئًا أكثر مما يفعله بها الآن..! هي استنفذت كل طاقتها ومقدرتها على الحزن في أمر أتفه بكثير من كل المصائب اللذيذة التي قد تصاب بها بعد ذلك..

الفكرة أن الإنسان لديه مقدرة معينة على الحزن لا تتعلق فقط بالحجم الحقيقي لمصائبه ولكن بالطريقة التي ينظر بها إليها..! الطفل الصغير الذي يبكي بحرقة لأنه لم يخرج مع زملائه إلى رحلة مدينة الملاهي يعيش نفس مقدار الحزن الذي تعيشه أنت حين تفشل في زواجك أو عملك.. هو فقط لا يعلم أنه يبالغ الآن..! لم يتعلم بعد كيف يصنّف أحزانه إلى درجات وألوان معينة حسب شدتها لأنه لم يذق مقدارًا كافيًا من هذه الأحزان..! مع الوقت يبدأ في التعلم، وبعد أن يكسر ساقه، ويفقد جدته، ويرسب في الاختبار، ويهاجر صديق عمره إلى (ليبيا)، يبدأ في فهم متى يحزن ومتى يبكي ومتى يتضايق قليلًا ثم ينسى كل شيء..!

الحزن إذن هو ما يعلم الإنسان ألا يحزن..! تأتيه المصيبة فتتربع على عرش آلامه النفسية فعندما يصاب بأعلى منها تنزل الأولى عن عرشها منهزمة وتصبح شيئًا عاديًا يتعايش معه بسهولة..! هذه هي الطريقة التي نعتاد بها على الإسهال والزحام والأرق والحذاء الضيّق ورياح الخماسين وتمزق الرباط الصليبي وكرسي الطائرة المؤلم وخيانة أحمد سامي.. أننا جرّبنا ما هو أسوأ..!

إنها رحمة الله ﷻ القائل لصحابة النبي ﷺ بعد غزوة أحد: ﴿**فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ**﴾ (آل عمران ١٥٣).. الحزن أحيانًا أهم مما يبدو، الحزن أحيانًا يخفّف بعضه بعضًا، الحزن أحيانًا هو أنفى للحزن..!



على أن الشرّ له فوائد أخرى مهمّة، فهو يمثل مع الخير ثنائيّة لا بد منها لكي نفهم كليهما..! لكي نفهم معنى الخير لا بد من أن يكون هناك شر في الوجود..! لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (الشورى ٢٨).. فلن يفهم الناس أبدًا مدى جمال وخيريّة وأهمية المطر النازل من السماء إلا لو جرّبوا قنوط القحط وأسى الجفاف..!

يعرف الأطباء ذلك من مراقبتهم لسلوك الأيونات على جدران الخلايا العصبيّة.. عملية الاستثارة (Depolarization) لا بد من أن يتبعها عملية إعادة لحالة الاستقطاب الساكن (Repolariztion)..! لو انفردت إحدى العمليتين بالوجود لما استطاعت الأعصاب أن تنقل أي إحساس أو حركة..

يعرف علماء الفيزياء ذلك أيضًا، فهم يعرفون أن أي موجة في الوجود من أول أمواج الماء وحتى أمواج الضوء مرورًا بأمواج الراديو و(الميكروويف) فإنها لا بد تتكون من قمم (Crests) تمثّل أعلى نقطة للموجة في هذه اللحظة، وقيعان (Troughs) تمثل أخفض

نقطة لها في تلك اللحظة.. لولا وجود القمم والقيعان ما استمرّت هذه الموجة في الحركة أبدًا..

علماء الاجتماع والاقتصاد يعرفون ذلك أيضًا، فهم يعلمون أن التفاضل في الغنى والفقر بين طبقات المجتمع، والتنوّع في مكاناتهم الاجتماعيّة الذي يجعل منهم عامل النظافة والمهندس والبائع ومصفف الشعر.. هذا التفاوت والتنوّع هو السبيل الوحيد الذي يحفظ لهذا المجتمع توازنه، وتُقضى فيه حاجات البشر، ويرزق الناس بعضهم البعض.. والله ﷻ قد أخبرنا بذلك حين قال ﷻ: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ (الزخرف ٣٢).. ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ (الأنعام ١٦٥)..

الأدباء يعرفون ذلك أيضًا أكثر من أي أحد، فهم يدركون أن ركنا الحياة هما الـ Ups & Downs .. يعرفون أهمية أن يتذكروا وجود (العقدة) في رواياتهم حتى تُحلّ في النهاية فيكون للقصة معنى..!

هذه الثنائيّة لا بد منها كي يوجد للوجود وجود..! لا يمكن أن نحيا في نظام حدّي لأنه سيكون أشبه بعالم أحادي الأبعاد، غير مفهوم، غير مُتخيّل، غير مؤهّل لاحتواء البشر ومعيشتهم.. لا بد من أن يكون هناك (خلف) حتى نفهم وجود (الأمام)، لا بد من أن يكون هناك (تحت) حتى نصدق أن هناك (فوق).. فلا يمكن الاستغناء عن أحد ركني هذه الحياة في ابتلاء الدنيا..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء ٣٥)..



الشرّ قد تكون له فوائد أخرى، مثل أنه قد يكون دليلًا على وجود خير من ورائه..! أن يكون علامة على فرج قريب وأمل آتٍ..! كما كانت تقول (شارلوت برونتي): "أحلك

اللحظات كثيرًا ما تسبق انبلاج الفجر"..! ويقول (إبراهيم بن العباس الصُّولي): "أبى لي إغفاءَ الجفون على القذى ... يقيني أن لا ضيقَ إلا سيُفرَجُ"..!

فبكاء الطفل الرضيع أمر يبعث على القلق والتوتر ويثير العاطفة بشدة، أنت لا تحب لهذا الكائن اللطيف أن يتألم أو يتضايق.. وبرغم ذلك فإن بكاءه من ألذ ما قد تسمعه في لحظة الولادة، حين يصافح بوجهه الصغير دنيانا الأصغر منه، وحين يبدأ بأنفاس متلاحقة وصرخات مرتابة رحلة حياته الأشد تلاحقًا وارتيابًا.. إن بكاءه في تلك اللحظات هو الطبيعة التي لا طبيعة غيرها، وإن نزوله من الرحم صامتًا هادئًا يدل بالأحرى على مشكلة خطيرة في مجراه التنفسي، وتعني أنك قد تفقد حياة هذا الطفل سريعًا..!

ومنظر الدماء أمر مخيف ويثير في النفس الرهبة والارتياع، ولكن حدثني ماذا سيكون شعورك لو جرحت أصبعك جرحًا غائرًا ثم لم تر نقطة واحدة من الدماء..؟ حينها سيكون الأمر أشد رهبة وخوفًا بما لا يقاس.. من المفترض أن تنزل الدماء وإلا كان هذا معناه خلل غير طبيعي في شعيراتك الدموية أو صفائحك البلازميّة..!

والألم الحارق المستفز الذي يعكر مزاج يومك بعدما تخطو بقدمك على مسمار صغير مشاكس هو الأصل.. لو لم تشعر بهذا الألم لكان هذا خبرًا مزعجًا يتمثل أنك في مرحلة متقدمة من مرض السكر أو أنك مصاب بالجذام مثلًا لا قدر الله..!

في سنن الحياة القدريّة نتفهم وندرك أن أذى الألم قد يعني أحيانًا شذى الأمل، وأنه بالعناء قد يقوى الرجاء، وأننا قد نستدل على قدوم اليسر بما نلاقيه من العسر..

مثلما يقول الله ﷻ: ﴿**فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ**﴾ (الروم ٤٨-٥٠).. شعروا بآثار رحمة الله حين أنزل الله عليهم المطر بعد اليأس من نزوله..

نعم.. انظر إلى آثار رحمة الله..!



إذن في معرض تصفحنا لإجابات القرآن عن سؤال وجود الشر يتضح لنا أن النظرة القرآنية إلى الحياة الدنيا —ومن ثمّ آلامها- هي نظرة دونية بحق إذا ما قورنت بنظرتنا للآخرة، وبأن هذه الدنيا لم تُعد كي تكون دار رفاهية ودلال، وإنما كانت دار اختبار وابتلاء ومشقة وعناء وتعب..!

ثم نلاحظ أننا لو دققنا النظر أكثر لوجدنا أن النعم والمنن أكثر بما لا يقاس من البلاءات والحرمان، وأنها كانت أسبق وصولًا لنا من الله ﷻ، تلك المنن التي هي محض تفضل من الله ﷻ بالمناسبة وليست لاستحقاق منا لها أو إيجابًا منا على الله..!

ناهيك عن أن القرآن يوضح لنا أيضًا أن الكثير من الشر الذي نراه ليس شرًا أصلًا، وإنما نحسبه كذلك لأننا على قدر عظيم من الجهل والتغييب عن حقائق وبواطن الأمور، بينما الله ﷻ العليم يعلم ما في الغيوب..

وأما هذه الشرور التي هي بالفعل شرور، فيذكرك القرآن بأنها ليست منفكة عن حكمة الله ﷻ التي قد تتنوع ما بين إدراك الرحمة بمن يُبتلى بها، بأن يكون هذا الشر خيرًا له في مآله، وبين التمحيص والتفريق بين الناس واختبار صدقهم ومبادئهم، وبين الإنذار الإلهي لأصحاب الإفساد في الأرض، وبين تكفير الذنوب، وبين رفعة الدرجات للصالحين الصابرين على ما يصيبهم من الله ﷻ..

والشرور التي هي من فعل وصنع الإنسان لأخيه الإنسان إنما نتجت كضريبة لحرية الإرادة البشرية، تلك الحرية التي لو انتفت أو تم توجيهها في اتجاه واحد لكان هذا معناه انتفاء الداعي لخلق البشر بعد وجود الملائكة الأخيار.. وهذا الفساد والشر الإنساني لم

يتركنا الله ﷻ له وحدنا من دون أن يتدخل بشرعه للنهي عنه بكافة السبل..

ثم أن القرآن يذكرك بأن الله ﷻ هو من هدانا للقيم وللأخلاق ولمعنى الحق والباطل، والخير والشر، فوجود معنى الشر بداخلك أصلًا إنما يدل على وجود الله ﷻ وليس العكس..

وآخر ما ذكرنا من إجابة القرآن عن سؤال الشر، هو تذكير القرآن لنا بأهمية هذه الشرور والأحزان والآلام في الدنيا، تلك الشرور التي بدونها لن يكون هناك للوجود وجود، ولا للحياة معنى..

القرآن قد أجاد —كالعادة– أن يجيبنا عن سؤال الشر بطريقة كافية وافية، ولا عجب في ذلك إذ أنها في الأصل مشكلة مستوردة لا يستشكلها العقل المسلم الذي يعلم أننا لسنا بأحباب الله ﷻ ولا أبنائه، وأن الله لم يتعهد لنا بمنع الشرور عن أن تصيبنا، بل لله الأمر من قبل ومن بعد، ومنه وإليه سبحانه كل شيء، ومردنا إليه يوم القيامة بعد أن كان بصيرًا بما كنا عاملين..!

الطريقة

(عن النبوّات والوحي والرسالة)

ورد في مجموعة أمثال (راي) المكتوبة عام ١٦٧٠ المثل الإنجليزي القائل:

"A bad workman quarrels with his tools".

أي أن الصانع السيء سوف يتشاجر دومًا مع أدواته ووسائله ويلقي باللوم عليها، إذ إنها في نظره ستكون السبب في فشله، وليست مهاراته الناقصة..

وهناك مثل ياباني يقول: "تشير إلى القمر، فيحملق الأحمق في إصبعك"..! وهذا لأن الأحمق سوف يتشاجر هذه المرة مع أدواتك أنت..! وسوف ينسى القمر الذي تشير إليه، ويحملق في إصبعك الذي تشير به..

لم يتركنا العرب من غير أن يدُلوا بدلوْ أمثالهم في هذه المسألة، فنقلوا لنا القول الخالد: "كل لبيب بالإشارة يفهم".. وقال (الفلتان الفهميّ): "العبد يُقرعُ بالعصا، والحرّ تكفيه الإشارة"..!



وضّح لنا القرآن أن أمر الإيمان بالله ﷻ وبوحدانيّته إنما هو في الحقيقة يلمع في الوجدان البشري الطبيعي الذي لم يظلم نفسه بتعمّد إخفاء حقائق الوجود عنها..! هذا اللمعان قد لا يحتاج في الواقع إلا مجرّد (تذكير) منه سبحانه بإرساله للرسل..

لذلك نجد القرآن قد عبّر عن مهمة الأنبياء بـ (التذكير)، فيقول الله ﷻ: ﴿**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ**﴾ (الأنعام ٧٠).. ويقول ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ (الكهف ٥٧).. ﴿**بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ**﴾ (الصافات ١٢-١٣)..!

لذلك فالباحث -بحق- عن الحقيقة لن يهتم كثيرًا بشخص من يشير له إليها، بقدر اهتمامه بالحقيقة نفسها.. لن يقف كثيرًا عند شخص النبي أو الرسول الذي أرسله الله إليه بقدر وقوفه على القضيّة ذاتها التي أُرسِلَ بها هذا الرسول..! لذلك يحكي لنا القرآن هذه

المفارقة والمقارنة بين حال هذا وحال ذاك، فيقول: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ (يونس ٢)..

فالمؤمن قد آمن بما جاء به (الرجل) لأن قضيته تشرح نفسها من وضوحها وقوتها وجلائها، وأما الكافر فنظر إلى الرجل ليصيح بذكاء: هذا ساحر مبين..! فماذا عن الرسالة التي جاء بها إذن أيها الذكيّ..؟!

ولذلك نجد الآية تصف حال المؤمن الذي يدعو ربه ويقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ (آل عمران ١٩٣).. وتجد الملائكة توبّخ الكافرين يوم القيامة فتقول لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ (الزمر ٧١).. وتسمع قول الله ﷻ حين يقول: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف ٦٣)..

(مناديًا – رسل – رجل) هكذا في هذه الآيات ذُكِرَت بدون أوصاف أو تقييدات أو استطراد لذكر دلائل نبوّتهم..! دائمًا فالاهتمام منصبّ على وضوح وقوة وصلاحية القضية التي يدعون إليها، أكثر بكثير من الذي يدعوهم إليها..! كما يقول جَلَّ جَلَالُهُ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المؤمنون ٧٣)..

هذه القضيّة التي لم يدخر هؤلاء الرسل جهدًا في توضيح صلاحها وهدايتها.. هم لم يدعوا إلى أنفسهم، ولم يدعوا إلى قضيّة غريبة أو مستهجنة أو خالية من الدلالات العقليّة الخاصة عليها..

لذلك تستمع في القرآن إلى هذا الرسول وهو يصف (نُبل) قضيّته فيقول: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ (هود ٨٨).. أو تستمع إلى ذاك الرسول وهو يصف (قوة) قضيته فيقول: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ (الزخرف ٢٤)..

أو تستمع إلى القول الذي أمر الله نبيه محمد ﷺ أن يقوله: ﴿**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ (الأعراف ١٥٨).. وهو يؤكد أنه ليس طرفًا في المعادلة، وليس غاية مقصودة لذاتها، وإنما هناك ما هو أهم منه بكثير..! مثلما قال عيسى عليه السلام من قبل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾ (آل عمران ٥١)..



فإن من يكفر بهم يكون علينا أن نسأله: وهل آمنت بما جاءوا به من طريق آخر مثلًا..؟! يعني أنت رفضت رسالتهم لأنك لم تقنع بهم، أو بهيئاتهم، أو بفلسفتهم، أو بمعجزاتهم.. ثم آمنت بعد ذلك بإله خالق واحد يستحق العبادة، وبيوم المعاد والبعث..؟؟

لا، لم يحدث.. في الحقيقة أنت رفضت (القضية) قبل أن ترفض (حاملها)، أنت كفرت بـ (الإله) قبل أن تكفر بـ (رسله)، أنت عاندت أهم حقيقة في هذا الوجود لأنك كنت من الحماقة بمكان تجعلك تحدّق في إصبع من يشير لك إلى القمر، من دون أن تفطن إلى أن هذا لا يغيّر من حقيقة وجود القمر في شيء..!

لذلك فالله عز وجل قد حكم على هؤلاء ﴿**الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ (النساء ١٥٠) بأنهم هم الكافرون حقًا.. لا لأن صنيعهم كان انتقاصًا من قدر هذا البشري الذي أرسله الله رسولًا لهم، ولكن لأن صنيعهم كان انتقاصًا من قدره هو ذاته سبحانه..! كما يقول جل جلاله: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام ٩١)..

وبرغم ذلك، فإن القرآن سيجيبنا عن أسئلتنا الخاصة بأشخاص هؤلاء الأنبياء والرسل.. صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين..

١- أمة واحدة..

كوّن (لويس باستير) عالم الكيمياء الفرنسي و(روبرت كوخ) الطبيب الألماني ثنائيًا متكاملًا في علم البكتيريا واستطاع الأول قهر مرض الكَلَب، واستطاع الثاني أن يتحدّى الدرن.. برغم ذلك كانت بينهما خلافات قويّة لدرجة تبادل الاتهامات والتراشق بالألفاظ أحيانًا في المؤتمرات العلمية..!

ما كان يحدث بين الأدباء أشد من ذلك، ولا يقتصر ذلك على السجالات الأدبية الشهيرة مثل تلك التي كانت بين (جرير) و(الفرزدق).. ولكن يمكنك أيضًا أن تفتح كتاب (المعارك الأدبية في مصر) لـ (أنور الجندي) لتفطن إلى مدى الاستنفاد الزمني الذي مرّت به السجالات الأدبية في العصر الحديث في مساحة جغرافيّة محدودة كمصر، تشمل معارك مرّ بها أدباء كبار مثل زكي مبارك والمازني والعقاد وطه حسين وغيرهم..!

كعادة العامّة –الذين يحملون في باطنهم الكثير من الحكمة– قد لخّصوا لنا هذه الظاهرة في قولهم: (عدوّك ابن كارك).. أي أن من يقوم بنفس مهنتك سوف يكون عدوّك لا شعوريًّا..! وهو أمر يمكنك التأكد منه حين تلاحظ النظرات المتحسّرة ومصمصة الشفاه التي يقوم بها المحامي حين يقرأ عقدًا كتبه محامٍ آخر، أو التلميحات المستمرّة من طبيبك لك بأن الطبيب السابق الذي كان يعالجك هو سبب كل المشاكل الصحية التي تمرّ بها الآن من أول إصبعك المتورّم وحتى مشاكلك العاطفيّة الخاصة..!

حتى بين علماء الفقه الإسلامي كانت الخلافات شديدة وشخصيّة في كثير من الأحيان، وقليلًا ما كان يسلم عالم من أن يشتهر بخلاف مع أحدهم، مثل الخلافات التي كانت بين الإمام الفقيه (مالك بن أنس) والمؤرّخ وعالم السيرة (ابن إسحاق) وهي خلافات غير مفهومة السبب بالنسبة لمحللي التاريخ الإسلامي..! ولكنها على كل حال تبقى مثالًا على طبيعة النفوس البشريّة التي تشوبها الضغائن وبغض النظر عن مدى علوّ ونفاسة هذه النفوس..!

وكلما كانت الوظيفة تشمل استقطاب الناس وجذبهم والتفاف الناس حول صاحبها، كانت الخلافات أشدّ.. لذلك فإن فئة الساسة مثلًا سوف تشمل أكبر عدد ممكن من الأمثلة على هذه الضغائن والخلافات، مما سيكون من السخف أن نذكر مثالًا على ذلك أو اثنين، لأن كلًا منا يعرف وحده عشرات الأمثلة..!

يبقى أصحاب الفئة الوظيفيّة الوحيدة التي خلت من هذه الظاهرة هم الأنبياء، والذين كانوا أدعى الناس لذلك لو كانوا يدعون إلى أنفسهم..! هؤلاء الأنبياء الذين لم يكتفوا بأن لم يُذكر عن أحدهم ولو مثال واحد بأي سند تاريخي ممكن عن انتقاص وجّهه لنبي آخر.. ولكن أيضًا كانوا يصدّقون بعضهم البعض ويمدحون بعضهم البعض ويعظّمون بعضهم البعض..

يذكّرك القرآن بهذه الحقيقة التاريخية حين نسمع قول عيسى عليه السلام عن الكتاب الذي جاء به أخيه موسى عليه السلام: ﴿**وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾ (آل عمران ٥٠).. أو تسمع قول مؤمن آل فرعون التابع لرسالة موسى عليه السلام وهو يتذكر رسالة يوسف عليه السلام ويذكّر قومه بها: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ (غافر ٣٤).. أو تسمع قول شعيب عليه السلام وهو يذكّر قومه برسالات أنبياء لم يكن بينه وبينهم علاقة دم أو نسب، ولكنهم كانوا إخوانه في الدعوة الواحدة: ﴿**لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**﴾ (هود ٨٩)..

لذلك فالمسلمون لا يفرّقون بين هؤلاء الرسل.. بالنسبة إليهم، فهم جميعًا حاملو رسالات السماء الذين لا يستحقون منهم إلا الاحترام والتوقير والتعظيم.. ولو كفر واحد من المسلمين بـ عيسى ابن مريم عليهما السلام لخرج من دين الإسلام بنفس السرعة التي سيخرج بها لو كان قد كفر بمحمد عليه السلام..!

ربما لهذا اندهش ساسة الغرب من المظاهرات التي ملأت البلاد المسلمة اعتراضًا على

(آلام السيد المسيح) لأنه أهان المسيح ﵇.. اندهشوا بمنطق: وما شأنكم أنتم به..؟! ولم يعرفوا أن المسلمين يؤمنون بالآية: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾ (البقرة ١٣٦).. وأن هذا القرآن قد ربّاهم على أن: ﴿**هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء ٩٢)..!

مثلما فعل النبي محمد ﷺ من قبل، في القصة التي ذكرها البخاريّ في صحيحه، لما رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء احتفالًا بنجاة موسى ﵇ من فرعون في هذا اليوم، فصامه وقال: نحن أحق بموسى منكم..!



ولأنهم من بعضهم البعض، ويشبهون بعضهم البعض، كانت رسالتهم واحدة في مجملها، كانت تدعو إلى شيء موحّد بدورها..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء ٢٥).. وحكى القرآن لنا كيف أن وحدة رسالتهم كانت من القوة بمكان ما جعل القرآن يعبر عن هذه الرسالات (مختلفة اللغات والظروف) بنفس التعبير اللغوي العربي القرآني في سورة الشعراء، حيث ذكرت لنا السورة أن جميع الرسل المذكورين فيها تقريبًا قد قالوا نفس الكلمات تمامًا بلا خلاف في حرف واحد..! وهي: ﴿**أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الشعراء ١٠٦–١٠٩) (الشعراء ١٢٤–١٢٧) (الشعراء ١٤٢–١٤٥) (الشعراء ١٦١–١٦٤) (الشعراء ١٧٧–١٨٠)..!!

هذه الوحدة بين الأنبياء كانت بسبب وحدة المصدر الذي أُرسِلَ إليهم منه..! معنى ذلك أن الله ﷿ –ومنذ أن خلق البشرية– قد اختار طريقة موحّدة للاتصال الإلهي/البشري..! هذه الطريقة لم يعرف البشر غيرها، واطّردوا عليها.. ولذلك لم نسمع طوال

حياتنا عن طريقة أخرى تواصل بها معنا الله غير طريقة الأنبياء والمرسلين..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل ٤٣)..



ونبوّة النبي محمد ﷺ كانت واحدة من هذه الرسالات التي لم يعرف البشر طريقًا غيرها، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ (آل عمران ١٤٤).. بل وتعجب القرآن من هؤلاء الذين رفضوا رسالة محمد ﷺ وكأنه قد أتاهم بشيء جديد..! أو بوسيلة غير معتادة..! أو كأنه قد خرق ذلك الاطّراد التاريخي، وهذه الطريقة الموحّدة التي كانت في آبائنا الأولين..! فيقول الله ﷻ: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ (المؤمنون ٦٨)..

لذلك كان رد النجاشيّ ملك الحبشة الذي كان نصرانيًّا، لما سمع آيات القرآن التي أُنزِلَت على محمد ﷺ، أن قال: "والله إن خرج هذا الأمر إلا من المشكاة التي خرج منها أمر عيسى عليه السلام"..!



لماذا نصدّق بالأنبياء والرسل..؟؟!

لأنه لو كان ثمّة إلهٌ هناك وقد خلقنا لغاية يريد أن يعلمنا بها فالتاريخ يخبرنا بأن هذه هي طريقته في ذلك..! ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ (الحج ٧٥)..

لأن هؤلاء العباد المصطفيْن الأخيار قاموا بما هو متوقع منهم تمامًا بالنسبة لمجموعة من (موصّلي الرسائل الإلهية)، قاموا بإنكار أنفسهم، وكانوا أمةً واحدةً..!

٢- هم..!

لو كنتَ تعرف (ديل كارنيجي) فإنك على الأرجح قد سمعت به من خلال كتب تنمية الذات خاصته، مثل كتاب (دع القلق وابدأ في الحياة) وكتاب (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس) هذان كتابان أشهر من نار على علم، واستحوذا على معظم شهرة كارنيجي الذي يُعدّ بحق الأب الروحي لهذا الفرع من المعرفة..

على أن كارنيجي له كتاب آخر على منوال مختلف واسمه (المشاهير) ويهدف فيه إلى ٢٥ شخصية عالمية غيرت التاريخ من وجهة نظره ليعرض مقتطفات سريعة من حياتهم..

الملاحظ في هذا الكتاب أنه كان يخلط (الشهرة والتأثير) بـ (طيبة) هذا الإنسان نفسه..! وطوال الكتاب ينتابك العجب من ذلك السلوك حتى إنه يصف (ستالين) بأنه ترك القصر الإمبراطوري وسكن في شقة صغيرة كان يقطنها أحد خدم القيصر من قبل.. فتجعلك تقول: يا له من شخص لطيف..!

بينما الحقيقة فعلًا عن ستالين، هي ما تقوله عنه ابنته الخاصة والوحيدة: (سفيتلانا ستالين) حيث تقول: "أبي كان بسيطًا جدًا، وقحًا جدًا، قاسيًا جدًا"..! إنه كان من أكبر سفلة المجرمين في التاريخ..! كما ذكرت مجلة (لوبوان الفرنسية) في دراسة خاصة بعنوان (الأربعة الدمويون) أن (ستالين) هو أكبر طاغية في التاريخ فقد تسبب بوفاة أكثر من ٥٠ مليون إنسان بين عامي ١٩٢٧ و١٩٥٣.. وحتى إن كانت المجلة الفرنسية قد بالغت، فعدد قتلاه يتم حسابه بالملايين في أكثر الدراسات تعاطفًا معه ورقّة..!

ما فعله (كارنيجي) يفعله الكثيرون من الناس الذين لا يميّزون بين قوة تأثير إنسان ما، وبين ما كان عليه هذا الإنسان في نفسه من القيم والأخلاق ومعامل الجودة الإنسانيّة التي فطر الله ﷻ الناس عليها وعلى حبها في البشر..!

هذان طرفان مختلفان تمامًا في التقييم، وليسا بالضرورة يجتمعان..! ف (ديزني) صاحب الرسوم المبهجة والذي عرّفنا بعوالم مدينة البط السعيدة، هو في الواقع الحقيقي أقرب لمصاص دماء، استمدّ أمواله وشهرته من جهد آلاف الرسامين الصغار الذين لم يُنسب لهم شيء من أعمالهم..! و(أديسون) الذي تعرفه البشريّة كلها بأنه قد غيّر تاريخنا بمصباحه الكهربائي وبمئات الاختراعات الأخرى، قد (سرق) في الواقع الكثير من أعمال مخترعين آخرين أقل منه في الشهرة..! وبينما كان (نيكولا تسلا) هو المخترع الحقيقي للراديو الذي سرق منه (ماركوني) فكرته ونسبها إلى نفسه.. وبمناسبة (ماركوني) فهو كان في كتاب كارنيجي أيضًا ويظهره كشخص عبقري أمين آخر..!

وأما الأنبياء والرسل فقد حازوا على نصيب الأسد في كل من طرفي هذا التقييم.. فهم كانوا على قدر هائل من التأثير البشري، وكانوا أيضًا على قدر عظيم من الأخلاق والقيم والسيرة الذاتية العطرة والذمّة ناصعة البياض..!



يذكرنا القرآن بذمّة الأنبياء والرسل التي هي محفوظة لم تُمسّ في اللحظة التي شهد لهم التاريخ فيها أنهم قد امتنعوا تمامًا عن أي (مكاسب) مادية أو معنوية أن تصير لهم..! كما يقول مؤمن آل ياسين لقومه عن الرسل: ﴿**اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ (يس ٢١).. اتبعوا أصحاب الذمّة السليمة والأخلاق الحسنة والسيرة العطرة..

لم يقتصر الأمر على الذمّة المالية والاجتماعيّة فقط، ولكن هناك أيضًا الذمّة الأخلاقية، مثل تلك التي اشتهر بها النبي محمد ﷺ وسط قومه الذين كانوا على علم بأنه لم يشرب الخمر ولم يخن العهد ولم يكذب أو يظلم أو يسبّ أو يفحش أو يدخل أحد بيوت البغاء التي كانت تملأ مكة..!

هذا النبي الذي كانوا يعرفون تمامًا صدق القرآن حين قال عنه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ**

﴿عَظِيمٍ﴾ (ن ٤).. لذلك كان التساؤل القرآني شديدًا عليهم حين طالبهم بإعمال عقلهم الذي يشهد لهم بالتاريخ الحميد لهذا الرجل بما يتعارض مع جرم ادّعاء النبوة، كما يقول ﷻ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ (المؤمنون ٦٩)..؟!



وهناك جانب آخر من براءة هذه الذمّة ، وهو انتفاء المكاسب الدنيوية..!

فلو كان هذا النبي أو ذاك يريد أن يعلو على قومه لما اختار أن يعادي كبراء القوم كل هذا العداء، ما كان اختار أن تكون دعوته من النوع الذي يحبه ضعفاء القوم المطحونين في رحى الحياة أكثر من المترفين المدللين الذين يملكون المال والجاه والشرف..! لذلك ما حدث هو بالفعل ضد ذلك.. لم يفوزوا إلا بمعاداة قومهم لهم، كما قيل لصالح عليه السلام: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ (هود ٦٢).. وقيل لشعيب عليه السلام: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود ٨٧).. استهزاءً وكأنهم يقولون: إنك لأنت السفيه الضال..!

لو كان الأنبياء يريدون ذلك لوافقوا هؤلاء على حلول وسيطة على طاولة المفاوضات..! لوافق النبي محمد ﷺ على طلبهم بتبديل بعض الآيات التي لم يحبها أشراف القوم في القرآن..! ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس ١٥)..

لو كان هو من ألف القرآن لكان استجاب لهم بالتبديل والحذف لما يريدون، وحينها لم يكن سيشرّد في بقاع الأرض بين حرب وهجرة وفقر وتجريح بسبب هذه المعاداة، بل كان

سيكون الصديق والشريف والحبيب في قومه، وتفد إليه كل قبائل العرب تتعلم منه وتقدسه، وهو مرتاح على أريكته يأكل الضأن والثريد، فقط لو أنه بدّل بعض أبيات شعره بأخرى..! في المقابل يقول الله ﷻ: ﴿**وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا**﴾ (الإسراء ٧٣)..

فماذا سيستفيد..؟!

ويحكي لنا القرآن تصرّف نوح عليه السلام الذي كان سيكسب أعلى فئات المجتمع غنىً ومكانة وعلوًّا، فقط لو أنه طاوعهم وتخلّص من الفقراء الضعفاء الأراذل من مجلسه، إنها فرصة عظيمة إذن للباحث عن المال أو القوة أو الشهرة أو القبول، ولكن لم يكن له أن يفعل ذلك عليه السلام أو أن يقول غير: ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (هود ٢٩)..

لم يقتصر الأمر على مجرد الزهد في العلوّ وعدم طلبه.. بل لم تكن أصلًا هذه المكانة الاجتماعية الرفيعة التي يقدسها الناس في أعين هؤلاء الرسل شيئًا أمام عظمة الله عز وجل الذي قدّسوه وألّهوه ولم يروا سواه.. كما يحكي لنا القرآن رد شعيب عليه السلام لما قال له قومه: ﴿**وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ**﴾ (هود ٩١).. أي لولا قدر عشيرتك وأهلك، واسمك الذي تحمله، ومكانتك الاجتماعية بيننا، لولا ذلك لكنّا رجمناك..! كان رده عليهم: ﴿**أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ**﴾ (هود ٩٢)..؟! هذا رجل لا يرى —ولا يريد أن يرى— إلا الله سبحانه وتعالى..!



ليس هذا كل شيء، ولكن مما يدل على صدقهم أنهم آمنوا بأنفسهم كل هذا الإيمان الذي يجعل نفوسهم تتقطّع حزنًا على من لم يؤمنوا برسالتهم..! إن كانوا مدّعين، فلم العناء إذن..؟!

هذا الحرص يظهر من تاريخ وسيرة النبي محمد ﷺ، والذي حكى عنه القرآن فقال

ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف ٦).. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ٣).. وباخعٌ: أي مهلك..

هذا الحرص والألم الداخلي كان سمة عامة بينهم جميعًا، حتى إن صالحًا ﵇ وبعد أن أهلك الله قومه الذين عاندوه وآذوه، وقف على آثارهم وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف ٧٩).. وهو قريب مما قاله شعيب ﵇ في نفس الموقف: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف ٩٣).. ويحكي لنا القرآن عن نوح ﵇ الذي قال عن قومه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ (نوح ٥-٧).. لم كان العناء..؟!

كانوا يحرصون عليهم كما يحرصون على أنفسهم، كانوا يريدون أكثر ما يريدون في هذه الحياة الدنيا أن ينقذوهم من مصير مظلم كانوا موقنين به، ولم يره هؤلاء..! هذه الرأفة البادية والرحمة المستمرة بهم، إنما تصلح دليلًا مستقلًا على صدق ما يدعونهم إليه..! كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨)..



هم الذين لم يطلبوا أجرًا ولا جاهًا ولا منزلة.. هم الذين كانت تعاليمهم أعظم عندهم من أنفسهم، وكانت أخلاقهم أسبق لدينا من شهرتهم.. هم الذين فرّطوا في الكثير من الفرص للفرار من المعاداة، وفرّطوا في فرص أكثر منها ليكونوا أحباب الشعب وأبطال الحضارة والتغيير..! هم الذين لم يدفعهم كل هذا البخس لكرامتهم المعتادة وكل هذا الظلم لمكانتهم الحقيقية على أن يكونوا غلاظ القلوب، قساة الأنفس، مسلوبي الرأفة..!

هم دعاة الرحمة، هم أساتذة الصبر، هم فرسان الأناة..! هم اختيارات الله الذي يعلم

ما في صدور العالمين.. هم رسل ربي صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين..

٣- بشريّون..!

يحكي (أنيس منصور) في كتابه (حول العالم في ٢٠٠ يوم) عن رحلته التي قام بها للقاء الدلاي لاما الرابع عشر (تينزن جياستو) زعيم التبت (وإلههم) والذي طردته الحكومة الصينية إلى الهند بعد احتلالها للتبت في أوائل الخمسينات، تينزن يبلغ من العمر الثمانين عامًا الآن ولكنه وقت رحلة أنيس منصور كان شابًا ثلاثينيًا نحيلًا ومع ذلك يؤمن قومه أنه خليفة الإله يمشي على الأرض..

يحكي لك كيف وقف الريفيون البوذيون البسطاء أمام شرفة الدلاي لاما بالساعات كي يخرج عليهم ليتمتم بكلمات غامضة سريعة ثم يرحل وكلهم هناء وسرور أن تفضّل عليهم الإله بالخروج عليهم من (البلكونة) ويلقي عليهم ببركات كلماته، ثم يحكي لك الأستاذ أنيس كيف أنه قد نال شرفًا لا يتخيله أحد هؤلاء القوم بأن وضع الدلاي لاما يده على أرنبة أنفه في أول اللقاء، وبعد أن جلس لاحظ الأستاذ أنيس أن ساق الدلاي لاما كانت مليئة بالدمامل وعليها آثار الحكّ، وهذا يعني أن يده المباركة التي وضعها على أنفه نقلت له كل جراثيم الدنيا..! وكانت هذه الذكرى المقززة من أقوى ذكرياته في هذا اللقاء..!

إن ما يقوم به الدلاي لاما يشبه ما يقوم به الدجّالون في بلادنا المسلمة الذين يقنعون العامة أن لهم فضلًا ما يجعلهم يستطيعون أن يرزقوك بالولد الذي تحلم به ولكن عليك أولًا أن تتبرع بعدة آلاف من الجنيهات.. على ما يبدو بركات سيدنا الشيخ لا تعمل إلا بوضع العملة، مثل كبائن هاتف الشوارع..!

على أن كل هذا ليس بشيء أمام ما كانت تقوم به الكنيسة الكاثوليكية في النصف

الأول من الألفية السابقة، حيث انتشرت فكرة (صكوك) الغفران الإلهي التي يمنحها رجال الدين النصراني إلى الكرماء الذين يغدقون الكنيسة بأموالهم..! من جديد هم يوزّعون البركات الإلهية على حسب هواهم.. وكانت أمثال هذه التصرّفات هي ما دفع (مارتن لوثر) إلى الثورة على الكاثوليكية والدعوة إلى البروتستانتية والتي تقلّص من حجم تأثير رجال الدين في الدين والسياسة..!

دائمًا وأبدًا كان من عادة الدجاجلة على اختلاف دياناتهم، استغلال الدين للتمسّح بصفات الإله وادّعاء القدرة على دفع الضرر وجلب المنافع.. ومن الغريب أن أدعى الناس لفعل ذلك (الأنبياء أنفسهم) كانوا في حالة إنكار تام للذات، بحيث لم يدّخروا جهدًا في إقرار وتكرار أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم..! أنهم لا يعلمون إلا ما يُعلّمهم الله إياه.. أنهم مجرد بشر مثلنا مثلهم..

كما أمر الله ﷻ نبيه محمد ﷺ أن يقول: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف ١٨٨).. وكما يقول نوح عليه السلام: ﴿**وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ (هود ٣١)..

الأنبياء يقررون أنهم مساكين تمامًا، لم يدّعوا أنهم على علم بما يحدث لنا غدًا، بل هم ليسوا على علم بما يحدث لهم هم، وهم لا يخجلون أبدًا من هذه الحقيقة..! ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ (الأحقاف ٩)..

هذا الفقر المطّرد، وهذا الاعتراف بالضعف، بسبب أنهم مجرد بشر، يفعلون ما يفعله البشر: ﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ**﴾ (الأنبياء ٨).. ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ (فصلت ٦)..

꧁꧂

وكان لا بد من أن يكونوا بشرًا وليسوا ملائكة مثلًا.. لسبب بسيط، أنك في المعتاد لا يحدث أن تقابل ملاكًا يمشي على الأرض فتتمنى له صباحًا سعيدًا وتكمل طريقك إلى عملك..! لا، بل لو كان هناك ملاكٌ على الأرض لكان هذا خارقًا لكل ما هو معتاد أو معروف لدى البشر..! كما يقول ﷻ: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۞ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا**﴾ (الإسراء ٩٤–٩٥).. يعني وقتها سيخرج الإيمان بهذا الرسول المَلَك من نطاق (الغيب) إلى نطاق (الشهادة).. وقد سبق ووضّحنا في فصل سابق كيف أن الإيمان لا بد وأن يكون بالغيب لا بالشهادة..!

لا بد أن يكونوا بشرًا، لأنك تحتاج إلى نبي يتكلم بنفس لغتك ومصطلحاتك الدارجة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ**﴾ (إبراهيم ٤).. فلو كان هذا النبي من جنس خلقي آخر أصلًا، لواجهت بعض الصعوبة في ذلك..!

لا بد أن يكونوا بشرًا لأن بشريّتهم ستوقعهم في الخطأ..! كما أخطأ النبي محمد ﷺ وعاتبه القرآن في عدة مواضع: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ (الأحزاب ٣٧).. ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**﴾ (عبس ١–٣).. ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**﴾ (التوبة ٤٣).. وحينها سيتسنى لك أن ترى كيف يتعامل البشري الصالح مع الله ﷻ حين يخطئ، وكيف يتعامل الله معه..! سوف ترى كيف هي رحمة الله ﷻ وعفوه، وكيف هو خوف النبي ﷺ ورهبته من خطئه..!

لا بد أن يكونوا بشرًا محدودي القدرات كغيرهم من البشر، مثلما قال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ**

سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ (الأنعام ٣٥).. أي أنك لن تستطيع أن تأتي بهذا النفق الأرضي أو السلم السمائي، ولن تستطيع أن تأتيهم بما يطالبونك به: **﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾** (الأنعام ٥٧).. لا بد من ذلك حتى ندرك من هذه الإمكانيّات المحدودة أنه وبرغم كونهم قد صاروا أنبياء إلا أن هذا لن يجعلهم أبدًا يشاركون الله ﷻ في ملكه، أو إرادته، أو قدرته، أو علمه، ﷻ عن كل شريك أو منازع..!

لا بد أن يكونوا بشرًا ممّن خلق ليست لهم من المكانة والمنزلة عنده أكثر من أن يكونوا مجرد عباد صالحين له سبحانه.. كما يقول الله ﷻ عنهم: **﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (الأنعام ٨٨).. **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾** (الفرقان ١).. لا بد من أن يكونوا كذلك حتى ندرك أن مكانتهم السامية بين خلقه، ومنزلتهم الرفيعة عنده، لن تعفيهم من أن يكونوا لله ذليلين، له منقادين، ليس لهم عليه سلطان، ولم يتخذ منهم أحدًا وليًا من الذل..!

كان لا بد أن يكونوا بشرًا، حتى نعرف نحن من هو الله حقًا..!

٤- الأدلة..!

أتبسّم في كل مرة أقرأ فيها هذه الحكاية التي أعشقها: ففي السيرة النبوية لابن هشام أن (العباس بن مرداس) الشاعر أتى النبي محمدًا ﷺ فقال له ﷺ: أنت القائل: "فأصبح
نهبي ونهب الـ   عبيد بين الأقرع وعيينة"..؟؟

فقال (أبو بكر الصديق) يصحّح الخطأ الشعري الموسيقي الذي وقع فيه النبي محمد ﷺ: "بين عيينة والأقرع" فقال ﷺ: "هما واحد"، فقال أبو بكر: "أشهد أنك كما قال الله:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (يس ٦٩).."!!

وأعجب من ذلك، حين تقرأ تفسيرات وتأويلات وخلافات علماء الإسلام في ذكر لغز الواقعة المذكورة في صحيحي البخاري ومسلم أن النبي محمدًا ﷺ نادى على أصحابه وقال لهم: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"..! فقال (الأخفش) في محاولة تفسير ذلك اللغز: أن الرجز ليس بشعر.. وقال (المازري) و(ابن القطاع): أن الرجز شعر، ولكن المقطوعات الكلاميّة الموزونة في كلام الناس غير المقصود نظمها في قصيدة –كحال هذا الحديث– ليست شعرًا.. بينما أتى علماء آخرون بأدلة تؤكد أن هذا النظم لم يكن من نظم النبي ﷺ نفسه ولكن كان يتمثل كلام أحد أصحابه قاله له..!

وعلى كل حال، فلا يعنينا ذلك الآن بقدر ما يعنينا أن نفهم لماذا كان هذا الكلام من النبي ﷺ لغزًا عند علماء الإسلام إلى هذا الحد..؟!

الحقيقة أن السر في ذلك أن أحدًا لم ينقل في التاريخ ولا السيرة كلها –التي نقلت الشاردة والواردة من كلام النبي محمد ﷺ– أن النبي قد نظم شعرًا قطّ أو كان يقدر على نظمه أصلًا لو أراد..!

إلى هذا الحد يبلغ الاطّراد التاريخي على ذلك..! للدرجة التي جعلت هذه الكلمات المقفّاة اليسيرة –التي يحسنها معظم الناس ممّن ليسوا بشعراء– تثير كل هذا العجب والاستشكال لدى علماء السيرة والحديث..!



هناك اطّراد تاريخي آخر بخصوص النبي محمد ﷺ يتعلق بأميّته وعدم قدرته على القراءة أو الكتابة.. هل لك أن تتخيل رجلًا يحاول أن يخدع الناس بأنه لا يقرأ ولا يكتب ثم ينجح في هذا من دون أن يراه أحدهم ولو مرة واحدة وهو يقرأ شيئًا سهوًا..؟! ينبهنا القرآن على

أن هذا لم يحدث في الحقيقة قط..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (العنكبوت ٤٨)..

فنحن إذن أمام رجل لا يستطيع أن ينظم بيتًا واحدًا من الشعر ولا يستطيع القراءة ولا الكتابة ولا المراسلة.. وعاش على ذلك أربعين عامًا من دون أن يسمع الناس عنه شيئًا ولا يلاحظوا عليه أي طموح للظهور أو أي رغبة في الخطابة والقيادة.. لم يكن يحب ولا يجيد إلا الاعتزال في غار للتأمل، والتجارة لكسب العيش، وحياة سعيدة هادئة وهانئة مع زوجته خديجة رضي الله عنها.. ثم فجأة يظهر لنا بكتاب معجز فصيح رائع لغويًا وبيانيًا وتاريخيًا..! من جديد فالقرآن ينبهنا على أن هذا أمر يحتاج إلى مزيد انتباه منّا.. حين يقول الله ﷻ: ﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (يونس ١٦).. إذ لماذا انتظرتُ إلى هذه اللحظة حتى أعلن فيها كل هذه المواهب الدفينة وبشكل مفاجئ وصادم ومثير للعجب..؟!



ثق تمامًا أن هذا القرآن لو لم يكن على قدر رهيب من البلاغة والإتقان ما كانت صناديد قريش اللغوية —والذين كانوا أحرص الناس على إحراج النبي محمد ﷺ وانتقاص دعوته— تركت الفرصة إلا واستغلتها لتشهّر بهذا الخطأ أو تلك الركاكة في هذا الكتاب الذي سبب لهم الكثير من المشاكل والحروب والصراعات..! بل وتحداهم القرآن أكثر من مرة وبشكل يظهرهم بمظهر سيء وضعيف للغاية، دون أن يكون لديهم القدرة على إجابته فضلًا عن إفحامه..!

تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة صغيرة على نفس القدر من الفصاحة والإسباغ المتين، مع ملاحظة أن كل وسائل المساعدة ممكنة، وكل الخيارات مفتوحة، وكل التحالفات والتجمّعات متاحة لإخراج أفضل نتيجة ممكنة: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ**

وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس ٣٨)..

قالوا: هذه ترهات وأباطيل وكلام فارغ..! فاجأهم القرآن بأن تحداهم بأن يأتوا هم أيضًا بترهات وأباطيل وكلام فارغ بشرط أن يكون على نفس القوة من ناحية الأسلوب والوضوح والقوة..! **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** (هود ١٣)..

المقصود أن القرآن كان معجزة حقيقية والقرآن قد شرح لنا لماذا هو معجزة.. وليس هذا الكتاب بمجال للسرد والتفصيل في بيان معجزة القرآن على كل حال.. يمكنك أن تطّلع على هذا التفصيل في كتاب (النبأ العظيم) لمؤلفه عالم الأزهر المصري الفذ (محمد عبد الله دراز)، فإن لم تكن قد قرأت ذلك الكتاب الماتع من قبل، فأنا أقترح عليك أن تبدأ فيه سريعًا..



لذلك فإن القرآن في معرض إجابته لنا عن سؤال النبوّات والوحي يوضح لنا أن المعجزات التي أتى بها الأنبياء كانت من الوضوح بمكان ما يجعلها تميّز بالفعل ذلك الذي (يقبل) من ذلك الذي (يرفض) الإيمان..!

خذ عندك مثلًا، معجزة عصا موسى عليه السلام.. تتكرر ذكر هذه المعجزة وذكر قصته مع سحرة فرعون بشكل كبير جدًا في القرآن..!

والسبب في ذلك أن القرآن يريد إقناعك كيف كان هؤلاء السحرة على درجة عالية جدًا من الخبرة في فنون السحر والتخييل والإبهار والتعتيم والخداع..! ففرعون لم يحضر لموسى مبتدئي المهنة، ولكن حاذقيها: **﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾** (الشعراء ٣٦–٣٧)..

وكيف كان هؤلاء السحرة منحازين تمامًا لجانب فرعون وغير منصفين أو محايدين في بداية المسابقة: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ۝ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۝ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (طه ٦٢–٦٤)..

وكيف كان هؤلاء السحرة على قدر كبير من الخسّة، فهم لا يريدون أن يروا أين الحق فيتبعوه، ولكن يريدون فقط المال والجاه والحظوة..! ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف ١١٣–١١٤)..

فهذه الفئة بالذات من البشر بكل مواصفاتها وظروفها المذكورة عندما تؤمن لمعجزة موسى وتسلم له.. فهذا معناه أن المعجزة كانت من الوضوح والقوة بمكان ما يجعل أي منكر لها بعد ذلك معاندًا حقيقيًا ومجادلًا لا أكثر..!

هذا مجرد مثال واحد يضربه لك القرآن كثيرًا حتى تتذكره وأنت تتساءل عن الأدلة التي أتى بها الأنبياء، حينها توقن بصدقهم.. ولأنه وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية أن من يدّعي النبوة كذبًا هو أكذب الكاذبين، ومن يصدق في ادّعاء النبوة هو أصدق الصادقين، فإنه سيكون يسيرًا عليك أن تميّز بين هذا وذاك في النبي الذي أُرسِلَ إليك..

وفي حالة النبي محمد ﷺ فمعجزته —القرآن— إنما هي معك وبين يديك..

يمكنك أن تقلّب فيها بنفسك لترى..!

٥- التعامل الإلهي..

قال مرة أحد سفراء الهند في الأرجنتين: "السفير هو شخص يفكر مرتين قبل أن يقول لا شيء"..! حيث لك أن تتخيل كم الرعب الذي يكون فيه السفير لو ثرثر وتكلم بكل

ما يحلو له..! هو لن يخاف من الدولة التي هو فيها حيث لديه حصانة دبلوماسية بطبيعة الحال تحميه من أي ضرر أو اعتقال أو مساءلة.. ولكنه سيكون مرعوبًا بالطبع من الدولة التي يمثلها، والتي يتحدث باسمها بأشياء غير محسوبة ولا توافق عليها حكومته..!

وفي حالة الأنبياء والرسل فإن مثال السفير لا ينطبق تمامًا، حيث الأمر أخطر بما لا يقاس، أن يتحدث أحدهم بالنيابة والرسالة عن الله ﷻ.. لو أخطأ في ذلك فهو يعلم أن حسابه لن يكون يسيرًا..! يمكنك أن تلحظ هذا من كلام عيسى ابن مريم عليه السلام لما يسأله الله جل جلاله يوم القيامة: ﴿**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (المائدة ١١٦).. فيقول: ﴿**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ (المائدة ١١٦)..!

لو افترضنا أن هؤلاء الأنبياء دجّالون، ويتحدثون عن الإله كذبًا، فلماذا لا ينتقم الله منهم إذن..؟! هل لا يعلم أنهم قد تكلموا باسمه..؟ أم أنه لا يهتم..؟!

لذلك لما قال المشركون عن النبي محمد ﷺ أنه يفتري الكذب على الله، قال الله جل جلاله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ (الشورى ٢٤).. فما الذي سيمنع الله ﷻ إذن من أن يتدخل لمنع هذا الافتراء..؟!

بل إن أحد هؤلاء الأنبياء لو تقوّل على الله ﷻ ما لم يوح إليه، لو ادّعى واختلق شيئًا من تلقاء نفسه، لما استطاع أحد منا أن يمنع عنه عقاب الله الشديد الواقع به..! كما يقول جل جلاله: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾ (الحاقة ٤٤-٤٧)..



هذا الخذلان الإلهي لمن يدّعي النبوة وهو ليس بنبي، قد طال بالفعل الكثيرين..! فلديك مثلًا (غلام أحمد القادياني) الذي ادّعى النبوة في العصر الحديث، حيث وسائل الإعلام الكفيلة بإيصال صوته إلى العالم كله، وبرغم ذلك لم يسمع معظم الناس عنه ولا عن دعوته المشوّهة ولا رأوا وجهه –لحسن حظهم البالغ– ومات في النهاية في الحمام بنوبة إسهال قويّة..!

وأما (الحسن بن الصبّاح) الذي ادّعى الإماميّة، وأسس في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي الدولة النزاريّة الباطنيّة، كان يغري أتباعه بنبات القنّب الهندي (الذي نعرفه اليوم باسم الحشيش) فيغيّب عقولهم، وقال (ماركو بولو) الرحالة الإيطالي أن الحسن بن الصباح كان يُدخل أتباعه إلى حدائق غنّاء مدعيًا أنها جنة عدن..

وبالتالي حصل على واحد من أكثر الجيوش ولاءً وهم (الفداويّة) الذين كانوا مجموعة من الانتحاريين المتحمسين الذين ينفذون له عمليات الاغتيال التي يموتون فيها ولا يهتمون، حتى أطلق الغرب على دولة الحسن بن الصباح اسم: دولة الحشاشين Hashshashin.. ومنها أتت الكلمة الإنجليزية: Assassin وتعني: سفاح..!

هذا الحسن قد مات في قلعته واختلفت الأقاويل في سبب موته.. وفي كل الأحوال فهو قد ترك دولته وأتباعه في قلعة محصّنة وحيدة وقد عادت الجميع من حولها وبالفعل انتهت على أيدي المغول في ١٢٥٦ ثم أجهز على باقيهم الظاهر بيبرس في ١٢٧٣.. لم ينصره الله أو يظهره على أحد، وإنما كان (الحشيش) والجنون وقلة العقل هو ما جمع حوله أتباعه فقط..!



بينما نصرة الله لأنبيائه شيء آخر..! فلديك مثلًا نبي الإسلام محمد ﷺ الذي أسس دولته في ثلاثين عامًا فقط لتبدأ من بضعة خيام في مدينة (يثرب) إلى دولة الإسلام التي

كانت أطول الإمبراطوريّات الحاكمة عمرًا في التاريخ: ١٣٠٠ عامًا تقريبًا..

الأمر الذي جعل رجلًا عنصريًا بشدة مثل (مايكل هارت) والذي أقام منذ ستة أعوام فقط (٢٠٠٩) مؤتمرًا للحفاظ على الإرث اليهودي النصراني الأمريكي من المهاجرين المسلمين والأفارقة..! هذا الرجل الذي لا يدّخر جهدًا ولا مناسبة في توضيح أنه ينحاز إلى الرجل الأبيض النصراني وكل ما عداه فهو أقل منه.. قام بتأليف كتابه الأشهر: (المئة، ترتيب أكثر الشخصيات تأثيرًا في التاريخ)، وكانت أول شخصية فيه: محمد ﷺ.. واعتذر هو عن ذلك بعدها وقال: أنا لا أعتقد أن نبي الإسلام محمد أعظم من المسيح مثلًا، ولكن هذا كان لتأثيره الكبير في إنشاء دولة الإسلام وثقافتها..!

هذه النصرة التي عبّر عنها الله ﷻ بصورة متحدية للغاية في قوله: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الأنعام ١٣٥)..

وكان رد القرآن على هذا الذي ظن أن الله لن ينصر نبيّه، أن قال له: ﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾ (الحج ١٥).. بينما كان رده على من كان يتربص وينتظر نوائب الدهر أن تنال من شخص النبي ﷺ، أن قال له: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ**﴾ (الطور ٣٠-٣١)..

لاحظ أن اثنين من الاستشهادات الأخيرة كانت من سور مكية، أي نزلت قبل الهجرة، وقت الضعف والمسكنة والمقاييس المادية المتراجعة تمامًا.. وبرغم ذلك كان النبي محمد ﷺ واثقًا من النصرة والتمكين.. لماذا..؟ لأن هذا هو التعامل الإلهي المعتاد مع رسله وأنبيائه، كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ (الصافات ١٧١-١٧٣)..!!

إذن، في معرض إجابة القرآن عن سؤال النبوّات والوحي، ذكّرك القرآن ببعض الحقائق التاريخية عن هؤلاء الرسل.. عن تصديقهم لبعضهم البعض، ووحدة دعوتهم التي أُرسِلوا بها ومدى اتساق ذلك مع العقل السليم حيث أنهم جميعًا أرسلوا من مصدر واحد.. عن ذمتهم ناصعة البياض، وأخلاقهم النفيسة، ومكانتهم الرفيعة.. عن بشريّتهم وفقرهم الإنساني الذي لم يدّعوا غيره، ذلك الفقر الذي هو منطقيّ تمامًا لأي إنسان مهما بلغت مكانته بجانب خالق الكون سبحانه.. عن الأدلة والبراهين التي أتوا بها.. وعن نصرة الله ﷻ لهم وتأييدهم..

وقبل ذلك كله ذكرك القرآن بأن القضية التي أتوا بها أهم لتُرعِها انتباهك أكثر من أشخاصهم.. هذه القضية الوجودية التي بدأت منذ تأملك في الكون من حولك ويقينك بوجود إله خالق، حكيم له غاية من خلقه، رقيب علينا، له العزة وإليه المصير..

المُخـدّر الأنـيق

(عن نتائج العلم التجريبي)

في روما القديمة كان الأغنياء فقط هم من يملكون القدرة على أكل الخبز الليّن، برغم أنها ملكت نصف العالم تقريبًا..! ولكن هذا ليس بغريب، لأن (قيصر) نفسه كان مسكينًا بالمقارنة بحالنا..! لو أراد بعض الهواء البارد فأقصى ما يمكنه الحصول عليه هي النسمات التَعِسة الناتجة عن مروحة الريش مختلطة برائحة عرق ذلك العبد الأسود الذي يحركها له.. أرخص أنواع مراوحنا الكهربيّة تنتج هواءً أفضل من هذا، بل وخاليًا من العرق أيضًا..!

ولو أراد قيصر التنقّل في شوارع روما، فهو قد بلغ من السؤدد والمكانة ما يجعل أربعة رجال يحملونه على مِحَفّة فاخرة إلى أي مكان يريده، لكن بالتأكيد هذا لا يساوي شيئًا بجانب أقل سيارة متهالكة في زماننا.. والفارس الهمام الذي يُهلك نفسه في الصحراء عدوًا حتى لا يؤخر عن قيصر رسائله المهمة بضعة أيام، بالتأكيد لم يكن أسرع من بريدنا الإلكتروني في أبطأ سرعات الانترنت طرًّا.. ويمكن لقيصر ألا ينام الأسابيع المتتالية بسبب ألم أسنانه، بينما نذهب نحن إلى أقرب طبيب أسنان ليعالجه في ساعتين.. وشيء ما يخبرني أن طعام قيصر كان رائعًا، ولكنه بالتأكيد كان لينبهر بـ (الشيش طاووق) و(الكريم كراميل)..!

أي أن قيصر الذي غزا العالم كان سيموت من الصدمة لو علم أن أقل موظف في مجلس الدولة يعيش عيشة أهنأ مما عاشها فعلًا.. وأنه سيأتي على الناس زمان يتنعّمون فيه بالكثير من المتع الجديدة تمامًا والتي لم يفكر فيها أسلافهم..!

على أن الكثير منا لا ينظر للأمر بهذه الطريقة، يرى أن العالم أصبح أسوأ، وأنه امتلأ أكثر بالمجاعات والأوبئة والحروب.. لم يفطن هؤلاء إلى أن شيئًا لم يجدّ..! وأن الطب لم يخترع الإيبولا ولا السرطان مثلًا، فقط مات الناس من قديم الأزل بهذه الأمراض دون أن يعلم الأطباء في عصرهم شيئًا إلا أنهم ماتوا بالحمّى والانتفاخات..!

والحروب والجرائم في الواقع صارت أكثر رقة وأقل وحشية عمّا كانت في الماضي، فالتتار

مثلًا دخلوا بغداد ليقتلوا مليونين من المسلمين.. ومات كل هؤلاء بالسيف البطيء وليس بالقنابل الذرية..! هل تتخيل الوحشية..؟ بينما كانت المجاعات في الماضي في كل مدينة وفي كل حضارة حسب موسم السنة، فعصر ما قبل الثورة الصناعية عاش على إنتاجية أقل بكثير مما يحتاجها فعلًا، والفجوة بين (الحاجة) و(المنتج) –التي لطالما تحدث عنها مدرسو الاقتصاد دون أن نفهمها– كانت في موقف يُرثَى له..!

لو نظرت إلى حال البشرية ككل لوجدت أننا في (عصر النعيم)..! عصر سادت فيه أدوات الراحة، وقلت فيه الكثير من المشقة.. عصر قد ظهر تفضّل الله علينا بتعليمه البشر الكثير من أسرار المخترعات والمكتشفات الحديثة كما فعل الله ﷻ من قبل مع داوود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء ٨٠).. عصر قد مكننا الله فيه من البنيسلّين، والديجيتاليز، والأتروبين..! عصر قد منّ الله علينا فيه بالمحرّكات والترانزستور والستالايت..! عصر زاد فيه ظهور منة الله على الإنسان، وظهور حنانه، وظهور رحمته..

ثم ماذا كان رد فعل الإنسان على هذا..؟ الكفر، والإلحاد، والغفلة، والشهوات، والغرور، والتكبر على الخالق، والسخرية من الدين، والتطاول على الإله..!

هذا هو حال الله، وهذا هو حال الإنسان..!

ثم لم يوقف الله خيره النازل، ولم يبدل الكثير من نعمته، ولم ينزل علينا عقاب الغضب، ولم يملّ من ندائه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة ١٨٦)..

فسؤال: كيف لك ألا تحب هذا الرب الرؤوف..؟!



العلم التجريبي من وجهة نظري: رائع.. إنه سهّل لنا الكثير من مصاعب هذه الحياة،

وعرّفنا على عظمة الكون الذي نحيا فيه، ومدى الجمال الخلقي والتناسق الكوني والإتقان الوجودي الذي ينسج لنا الحياة من حولنا..

لم نكن لنتعرف عليه إلا لأن الله ﷻ أذن لنا بذلك، وأراد لنا أن نرى غيضًا من فيض دلائل قدرته من خلاله..

العلم التجريبي رائع إذا نظرت إليه كما ينظر القرآن إليه، واتخذته منظارًا تنظر من خلاله على أفعال الله سبحانه وتعالى، وقدرته في الوجود..

ولكن، هناك فاشلون.. دائمًا هناك فاشلون..!

١- زاوية الرؤية..!

مشكلة الطب عندما يُدرَس باللغة العربية أنك تتعرف على ترجمة الكلمات اللاتينية الأنيقة التي كانت تملأ كتب التشريح لتكتشف أنها في الأصل ليست بهذه الأناقة..! فتجد أن مخ الإنسان مثلًا فيه اللوزة (Amygdala)، والصنوبر (Pineal body)، والبصلة (Myelencephalon).. اللوزة والبصلة والصنوبر توحي أنك في الواقع في (سوبر ماركت)..!

برغم هذه الأسماء (المهزّأة) لا تستهن أبدًا بهذه الأجزاء من مخك.. فأصغر الأعضاء المذكورة، وهي اللوزة مثلًا أو الأميجدالا، مسئولة وظيفيًا عن شعورك بالهلع والخوف والقلق والاضطراب..! وهي السبب في كون المرأة تجد أحيانًا وحشًا مخيفًا في غرفة المعيشة المظلمة له جسم كروي وثلاثة أذرع وصوت خوار مخيف، فتفزع وتصرخ قبل أن تدرك بعد بضعة أجزاء من الثانية أن هذا ابنها الحبيب الذي أحب لسبب ما أن يشرب بعض المياه الغازية في الثانية ليلًا ويتجشأ وهو يحك بطنه العملاق..! هذا لأن الأميجدالا وصلتها المعلومات

مرتين، مرة بشكل سريع وغير دقيق عبر المهاد المخّي (Thalamus)، ومرة بشكل أبطأ وأكثر دقة عن طريق قشرة المخ الأكثر اتزانًا وهدوءًا واستيعابًا للموقف..

الأميجدالا تدرك أنك في موقف خطر الآن وبناء عليه تتخذ وضعيّة الهروب أو التصرّف، حتى إنها تخاف قبل أن تدرك ما هذا الذي تخاف منه..! هذه الحساسية المفرطة والمبالغة الشديدة من الأميجدالا تحمينا من أدنى احتمالية لأن نتأذّى على حين غفلة..

غير أن هذا غير كافٍ في الحماية، فلو لاحظت لوجدت أننا لا نعيش فوق الشجر، حيث الخطر لا يُشترط أن يكون غريزيًّا دائمًا، بل هناك خوف لا بد لك أن تتعلمه..! لا بد لك أن تفهم أن الكهرباء مؤذية قد تقتلك، وأن الرسوب في الامتحان قد يتسبب في ضياع عام من عمرك، وأن جمهور المستمعين قد يلفظك بعد ذلك إن بدوْتَ أمامهم متلعثمًا.. هناك من الخوف ما هو مهم لنا أن نتعلم أن نشعر به..! هذا ضروري لنا حتى لا نتأذّى -وبرغم وعينا بالموقف- ولكن عن جهل من أن هذا أو ذاك قد يؤذي..! ومرة أخرى فالأميجدالا هي المسئولة عن هذا أيضًا، عن تعلّم واكتساب الخوف بواسطة بروتين (ببتايد المفرز من الجاسترين) : (GRP)..

يمكنك أن تتوقع أن هذا لا يمرّ دون بعض الآثار الجانبية.. وأن عملية تعلم الخوف التي كان الغرض منها الحماية لربما تسببت أيضًا في قلق غير مبرر، أو هلع زائد عن الحد..! بعد أن تعلمتَ أن تخاف من الامتحان، وأسفر ذلك عن دراسة جدية لمدة شهرين لكتاب القسم، حان الوقت الآن وفي ليلة الامتحان بأن تنسى القلق، حتى لا تقضي ليلتك كلها مع قولونك العصبي أو أظافرك المقضومة.. حتى الخوف الغريزي منه أيضًا ما نحتاج إلى أن ننساه، فأنت مفطور على الخوف من ذوات الأنياب، لكن تحتاج إلى أن تتعلم ألا تخاف من الكلب الذي اتخذ -رغمًا عنك- مدخل بيتكم سكنًا دائمًا له..

لذلك خلق الله ﷻ لنا وسيلة لنسيان الخوف.. شفرة كمبيوتر تمحي تركيبة العواطف

المعقّدة التي تسببت في هذا القلق.. ومرة ثالثة أودع الله ﷻ هذا السر في الأميجدالا، وفي بروتين مستقبلات (NMDA) الخاصة بها..!

إذًا اللوزة الصغيرة الموجودة في منطقة متطرفة من مخك تقوم بحمايتك جسديًا واجتماعيًا ونفسياً دون أن تشعر.. تقوم بالمحافظة عليك من أقل الأخطار، وتعلمك ما هي هذه الأخطار، وتجعلك تنسى الخوف من الأخطار الزائفة.. نوع من الرعاية لا تراه، ولكنه قريب منك جدًا..! رعاية تصلح كمثال على رعاية الله ﷻ لنا، تصلح كدليل على أنه لم يهملنا، تصلح كتذكير دائم لنا بمدى قربه منا سبحانه القائل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ (ق ١٦)..!



في دروس العلم التجريبي أيضًا تتعلم أن هناك نوعًا من المرضى يملكون نقصًا في إنزيم (مُختزِل الجلوكوز سادسي الفوسفات) $G_{six}PD$، بسبب هذا النقص فهو لا يمكنه أن يتناول أي طعام أو دواء يحوي عوامل مؤكسدة، وإلا سوف تدخل كريّات دمه الحمراء في نوبة تحلّلية خطيرة، هذا هو مرض أنيميا الفول لو كنت سمعت عنه من قبل.. المشكلة أن من ضمن الأدوية التي تحوي العوامل المؤكسدة هي الأدوية المضادة لطفيل الملاريا: Antimalarial Drugs.. والسؤال هنا: ماذا لو أصابت الملاريا هذا المريض بنقص هذا الإنزيم..؟! هل سنتركه يموت..؟

سأل الأطباء هذا السؤال ولكنهم سرعان ما فطنوا إلى عدل الله ﷻ..! حيث إن طفيل الملاريا لا يمكنه أن يعيش في جسم الإنسان إلا اعتمادًا على سلسلة أيضيّة معينة اسمها Pentose Shunt.. وهذه السلسلة المسئول عن إقامتها هو إنزيم $G_{six}PD$ نفسه..! أي أن طفيل الملاريا يدخل إلى جسم ذلك المريض الذي لا يستطيع أن يتناول العلاج المناسب له، فيموت من تلقاء نفسه..!

أيضًا هرمون الـ Calcitonin يضمن لكل عظمة في جسدك ألا تُظلَم وتُسلَب ما تحتاجه من الكالسيوم.. والقُطر المناسب للقنوات الطحاليّة الصغيرة Splenic Tubercles يحافظ على حق خلايا الدم الشابّة في الحياة، بحيث لا يعلق بها إلا الخلايا الهَرِمة فيعمل عليها الطحال لهضمها والتخلص منها.. بينما لا يمكن أن تتذمّر خلايا مخك من كثرة الأعباء عليها لأنها الأوفر حظًا بحصولها على خمس الدورة الدموية بالكامل..!

كل هذا من عدل الله ﷻ وإنصافه..!

ولكن هل شعرت يومًا بشعور ذلك الذي يكرمه أحدهم بفوق ما يحتاج، أكثر من الحد الذي يتوقف عنده قلقه، يتخطاه إلى ذلك الحد الذي يجعله في أمان واطمئنان كاملَيْن..؟؟

إن كبدك الذي يعمل بـ ٢٠٪ من طاقته، ويراقب في كل يوم مخزونه الاحتياطي رباعي الأخماس، يشعر بهذا التدليل..! كليتاك التي تعمل بدلال واسترخاء وهي تعلم أن نصف كلية واحدة قادرة على الوفاء باحتياجاتك، تشعر بهذا التدليل..!

سُئِلَ الإمام عليٌّ رضي الله عنه عن قول الله تعالى... ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ (النحل ٩٠).. فقال: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضّل..

نعم عدل الله ﷻ رائع، وأروع منه حين تذوق إحسانه.. عندما يتفضل عليك بأكثر من حاجتك، عندما تصيبك عطاياه دون أن تحتسب، عندما تُفاجأ بخيراتٍ إضافية، بينما أنت ما زلت في خيراته القديمة..!



إذن من تأمل بسيط في بعض الدروس العلميّة بجسم الإنسان يمكنك أن تدرك صفة الله ﷻ القريب، الذي يرعاك دون أن تفطن لتلك الرعاية.. يمكنك أن تدرك صفة العدل

لله ﷻ والذي لا يظلم مثقال ذرة.. يمكنك أن تدرك صفة الإحسان والزيادة والتفضّل والنعم التي يرزقنا إياها بكميات أكبر من التي نحتاج إليها بالفعل..!

من تأملك في جسدك الخاص تدرك أن الله ﷻ حق، وكل أفعاله ووعوده حق..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ (الروم ٨).. فبالطريقة الصحيحة لاستخدام العلم التجريبي تصل به إلى الله ﷻ، وتدرك بنفسك أن العلم هو محراب من محاريب الإيمان..!



يدفعك العلم أيضًا إلى الرهبة من الخالق وأن تقدره حق قدره..! إذ إن من خلقك وسواك وأحكم تقديرك وصنعك إلى هذا الحد، هو أشد منك قدرة، وأشد منك بطشًا إذا غضب..! ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ (فصلت ١٥)..

كل هذا ونحن لم نخرج عن دائرة الجسد الإنساني الضعيف.. فما بالك بالأرض الرحبة، والسماء المرصّعة، والكون الفسيح..؟! كما يقول الله ﷻ: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (غافر ٥٧)..

فالمسألة مسألة (زاوية رؤية) و(وجهة نظر)..! فلو اتخذت مسبقًا اتجاه الإيمان ونظرت إلى الوجود، لوجدت كل شيء يدل على هذا الإيمان.. ولكنك لو أعميت نفسك عن حقائق الإيمان مسبقًا، فأنّى للحق أن يصل إليك..؟!

لذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ (الذاريات ٢٠-٢١).. قد فاز إذن هؤلاء الموقنون بزاوية الرؤية الصحيحة، وازدادوا بآيات الكون يقينًا..!

٢- عن خطايا التعامل مع العلم..!

منذ ألف عام ونصف كان المحيط العلمي مليئًا بالترهات التي كان يفخر كل من يعرفها بنفسه ولا يدري أننا سوف نضحك عليها بعد سنين..! مثل (الهيولا) الذي كانوا يزعمون أنه أصل كل مادة، وتختلف المواد باختلاف الصور التي (تغلّف) هذا الهيولا.. والهيولا مع الصورة المكونة له هي الجوهر، والوجود هو مجموعة من الجواهر، وكل جوهر له أعراض..

اغتبطت طائفة من الفلاسفة المسلمين بمثل هذه الأشياء، وتسابقوا إلى تضمينها في كتبهم، وصاروا يفتخرون بها باعتبارها آخر صيحة..! هل تعرف الهيولا..؟ لا، وتريد أن تتكلم في العلم والفلسفة..؟ يا لك من جريء..!

هذا شبيه بما حدث مع الكنيسة الكاثوليكية التي سارعت في اعتماد وتبنّي نظام (بطليموس) اليوناني الذي وضعه في عام ١٥٠ بعد الميلاد تقريبًا في كتاب من ثلاثة عشر مجلدًا يدعى بـ (المجسطي) وهي كلمة عربية من أصل يوناني تعني: الأطروحة الرياضية..

نظام بطليموس ارتكز على أن الأرض كروية وتكاد تكون لا شيء وسط الكون الفسيح لكنها متموضعة في مركز الكون لا تتحرك، وتدور كل الأجرام السماوية حول الأرض في أفلاك متعددة بعضها فوق بعض.. بالنسبة لعصره كان إنجازًا علميًا كبيرًا، إذ إنه ومنذ عدة عشرات من الأعوام كان الناس يعتقدون أن الأرض مسطحة، ومنهم كاتبو الأناجيل (أو محرّفوها بمعنى أصح)، ولكن الكنيسة اعتبرت أن النصوص التي تدل على أن الأرض مسطحة في الإنجيل، يمكن تأويلها بما يوافق نظام بطليموس.. ومن ثمّ اعتبرت نظامه الذي وضعه للكون هو الحق الذي لا حق غيره.. وكل ما يخالفه هو كفر وهرطقة وخروج من دائرة الإيمان ككل..

وهذا هو السبب في أنها حاربت نظام (كوبرنيكوس) –الذي نعرف الآن أنه هو الأصح– والذي يقول أن الأرض تتحرك وتدور حول الشمس.. ثم حاربت (جاليليو) بعد ذلك والذي نصر أفكار كوبرنيكوس وأرغمته على الاعتراف بخطئه حتى تعفو عنه في المحاكمة الشهيرة التي وقف فيها أمام الفاتيكان في ١٦٢٣.. إلى أن اعتذر في النهاية البابا يوحنا بولس الثاني في ٣١ أكتوبر ١٩٩٢ بالنيابة عن الفاتيكان عن الإساءة التي تعرّض لها جاليليو، وقاموا بعمل تمثال له في نفس العام..!

لم تكن مفاجأة الكنيسة الكاثوليكية بهذا الخطأ أكبر من مفاجأة كثير من علماء الفيزياء والفلاسفة الملحدين والذين قدّموا الأدلة والبراهين لمئات السنين على أن الكون قديم منذ الأزل ثم تبين خطؤهم حين فاجأهم (فيستو سليفر) و(إدوين هابل) و(ميلتون هيوماسيون) باكتشافهم العلاقة بين الانزياح الأحمر للمجرّات (Redshift) وبين المسافة، ويعني ذلك الطريقة التي يتغير بها ضوء المجرّات حين تبتعد عن أجهزة المراقبة، هذا أثبت بعد ذلك أن الكون في الواقع يتمدد، وهي الملاحظات التي أدت إلى نظرية الانفجار الكبير (Big Bang Theory)، وتعني أن الكون المشاهَد بدأ في التكوّن منذ ١٣,٧ مليار عام تقريبًا، والتي بقيت مجرد فرضيّة حتى أتت الدلائل عليها من قياس الخلفية الإشعاعية الكونية عام ١٩٦٤..



الأخطاء العلميّة تلك لم تكن مقتصرة على العقول المتوسطة من العلماء، بل لدينا مثال (إسحاق نيوتن) الذي يعتبره الكثيرون أعظم عقل علمي على مر عصور البشرية جمعاء.. والذي سادت نظرياته العالم كله لمئات السنين، قبل أن يأتي آينشتاين بنظريته النسبية العامة (General Realtivity) عام ١٩١٥ ليصحح رؤيتنا للجاذبيّة، ويشاكس نيوتن نفسه بتعديل النموذج القديم الذي كان قد وضعه..

وعلى ذكر (آينشتاين) العبقري فهو لم يسلم من بعض هذه الأخطاء، مثل (الثابت الكوني) : (Cosmological Constant) الذي اخترعه كمحاولة يائسة لكي يجعل معادلاته تتفق مع مبدأ ثبات الكون الذي كان —مع بقية علماء عصره— يؤمن به.. اعتبر آينشتاين بعد ذلك أن الثابت الكوني هو الخطأ الأكبر الذي قام به في حياته، وخجل منه بشدة..!



وهناك الكثير من (الاكتشافات) و(الإثباتات) العلميّة التي تبيّن بعد ذلك أنها كانت خاطئة..! مثل (القنوات المريخية) : (Martian Canals)، التي لاحظها أول مرة الفلكي الإيطالي (جيوفاني سكياباريلي) عام ١٨٧٧، ومن بعده الكثير من الفلكيين، وهي شبكة من القنوات تظهر على سطح المريخ، أخذ الأيرلندي (تشارلز بورتون) في عمل خريطة كاملة لهذه القنوات، وجاء عالم الرياضيات الأمريكي (بيرسيفال لاويل) ليقفز إلى استنتاج غريب جدًا، أن هذه القنوات إنما هي شبكة ري صنعها فضائيّون..! وبعد كل ذلك تبيّن للجميع في بدايات القرن العشرين أن هذه القنوات مجرد وهم بصري (Optical Illusion) ناتجة عن التلسكوبات العتيقة كسراب الصحراء الذي نتوهم أنه ماء وهو مجرد انعكاس..!

هناك أيضًا الـ Phrenology أي علم معرفة الدماغ، الذي كان سائدًا في القرن التاسع عشر وسط الأطباء وعلماء النفس، ويعني القدرة على استنتاج أبعاد الشخصية وما يحب وما يكره الإنسان فقط من شكل تضاريس جمجمته من الخارج، فتجد الطبيب من إياهم يمسك برأس المريض و(يحسّس) عليها حتى يدرس شخصيته..! مات هذا (العلم) تمامًا وتم اعتباره من خرافات العلم (Fringe Science)، لكنه في زمنه كان آخر المكتشفات الحديثة، بل والعنصريون في ألمانيا النازية وإمبراطورية بلجيكا الاستعمارية في الكونغو ورواندا كانوا يستخدمونه لإثبات أن العنصريّة (فضل بعض الأعراق البشريّة على

البعض الآخر) لها أصول علمية..!

ماذا عن نظرية (التمدد الأرضي) : (Expanding Earth)..؟! والتي آمن بها علماء من وزن داروين ونيكولا تسلا.. تحاول النظريّة أن تفسر حركة القارات الجيولوجية ونشوء الجبال الجديدة، بأن الأرض في الحقيقة تتمدد ببطء، وهي نظرية معاكسة لنظرية أخرى كانت سائدة في وقتها وهي نظرية (البرودة الأرضية) : (Global Cooling)، التي اقترحها الجيولوجي (جيمس دانا) وتتحدث عن (انكماش) الأرض.. على كل حال قد ثبت خطأ هذه النظرية وتلك، فكلًا من التمدد الأرضي والانكماش الأرضي صارا من العلم الزائف بعد اكتشاف الصفائح التكتونيّة (Plate tectonics) في ١٩٧٠..!

وهناك نظرية (الفلوجيستون) : (Phlogistion theory)، الذي كانوا يظنونه جزيء غير مرئي لا يظهر إلا بالاشتعال ويفسّر عملية الاحتراق.. ونظرية (الطبعة الأموميّة) : (Maternal Impression)، حيث تؤثر الأم في شخصية جنينها من خلال أفكارها الداخلية..! ونظرية الكوكب (فولكان) : (Vulcan)، الذي اعتقدوا وجوده بين الأرض والمريخ وقالوا أنه التفسير الوحيد لحركات المريخ الغريبة التي يأتي بها في دورانه حول الشمس، قبل أن يفسّر لنا آينشتاين بنظريته النسبية العامة هذه الحركات..!



وهناك من الناس من يظن أن هذه الأخطاء العلميّة كانت في الماضي —قبل الثورة المعرفيّة والنمذجة العلميّة (Scientific modeling) والذي صار العلماء لا يقبلون أي بحث علمي لا يتسق معها— على أنهم في الواقع مخطئون..!

ففي عام ١٩٨٩ نشر عالم الكيمياء الكهربيّة البريطاني (مارتن فليشمان) مع زميله الأمريكي (ستانلي بونز) بحثًا أقام الدنيا ولم يقعدها.. حيث ادّعوا أنهم قد أقاموا تجربة ناجحة للاندماج البارد (Cold Fusion).. والاندماج البارد يعني أن يحدث تفاعل نووي

ينتج الطاقة النووية المعهودة بدون الحاجة إلى درجات حرارة مليونيّة كما هو معروف، بل يحدث هذا الاندماج في درجة حرارة الغرفة، وهو ما يعني إمكانية الحصول على طاقة نووية نظيفة وخالية من الأخطار..!

لك أن تتخيل أثر ذلك على المجتمع الإنساني التي تعوي مصانعه وسياراته في كل حين بحثًا عن الطاقة، من الإنتاجية الزائدة والبيئة النظيفة والسلام العالمي بعد انتفاء السبب وراء معظم الحروب: السيطرة على مصادر الطاقة..! لذلك اهتمت وسائل الإعلام الشعبية بهذا البحث، ورسمت الخيال وأحلام اليقظة في وعي العامة، ولمدة شهور قليلة تم اعتباره خطوة بارزة في تاريخ العلم..

وفي أواخر نفس العام لاحظ كثير من العلماء أنهم لا يحصلون على نفس النتائج عند قيامهم هم بالتجربة، ومع الوقت بدأت تظهر الكثير من الأخطاء في بحث (فليشمان) و(بونز)، لدرجة أن البعض اتهمهما بتلفيق النتائج بالكامل وتزوير الحقائق، وفي النهاية خرج تقرير من (إدارة الطاقة الأمريكية) (USDOE) يفيد بوقف تمويل كل الأبحاث التي تبحث خلف الاندماج البارد، باعتباره من العلم المضلّل (Pathological science) والذي لن يؤدي بنا إلى أية نتيجة إيجابية..!



هناك الكثير من هذه الأمثلة على الطريقة الغريبة التي يتم بها تضليل المجتمع العلمي بفكرة خاطئة قد تستمر لمئات السنين قبل أن يتبين أنها مجرد حماقة..! فكرة المجتمع العلمي هي تضليل في حد ذاتها..! حيث يقنعك أحدهم بضرورة أن تقبل أو ترفض شيئًا ما لأن هذا هو السلوك الذي سلكه (المجتمع العلمي)..! هذا على افتراض أن هذا المجتمع (مُوحّد) في معتقداته العلمية، أو أن جميع أفراده مستقلين بفكرهم باحثين بأنفسهم عن الصواب..! من أدراك أن الكثيرين منهم لن يكونوا إلا فئة مُلقّنة تأثرت وانبهرت بالمشاهير منهم وصاروا

لا يخرجون عن نطاقهم..؟ فضلًا عن أن يكون بعض أفراد المجتمع العلمي ذلك يتعرض للمقصلة المعنوية في حالة ثورته على ثوابتهم، والتي هي بطبيعة الحال لا يُشترَط أن تكون بهذا الثبات..!



حين نتحدث عن خطايا التعامل مع العلم التجريبي، فإليك الخطيئة الأولى: الغرور والتعالي، والظن الأجوف بدون كبير داعٍ أننا قد وصلنا إلى القمة العلمية التي ليس من بعدها بعد..! هذا الغرور الذي نبّهنا القرآن على قبحه في قول الله ﷻ: ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ (غافر ٨٣)..

هذا الغرور سيقودك إلى الخطيئة الثانية: الجدال بدون علم، أو بعلم ناقص..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾ (الحج ٨).. والعجز عن التفرقة بين المساحة المضيئة بـ (الحقائق) العلمية والتي لك أن تتحدث فيها، وبين المساحة المغَيّمة بـ (الفرضيّات) والتي ليس لك أن تثق فيها إلى هذا الحد..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (آل عمران ٦٦)..

وهذا يقودنا إلى الخطيئة الثالثة: الخلط بين (اليقين) و(الاحتمال)، بين (الحقيقة) و(الفرضيّة)، وبين (القانون) و(النظريّة).. وهذا ما ربّانا عليه القرآن حين يذكرنا دائمًا بأن نفرّق بين (العلم) و(الظن الواهم).. كما يقول: ﴿**وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ (النجم ٢٨).. ويقول ﷻ: ﴿**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾ (الأنعام ١٤٨)..!

هذا يذكرنا في الواقع بالخطيئة الرابعة: لا تُخرج مسلّمات العقل عن نطاق الحقائق، فليست الحقيقة مقتصرة على نتائج المعمل.. حتى لا تقع في فخ الـ Scientism والتي هي

أقرب لدين يقدّس العلم المادي القابل للتجربة والقياس ويرفض كل ما سواه.. والذين هم محطّ سخرية الأذكياء من الفلاسفة والمفكرين —في كل زمان ومكان وعلى اختلاف عقائدهم— الذين يعرفون أن عابدي المعمل سيرفضون أن يسلّموا بأن ١+١=٢ إلا لو وضعوا أمام (أعينهم) برتقالة وبرتقالة ليصيرا برتقالتين، كما يفعل تلاميذ الصف الأول الابتدائي..! وذلك لأنهم جعلوا (الملاحظة) أعلى من (التفكّر).. ولسان حالهم عن كل ما هو ليس بـ (مادة) أن يقولوا عنه: ﴿**إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**﴾ (الجاثية ٣٢)..

ولا تنس الخطيئة الخامسة: هؤلاء الذين اتخذوا البناء العلمي (في ظنهم) وسيلة إلى (الهدم) لا (البناء).. وكان حظهم من ثورة المعرفة الإنسانية إتقان المراء به.. لم يهتموا بأن يتخذوه وسيلة للإفادة والأفعال، قدر اهتمامهم بأن يُؤدلِجوه للجدال..! هؤلاء الذين تجدهم في كل ركن من بلادنا، يتكئون على أريكتهم، ينقّبون في أبحاث علمية لم يفهموها حق فهمها، ولم يتأكدوا من صحتها في نفسها، ليتخذوها دليلًا على موقفهم من الإيمان.. كسل معرفي كامل، وانهيار تام لقيمة الحق والبحث عنه.. إنهم كما قال الله ﷻ في مثلهم: ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا**﴾ (الكهف ٥٦)..

وهناك الخطيئة السادسة أيضًا: عمليّة صنيعة (الوهم) والبناء الهرمي الكامل على قواعد (مُختَرَعة)، وتأليف المصطلحات، ثم توفيق الأدلة على هذه المصطلحات، لتبقى في النهاية المؤلّفات التي بنيناها بأنفسنا في نظرنا وكأنها كيان مستقل، وكأنها حقائق مفروغ منها، لتتخذ مكانها وسط المحاجّات المنطقيّة، دون أن نتذكر أو نعبأ بأن نتذكر أننا نحن من بنينا كل هذا..! متى يفطن أصحاب الخطيئة السادسة أن مصطلحاتهم لا تمثل حجة في ذاتها، وليس لها عندنا كبير قيمة، إن هي إلا أسماء..! إن هي إلا ظاهر من القول ليس له كبير حقيقة..! كما قال النبي هود عليه السلام لقومه: ﴿**أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**﴾ (الأعراف ٧١).. ويقول الله ﷻ: ﴿**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ**

بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الرعد ٣٣)..

وأما الخطيئة السابعة: فهو تزوير الحقيقة، واستغلال المنصب الأكاديمي، والكلام العلمي المنمّق في إدخال أيديولوجيتك الخاصة والانتصار لها..! ألّا يكون هناك أي ارتباط بين المقدمة والنتيجة إلا مجرد (إيمانك) المجرّد عن الدليل بأنهما مترابطان.. فلو اتبعت هذا المسلك لن يكون غريبًا أن تدّعي أن اكتشاف الحمض النووي DNA يقدم دليلًا على التطوّر، أو أن الانفجار الكبير يقدم تفسيرًا بديلًا عن الإيمان بالخلق والتكوين.. لا تفعل ذلك من فضلك لأن هذا السلوك مفضوح تمامًا لدى أغلبنا، ويُظهرك بمظهر سيء للغاية، ويدل على أنك في الواقع في أزمة استدلاليّة..! كما يقول الله ﷻ عن أهل الكتاب لما خلطوا الحق والباطل: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** (آل عمران ٧١)..

وإليك الخطيئة الثامنة: كفّ عن اعتبار كل ما لا يتناهى إلى نطاق (علمك) الضيّق، أو حيز (فهمك) الأضيق، أنه ليس بعلم ولا شيء يستحق أن يسترعي انتباهك..! كفّ عن ذلك، لأن الرضا عن النفس بهذه الطريقة هو دأب الأغبياء في كل مكان وزمان، ممن يرفضون أن يصدقوا أنهم لربما ليسوا عباقرة إلى الحد الذي يجعلهم يحيطون علمًا بكل شيء في الوجود.. الخطيئة الثامنة هي أن تقع فيما وقع فيه هؤلاء الذين تحدث عنهم القرآن فقال: **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** (يونس ٣٩)..

وأما الخطيئة التاسعة: فهو أن تكون من داخلك مهزومًا وضعيفًا إلى الحد الذي يجعلك تحتاج إلى أحدهم حتى يؤكّد لك صحة عقلك..! تحتاج إلى من يصدّقك ويرضى عنك في إيمانك حتى تطمئن إلى هذا الإيمان..! ولا مانع لديك حينها من أن تلوي أعناق الآيات حتى توافق آخر أبحاث Nature.. ولا تخجل حينها من أن يكون السبب الذي يدعوك

إلى الاطمئنان لآيات الله هو أنك رأيت صورة لرجل أشقر على الانترنت تظهره وهو يلوّح بيديه ليشرح كيف أن هذه الآية أو تلك وافقت ملاحظاته المعمليّة.. إنك حينها تكون كمن قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر ٤٥)..

وهذا شبيه بالخطئية العاشرة: وهي ما يحدث لك حين يتبين أن هذا الإعجاز العلمي أو ذاك غير صحيح أصلًا.. وأن الرجل الأشقر مثلًا في الواقع كان يقوم بإعلان تجاري عن أحد أنواع الصابون قبل أن يأخذ أحدهم صورته ويلفّق عليها القصة كاملة (لأن هذا المتحمس مصاب بالخطيئة التاسعة السابق ذكرها).. لو كنت تعاني حينها من (ارتباك) أو (تحيّر) لربما كان هذا معناه أنك تعاني من أعراض الخطيئة العاشرة.. والتي ذكرنا القرآن بها في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج ١١)..

العلم التجريبي رائع.. ولكن لكي يصير كذلك، عليك أن تكف عن ظلمه، وتأخذ حذرك من هذه الخطايا العشر..!

٣- عن فاعليّة الأسباب..

لم يجد اليابانيّون القدماء سببًا قويًا يفسّر لهم القوة التي تقف خلف الشلالات ومجاري الأنهار والأمواج المتلاطمة في البحار والمحيطات وفوهات البراكين إلا أن تكون مسكنًا للعديد من أرواح الكائنات البشريّة (الحساسة) والتي يسمّونها: (الكامي)..! وأما السبب الكامن وراء اضطراب الأمور والقرارات في بلاط الإمبراطور كان الشياطين والأرواح الخبيثة التي كانت تسكن هذا البلاط، لذلك كان الحرّاس في بلاط الإمبراطور مأمورين بأن يقذفوا رماحهم بشكل دوري دائم منتظم وبطريقة عشوائية تمامًا من أجل طرد وإخافة الأرواح الخبيثة التي

تحاول التسلل لما وراء الأسوار العظيمة..!

وأما البابليون القدماء فكانوا يفسّرون (سبب) المرض والوباء بأنها شياطين استطاعت أن تتسلل من أبواب البيوت والشقوق، وأما سبب مرض الأطفال المتكرر بشكل خاص عند الآشوريين هو أن هناك شيطانًا متخصصًا في الأطفال فقط، وهو عدوّ الأطفال واسمه (لايارتو)..!

ولذلك كانت مهمة الطبيب عندهم (أو الكاهن بمعنى أصح) أن (يفاجئ) الشيطان الذي يسكن جسد المريض بأنه يعرف اسمه وحقيقته، فيأخذ في الاسترسال في ذكر أسماء الشياطين المحتملين..! على ما يبدو كانوا يعتقدون أن هذا الإجراء يصيب الشيطان بـ (الحرج) من أنه قد انكشف أمره..!

وأما (الفايكنج) —وهم جدود ساكني بلاد (النرويج) الآن— فقد فسّروا ظاهرة قوس قزح، بأنها مسكن الآلهة حيث مستقرّ (أودين) كبيرهم وزوجته (فريجا) الجميلة الفاتنة..! وفي هذا المكان تقام الاحتفالات بالأبطال الشجعان الذين يموتون في الحروب.. وأما سبب السحاب من وجهة نظرهم، أن (فريجا) تغزل هذا السحاب بتوكيل من بقية الآلهة.. وأما سبب البرق والرعد، فهي تعبيرات عن غضب (ثور) ابن (أودين) و(فريجا) الذي يملك مطرقة هائلة من الفولاذ ويطلقها على الأعداء والعصاة فيقضي عليهم.. يملك (ثور) اثنين من الإخوة التوائم، وهما (بولدر) الجميل الذي يفسر لنا ضوء الشمس وفصل الصيف الرائع، و(هولدر) الكفيف الحزين الذي يفسر لنا الظلمة وفصل الشتاء القاتم..!

اعتاد القدماء —ممّن لا يملكون علمًا ولا هدًى من السماء ولكن يملكون قدرًا واسعًا من الخيال— أن يفسّروا الكثير من الظواهر اعتمادًا على هذه الأفكار الخيالية، وبعد أن تقدم بالناس العلم، أخذوا في فهم الظاهرة العلميّة الحقيقية التي جعلها الله ﷻ (سببًا) وراء هذه الأحداث، فالزلازل ناتجة عن انزلاقات في الصفائح الصخريّة للأرض، والأمطار الغزيرة

سببها التقاء رياح مختلفة في درجة حرارتها ورطوبتها، وأما اختلاف فصول الشتاء والصيف كان بسبب (ميل) محور دوران الأرض حول الشمس بزاوية (٢٣،٥) درجة..

غير أن القدماء لم يكونوا يعرفون ذلك، وإنما (فسّروا) ظواهر الطبيعة لديهم بتفسيرات تبدو في رأيهم هي المنطق الوحيد.. إذ كيف تفسّر ما نراه من شروق الشمس من جهة وغروبها من جهة أخرى، إلا أن هذا يعني في الواقع أن الشمس تدور حول الأرض..؟! يبدو ذلك واضحًا للعين.. ولكنهم لم يفطنوا أن لربما كانت هناك تفسيرات أخرى، غابت عن ذهنهم، ولربما كانت هذه التفسيرات أيضًا (تتفق) مع ملاحظاتهم..!

هذا شبيه بالحوار الذي دار بين الفيلسوف النمساوي (لودفيج فيتجنشتاين) وتلميذته (إليزابيث آنسكومب) حول مسألة الليل والنهار، حيث سألها فقال: "لماذا كان من الطبيعي التفكير بأن الشمس تدور حول الأرض بدلًا من القول بدوران الأرض حول محورها..؟" أجابتْ (آنسكومب): "في ظني أن الوضع (يبدو) كما لو أن الشمس هي التي تدور حول الأرض".. أجاب (فيتجنشتاين): "حسنًا، ما الذي كانت سـ (تبدو) عليه الحال إذن لو كانت الأرض تدور حول محورها"..؟!



لذلك أتى البعض بعد ذلك، وبعد أن أثبت العلم الكثير من الأشياء، ليرى أن العالم لم يعد في (حاجة) إلى الإله، فقد فسّر له العلم كل شيء، وقالوا أن ما لم يفسره لنا العلم بعد سوف يفسره بعد ذلك، وأن وظيفة (الإله) الآن هو أن يسد ثغرات العلم حاليًا، وأطلقوا عليه (إله الفجوات)..! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.. هذا على أساس أن الدين الحق النازل من السماء قد ادّعى هذه الترهات التي ادّعاها الأقدمون فيما يخص الظواهر الطبيعية..!

يمكنك أن تتخيل كمّ الأخطاء العلمية التي كان سيقع فيها القرآن لو كان (اختلاقًا)

من بشري عاش قبل الثورة العلمية بأكثر من ألف عام..؟! كم الأساطير والخرافات التي كنا سنجدها فيه تشرح لنا (السبب) المادي الذي يقف حول هذه الظواهر..! كم (الاختلاف) بين الكلام الذي يُدّعى أنه من عند الله وبين خلق الله وسننه في الوجود فعلًا..! يذكرنا ذلك بقول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢)..



في المقابل فإن القرآن فرّق في سبب هذه الظواهر بين (السبب الأول) وهو إرادة الله ﷻ التي (أراد) لتلك الظاهرة أن تحدث، ثم (أمرها) بأن تحدث، و(قدّر) لها الأسباب التي تجعلها تحدث على هذا النحو بالذات.. وبين (السبب المادي) الذي جعله الله ﷻ وراء هذه الظاهرة أو تلك..! هذا لأن قدرة الله ﷻ أن يخلق بالأسباب وبدون أسباب، ولكن القرآن أخبرنا أن سنة الله ﷻ وطريقته التي اختارها، هي أن يخلق بالأسباب..! كما يقول الله ﷻ عن ملك ذي القرنين: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف ٨٤-٨٥)..

يتضح هذا من الطريقة التي وصف الله ﷻ بها جريان السفن على البحر بأنها من فعل الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (يونس ٢٢).. وأنها بأمر الله ﷻ: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ (الروم ٤٦).. وبرغم ذلك وصف أيضًا (السبب) الذي يقف وراءها، بل وأقر بفاعليته، وهو الريح التي لو سكنت ما جرت هذه السفن..! ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (الشورى ٣٣).. إلى هذا الحد تبلغ قوة هذا السبب وتأثيره..! إلى حد انتفاء جريان السفن في اللحظة التي تسكن فيها هذه الرياح، برغم أنها تجري بأمر الله ﷻ..! ولكن لأن الله هو من جعل الرياح سببًا لهذا الجريان..

هناك مثال آخر، وهو في الطريقة التي وصف الله ﷻ بها إنزال المطر..! حيث ذكر الله

تعالى أن هذا من فعله هو: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ (الشورى ٢٨).. ثم ذكر أنها بسبب الرياح التي تسوق السحاب المحمّل ببخار الماء، فقال الله ﷻ يصف الطريقة التفصيلية التي يُنزِل بها هذا المطر: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم ٤٨)..



حينها تفهم كيف تتسق آيات الله الشرعيّة مع آياته المبثوثة في الوجود، من أن كل شيء بأمر الله، ومع ذلك هناك سبب منطقي مفهوم معقول قائم لهذه الأشياء، معترفٌ بفاعليّته، وبتأثيره..

كما تساءلت مريم عليها السلام (المؤمنة الصدّيقة) عن الأسباب فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ (آل عمران ٤٧).. وسؤالها عن الأسباب لم ينافِ إيمانها بالله، ولكن كان يعني قناعتها بأن الله يخلق من خلال الأسباب.. ولكن ربما ما كان غائبًا عن ذهنها في هذه اللحظة، أن الله الذي خلق هذه الأسباب وأجراها، فهو قادرٌ على أن (يوقفها) أو (يستبدلها) في أي وقت يشاء، كما قال لها الله ﷻ: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران ٤٧)..

فليثبت لنا العلم التجريبي إذن ما يشاء من أسباب الظواهر العلمية، فما يزيدنا ذلك بالله ﷿ حقًّا إلا إيمانًا به ﷻ وبسننه التي أقرّها في الوجود، وذكّرنا بها القرآن..

أن كل شيء منه وإليه..

وأنه خالق كل شيء..

وأنه على كل شيء وكيل..!

٤- خارج النطاق..!

في ٢٧ ديسمبر ١٨٣١ رحل الشاب البريطاني (تشارلز دراوين) على متن سفينة (بيجل) —التي كانت سفينة حربيّة ثم تحولت إلى سفينة استكشافات— إلى واحدة من أشهر الرحلات الاستكشافية في التاريخ.. انطلقت السفينة إلى أمريكا الجنوبية وأستراليا ونيوزيلاندا.. واستمرّت الرحلة خمس سنوات جمع خلالها (داروين) عيّنات من الأماكن التي زارها، وبالأخصّ جزر (جالاباجوس)..

وبعد أن عاد إلى بلاده أخذ في دراسة هذه العيّنات، لاحظ أن هناك (تشكيلة) متنوعة من طيور جالاباجوس مثلًا، وكلها شبيهة ببعضها البعض، على أن هناك اختلافات يسيرة بينها في حجم وطول المنقار أو ألوان الريش وما إلى ذلك.. وفي نفس الفترة أخذ في الاهتمام بتربية الحمام وبالطريقة التي يمكن بها للإنسان الحصول على مواصفات معيّنة مرغوبة في سلالة الحمام الجديدة في حالة قام بالتهجين بين السلالات المناسبة للآباء.. وفي نفس الفترة أيضًا أطال في التأمّل في كتاب (مالتوس): مقالة عن السكان —والذي سبق وأشرنا إليه— وهذا الكتاب كان يشرح ببساطة كيف أن الجنس البشري يتكاثر أكثر من معدل زيادة غذائه، مما يعني أنه في النهاية سيصل إلى مرحلة الصراع من أجل البقاء..

استمرّ داروين في هذه العزلة لمدة عشرين عامًا كوّن خلالها نظريته، وكانت العزلة ستستمر إلى ما هو أكثر من ذلك، لولا أن (ألفريد والاس) عالم الأحياء البريطاني بدأ في نشر أبحاثه في ١٨٥٨ والتي هي قريبة الشبه جدًا بأبحاث داروين، ففضل داروين أن يخرج لنا فكرته في كتابه (أصل الأنواع) في ١٨٥٩..

فكرته كانت أن كل الأحياء على وجه الأرض لها أصل واحد وسلف مشترك ولم يتم خلقها بانفراد، ولأن الموارد الغذائية كانت أقل من هذه الأحياء، قام الصراع من أجل البقاء بتحفيز الطبيعة للقيام بدور مُربّي الحمام الذي يختار من السلالات أقواها ليحصل على

أفضل الأبناء، فيما يعرف باسم: الانتخاب الطبيعي، Natural Selection.. أي أن هناك نوعين مثلًا من السلالات تسعى لنفس الطعام، أحدهما أسرع وأقوى من الآخر فبالتالي هو من سيفوز بالطعام، ليستمر في الحياة ويتناسل، بينما سيموت الأبطأ على الأرجح من دون أن يتسنى له أن يترك ذرية.. وهكذا، ومع مرور الزمن يصبح لدينا ذرية ونسل فقط لصاحب الصفات الجيدة الماهرة، أي أن الطبيعة تختار الأفضل دائمًا، مما يؤدي بنا إلى التطوّر العشوائي في النهاية Evolution.. ثم تتسبب الظروف الجيولوجية في انعزال هذه المجموعات لتتطور كل منها بشكل مختلف، مما يؤدي بنا إلى نشاة الأنواع المختلفة، وهكذا ينشأ أعلى وأقوى هذه الأحياء (الإنسان) من أصل بسيط جدًا يتمثل في كائن وحيد الخلية: (الخلية الحية الأولى)..

(حدّوتة) مثيرة للاهتمام..! ولا يعنينا نقدها الآن في هذا الكتاب الذي لم يُعدّ لذلك، وهي على كل حال أكثر النظريّات إثارةً للجدل في تاريخ العلم، ليس فقط لأنها تلعب دور المسرح الذي يحوي صراعًا مستترًا آخر بين الإلحاد والإيمان بالخالق.. وليس فقط لأنها تطوّرت إلى أشكال أكثير تعقيدًا من خلال عدة قفزات في القرن الواحد والعشرين فيما يعرف باسم (الداروينية الجديدة).. ولكن أيضًا لأن الصراع فيها حَدّي للغاية، وعلى مر المئة والخمسين عامًا الماضية، كان العلماء ينقسمون فيها ما بين مؤيد (جدًا) ومعارض (جدًا) للنظرية..!



الذي يعنينا فقط في هذه النظرية الآن هو أن نلقي الضوء على بعض الجوانب شديدة الغموض و(التحيّر) فيها، والتي تجعل مؤيّديها –قبل منتقديها– يقرّون أن هذه مناطق (ظلاميّة) لا يستطيع العلم أن يجيبنا عنها لأننا (لم نكن هناك حين حدثت)..!

على سبيل المثال، وكما يقول (ديفيد بيرلنسكي) –عالم الرياضيات غير المؤمن بالله،

والذي هو مع ذلك من أشد معارضي هذه النظرية— دعونا نتأمل في الحوت، من المعروف أنه حيوان ثديي يعيش في الماء.. ولأن الداروينية قد رتّبت ظهور الأحياء بدءًا من البكتيريا وانتهاءً بالثدييات، فإن هذا معناه أن الحوت لم يتطور عن الأسماك، ولكن كان كائنًا ثدييًا ما (بقرة مثلًا) ثم تطوّر إلى صورة تمكّنه من العيش في المحيط الواسع..

والآن لكي يستطيع هذا الكائن الثديي أن يتحول من حيوان يعيش على اليابسة إلى حيوان يعيش في الماء فهو يحتاج إلى تغيّرات في جلده، وفي جهازه التنفسي، ونظام الرضاعة، والتغذية، وإفرازات اللعاب، والعين، والسمع... إلخ، قام بيرلنسكي بحساب هذه التغيرات اللازمة فوجد أنها ٥٠ ألف تغيرًا..! تذكر أن الداروينية تعتمد التغيّر التدريجي البطيء من حالة إلى أخرى، أي أن علينا أن نجد آلاف آلاف الحفريّات لكائنات وسيطة تمثل النقلة التي مرّت بها البقرة لتصل إلى الحوت..! وهكذا بين كل نوع ونوع من الفصائل (Species).. إلى أن تصل في النهاية إلى ملايين الحفريّات المطلوب وجودها..

مشكلة ندرة الحلقات الوسيطة في السجل الحفري هي مشكلة مُعتَرف بها بين مؤيدي النظرية، وحتى داروين نفسه، قد قال أن هذه من الألغاز التي تواجهه، ولكنه وضع افتراضًا مبني على أساس أن أماكن اليابسة والمحيطات على هذه الأرض (ربما) كانت معكوسة في الأزمنة الغابرة، فبالتالي (ربما) كانت الأحياء القديمة تعيش على الأماكن التي تحتلها المحيطات الآن، فبالتالي (ربما) كانت كل هذه الحلقات الوسيطة تقبع تحت الأطلنطي ونحن لا ندري..! هذه (رُبّمات) كثيرة جدًا يا سيد داروين..!

هناك مشكلة أكبر وأهمّ: الجمال..! فالداروينية فسرت بقاء الأقوى، ولكن ماذا عن بقاء الأجمل؟؟ من جديد، فإن داروين قد توقّف عند هذه المشكلة، ولكنه افترض أن الانتخاب الجنسي يقوم مقام الانتخاب الطبيعي في الحفاظ على الأجمل.. بمعنى أن الإناث تختار الأجمل من الذكور لتخصيبها، فبالتالي تنقرض الفصائل القبيحة.. بالطبع هذا لم يفسر

لنا سبب حب الإناث للجمال، أو سبب وجود قيمة الجمال في هذه الحيوانات العجماء أصلًا..!

هناك مشكلة أكثر عمقًا: الاختلاف الذكائي البالغ للإنسان عن كل ما سواه، الوعي البشري الفريد الذي جعله مميّزًا عن بقية الأحياء على الكوكب.. كانت هذه المشكلة من الضخامة بمكان ما جعل (والاس) شريك داروين في فكرة الانتخاب الطبيعي، يتراجع عن فكرته فيما يخص الإنسان، واعتبر أنه استثناء لا يقع في سلسلة التطور، لأن القشرة الدماغية الهائلة قدّمت طفرة كبيرة للغاية تفصل الإنسان عن أقرب الحيوانات قربًا له في سلسلة التطور.. لكن من جديد، فأصحاب الداروينية تمسّكوا بها، وافترضوا في هذه المسألة أنهم أمام أحد الألغاز العلمية التي ستنكشف في (يوم) ما..! ناهيك عن أن بعضهم أبدى تشاؤمًا من إمكانية الوصول لحل هذا اللغز يومًا.. وعبّر (دانيل دينيت) الملحد عن إشكاليّة تكون الوعي البشري العظيم بقوله: "ثم حدثت المعجزة"..! معجزة..؟! Ok يا سيد دينيت..!

تتعرض الداروينية لألغاز أخرى، مثل الطريقة التي تطورت بها العواطف، أو المشاعر.. أو السبب وراء وجود الأخلاق والقيم.. أو كيف نفسّر كل هذه الروعة والإتقان في الحياة بالطفرات الجينية العشوائية، في الحين الذي لا نجد فيه إلا أمثلة شديدة الندرة على وجود طفرات جينية حميدة الأثر، بل معظمها يسبب العاهات والمرض..! وفي كل مرة تواجه هذه الألغاز فالإجابة هي: (لا ندري، ربما، من الممكن، احتمال)..!

على أن أكبر هذه الألغاز التي واجهوها كان لغز نشأة الحياة..! فنظرية التطور حاولت تفسير كيفية نشأة الأنواع، لكنها لم تفسّر كيفية نشأة الخلية الحية الأولى.. وداروين قد اعترف صراحةً أنه لا يملك إجابة عن هذا السؤال، وأما (مايكل روس) الذي كتب سيرة داروين الذاتيّة يرى أنه ربما كان هذا نتاجًا لترتّب الأحماض الأمينية على (بلّورات) فائقة بطريقة ما..!

بينما أتى (فريد هويل) عالم الفضاء البريطاني الأبرز بنظريّة عبقريّة للغاية، تشي بأن الحياة نشأت على الأرض بواسطة (بذرة فضائيّة) من كائنات أذكى، وقدّم فكرته في عام ١٩٨٢ في كتابه "التطور من الفضاء"، بعد النظر إلى الاحتمالات الضئيلة للغاية من وجهة نظره لنشوء الحياة على الأرض حيث قام بحساب احتمال الحصول على السلسلة الضرورية من الإنزيمات حتى لأبسط خلية حية دون تبذّر فكان الاحتمال هو واحد على $١٠^{٤٠٠٠٠}$..! وبما أن عدد الذرات في الكون المعروف يعد متناه في الصغر عند مقارنته به ($١٠^{٨٠}$ فقط)، فهو قد احتج بهذا على أن الأرض ربما كانت تحت تحكم خارجي.. فقال: "ولو تابعنا بشكل مباشر ومستقيم في هذه المسألة، ودون أن نبالي بالخوف من مخالفة الرأي العلمي السائد، نصل إلى استنتاج مفاده أن المواد البيولوجية بما تحويه من قياس ونظام يجب أن تكون ثمرة تصميم ذكي، ولا توجد أي احتمالية أخرى يمكنني التفكير بها"..!

هذا لم يتغير مع مرور الزمان بسهولة، حيث إن (ريتشارد دوكنز) المعاصر والذي هو أشد المتحمسين للداروينية في عصرنا الحالي، ليس لديه كبير اعتراض على افتراض (هويل) ويرى أنه (لربما) فعلًا كانت كائنات فضائية غامضة هي السبب وراء تكوين هذه الخلية الحية الأولى.. لا ندري لماذا لم يسألوا أنفسهم: ومن أين أتت هذه الكائنات الفضائيّة..؟! يبدو أنه وكما يقول الإعلامي الأمريكي (بين ستاين) معلّقًا على هذا: "هم لا يعترضون على افتراض التصميم الذكي إذن، هم فقط لا يحبون أن يكون هذا الذي قام به هو الله"..!

بينما أشد الافتراضات قبولًا لدى معظم أنصار نظرية التطوّر الدارويني، هو أن العوامل الكونية مثل البرق والتفاعلات الكيمائية بالتراب هي التي أنشأت هذه الخلية بالصدفة..!



وإذا أردنا أن نخرج عن نطاق الداروينية قليلًا، فماذا عن نظريّات نشأة الكون ككل..؟! يؤمن غالبية الفيزيائيين اليوم بالانفجار الكبير كنظرية تفسّر لنا نشأة الكون المشاهد من

مُفرَدَة كونية (Singularity) ذات الكثافة والكتلة غير المتناهيين، والحجم القريب من الصفر، والتي تمددت في لحظة معينة لتكوّن الكون كله.. هذا الاعتقاد بصحة هذه النظرية لا يتأثر بديانة هؤلاء العلماء أو موقفهم من وجود الله ﷻ.. ولكن من يؤمن منهم بالله سيرى أن الله هو الذي خلق هذه (المفرَدَة) وأمرها بأن تكوّن الكون على هذه الطريقة البديعة.. بينما الملاحدة من هؤلاء سيقعون في لغز: ومن أين أتت هذه المفردة..؟!

ادّعى بعضهم أنها قد بزغت من العدم فجأة وبشكل تلقائي..! ولكي لا يتسبب قولهم هذا في كسر قواعد المادة والطاقة التي هي ألف باء الفيزياء.. افترضوا أن كمية المادة في كوننا تساوي كمية ضديد المادة تمامًا Anti–matter وأن كمية الطاقة الموجبة تساوي كمية الطاقة السالبة تمامًا.. وبذلك يصبح الكون في حقيقته يساوي صفرًا، فلا مانع من أن يبدأ كجسيم يخرج من العدم لأنه هو الآخر أصلًا عدم..! بينما فضّل آخرون التمسك بفكرة أن الكون يحتوي على القوانين الفيزيائية التي تمكنه من أن يخلق نفسه.. وفي كل الأحوال فهؤلاء وأولئك لم يزعموا أبدًا أنهم متأكدون من كلامهم، بل هم يعلمون أنهم (ربما) كانوا على صواب..



وهكذا نرى أن الفضول البشري عتيدٌ حقًا فيما يخصّ ما لا يعلمه..! كل ما لا يتناهى إلى العقل البشري من العلم يثير غيظه بالفعل، ويدفعه إلى البحث عنه والتحيّر بشأنه، هذه لمحة من صفات النفس البشرية عمومًا والتي أخبرنا بها القرآن في قول الخضر لموسى ﵇: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (الكهف ٦٧–٦٨)..؟!

ونتيجة لهذا الفضول يأتون بالفرضيّات المحتملة لذلك، ولكن وقتها يتساءل العاقلون إن كان ما يقولون هو الحقيقة، أليست من صفات هذه الحقيقة أن تكون واحدة..؟! معنى أن تكون واحدة أن تكون كافية مغنية موثوقًا بها، ولكن لماذا يراها كثيرة إلى هذا الحد..؟

لماذا هم مختلفون فيها كل هذا الاختلاف..؟! إن هذا كما يقول الله ﷻ عن مثل فعلهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ (الذاريات ٨)..!

ثم يتساءل العاقلون أيضًا، إن كان ما يقولون هو الحقيقة، فلماذا تكون ظنًّا واحتمالات..؟ لماذا تحوي كل هذا الكم من (ربما، من الممكن، لا ندري بالظبط ولكن نفترض... إلخ)..؟؟! أليس من المفترض لهذه الحقيقة أن تكون (علمًا) وليست (ظنًّا)..؟ إن هذا كما يقول القرآن: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس ٣٦)..

ثم يتساءل العاقلون، إن كان ما يقولون هو الحقيقة، فلماذا لا نجد لها أبعاد الحقيقة..؟! فالحقيقة التي هي حقيقة بالفعل، يكون طولُها: الإقناع، وعرضُها: الإحاطة، وارتفاعُها: المعقوليّة..! إنها ليست كالحقيقة تفسر الكون والخلق بكل تعقيداته.. فهي كالباطل الذي ذكره القرآن تمامًا: لا يبدئ ولا يعيد..! كما يقول ﷻ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبأ ٤٩).. أي أنه الشيطان لا يخلق أحدًا ولا يحييه، كما قال قتادة، أو أنها الأصنام لا تُبدئ خلقًا ولا تحييه، كما قال الضحّاك، أو أنه استفهام بمعنى: "فأي شيء بقي للباطل حتى يعيده ويبدئه..؟؟!" كما قال القرطبي..



ليس هؤلاء وأولئك موقنين بما يقولون فعلًا.. بل هم في شك كامل منه، ولكن هذا الشك سيسلّيهم ويلهيهم عن التماس الحقائق الكبرى في الوجود بالطريق الذي لا بد لهم منه، وهو طريق الإيمان بالله ﷻ، وهم لا يحبون هذا الطريق على كل حال.. لذلك التماسهم للغيب بطرائقهم المشكوك فيها هذه، وبرغم أنها تظهر بمظهر العلم والحكمة إلا أن المؤمن —الذي قد وصل إلى حقائق الوجود بطريقة يثق فيها هو ويتيقن— سينظر إلى هؤلاء على أنهم في الواقع يلعبون..! مثلما يقول الله ﷻ عن مثلهم: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (الدخان

٩).. يمكننا أن نتوقع أن نتائج هذا الالتماس الغيبي الشكوكي في الواقع أقرب للعبثية من الجدية، أقرب للضلال من الهدى، أقرب للخطأ من الصواب..!

هذا الذي نلاحظه الآن من تخبّط على غير هدى منهم، كان من نتاج خروج العلم التجريبي عن (النطاق) الذي يستطيع أن يكون فيه..! حين نبحث بأدوات العلم (التي يمكن تطبيقها على الموجودات في المعمل) في حقائق الوجود الكبرى التي لم نشهدها بطبيعة الحال فإن هذا يوقعنا في إشكاليّة استدلاليّة كبيرة.. كما يقول (ديفيد بيرلنسكي): "من منظور العلم الحقيقي، ما دامت لا توجد تجربة معروضة فأنت في ورطة..! ولا تملك أدنى فكرة عن كفاية هذه الأدلة على الغرض المراد منها أم لا"..! وهو الأمر الذي يمكننا أن نلاحظ أن القرآن نبهنا عليه، كما يقول ﷻ: ﴿**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ**﴾ (الكهف ٥١)..

هذا الذي يحاولون الوصول إليه هو محض غيب بالنسبة للإنسان، وهذا هو السبب في كونهم يصلون في النهاية إلى حائط مسدود لا يمكنهم عبوره، ويضطرّون أن يقولوا الكلمة التي يحاولون إقناعنا أن العلم لا يعرفها، وهي كلمة: لا ندري..! ولذلك يقول الله ﷯ عن هؤلاء الذين يحاولون أن يلتمسوا (الغيب) بأدواتهم الناقصة: ﴿**وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ (سبأ ٥٣).. كمثل من يحاول أن يقذف هدفًا بعيدًا جدًا عنه بحجارة، لا قوة يديه ستُوصِل حجارته إلى ما يريد، ولا قوة عينيه ستُعلمه أين يجب أن يرمي بالضبط..! سيصبح حينها راميًا بحجارته من ذلك المكان البعيد على غير هدًى آملًا أن تصل بطريقة ما، وبحظٍّ ما، إلى وجهتها الصحيحة..!

ولكنهم مع ذلك يقبلون برضا نفس كامل أن يأخذوا هذا الذي يقولون إلى القبر، ويقبلون أن يُفنوا حياتهم في الدفاع عنه، ويقبلون أن يكون لديهم قدرًا من القناعة يدفعهم إلى أن يغضوا الطرف عن كل ما لا يحيط به عقلهم بالفعل.. في النهاية هم يقومون بما يقوم

به المؤمنون بالفعل..! هم عندهم إيمان غيبي فعلًا: Faith.. الفارق الوحيد أنه ليس إيمانًا بالله، ولكن بالعلم..! هم متدينون فعلًا: Theists والفارق الوحيد أن دينهم ليس العبوديّة، ولكن العلم..! هم كما يقول الله ﷻ فيهم: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (العنكبوت ٥٢)..!!

ألم أقل لكم في البداية، هناك فاشلون..!

دائمًا هناك فاشلون..!



عن العلم التجريبي ونتائجه، فإننا نلاحظ أن القرآن لم يتخذ موقفًا عدائيًا منه ولا اعتبره عدوًا مناهضًا للدين والإيمان، بل وضّح لنا أنه ليس فقط من منن الله عز وجل العظيمة على البشر الذي علمهم ما به تسهل معيشتهم ويُيَسَّر متاعهم، ولكن أيضًا اعتبره محرابًا من محاريب الإيمان حين يدلنا على صفات الخالق العُلى وأفعاله الحكيمة..

ولكن القرآن ذكرك بالخطايا العشرة للعلوم البشرية ومنها العلوم التجريبية بطبيعة الحال، الغرور والتعالي، والجدال بالعلم الناقص، والخلط بين اليقين والاحتمال، وقصر الحقيقة على التجربة المادية، واتخاذ العلم وسيلة للهدم والإبطال، وصنيعة الوهم والاحتماء به، وتزوير الحقيقة، واحتكار نطاق الفهم الضيق لبقية الأفهام، والهزيمة النفسية تجاهه، وسرعة تزعزع الإيمان مع أول ما تسمعه..! لو حذرت من خطايا العلم العشر فهنيئًا لك أن تتمتع من روعته ما تشاء..

ومن روعة القرآن أنه اتسق تمامًا مع الحقيقة الكونية من حولنا بفاعلية قوانين الله عز وجل في خلقه، وبجريان الأسباب مع مُسَبَّبَاتها.. ولا عجب من ذلك إذ أنه كلام خالق الكون المتعال الذي أحاط بكل شيء علمًا.. وهكذا تجد أن العلم لن يناقض القرآن أبدًا

في شيء مهما كانت نتائجه، إن كانت (حقًا) هذه هي نتائجه..!

وفي النهاية فالقرآن كان حريصًا على تذكيرك بضرورة وضع كل شيء في موضعه، وألا تستخدم العلم البشري الناقص ذا النطاق الضيق المحدود في نطاقات هي أوسع منه وأعمّ.. أن تحذر من أن تقذف الغيب من مكان بعيد، من أن تختبئ خلف باطل لا يبدئ ولا يعيد، من أن تؤمن بالناقص وتكفر بكمال الإله المجيد..!

فلا تكن يا صاحبي من الفاشلين..!

العدل الإلهي

(عن قيام الحجة ووجود العذاب في الآخرة)

يقول الكاتب الأمريكي (أورين وودورد): "النجاح ليس صعبًا للدرجة التي يُظهرها الراسبون"..! حيث لا يكون الأمر فعلًا بهذه الصعوبة، ولكن لأن هناك من رسب، أصبح من ينظر من بعيد يظن أن الأمر بهذه الصعوبة..!

وما أكثر الراسبين يا عزيزي..!! كما يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (يوسف ١٠٣).. ويقول: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (الأنعام ١١٦).. الراسبون أكثر من الناجحين إذن..!

إنه الهوى البشري العتيد الذي يجعل الإنسان يتمسك بما يحبه من السكون والدعة والراحة ولذائذ الدنيا وأموالها، أكثر بكثير من حبه للحق الشاق واتباعه.. غير أن المؤمن العاقل (أجّل) شهوات نفسه ومتعها، والكافر (عجّل) منها.. كما يقول ﷻ: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾ (القيامة ٢٠-٢١)..

هذا الهوى استحوذ عليهم تمامًا حتى صاروا مجرد دمية تلعب بها أصابعه وتحركها كيفما شاءت..! تغيّرت حواسهم أنفسها، فصارت لا تتوجه إلا إلى ما تحبه النفس وترضاه.. وخلطوا بين ما (تكرهه) نفوسهم وبين ما هو (مكروه) في نفسه.. ومزجوا بين معيار العقل في (الحكم) على الأمور ومعيار النفس في (تفضيل) هذه الأمور..!

وماذا كانت النتيجة..؟؟ صاروا كما قال الله ﷻ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ (الجاثية ٢٣).. وصاروا عندما يأتيهم الحق يكرهونه: ﴿**بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ (المؤمنون ٧٠)..

ولكن ماذا ستنفع كثرتهم..؟ هل يغيّر هذا من حقيقة الأمر شيئًا..؟! هل لأن معك في صف الكفر الممثل الذي تحب نكاته، والسياسي الذي تجذبك شخصيته، والعالم الذي تُعجب بأبحاثه، هل لأن معك هؤلاء، سوف يغيّر هذا من أنك قد جانبتَ الصواب..؟!

يذكرنا القرآن بهذه الحقيقة حين يقول ﷻ: ﴿**وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ (الزخرف ٣٩).. لن ينفعكم أنكم سويًا، لن ينفعكم أنكم مجتمعون..!

كثرة هؤلاء الراسبين جعل البعض يظن شططًا أن لربما كان هناك خللًا ما في طريقة عدل الإله وسريانها على خلقه، سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا..!

بينما في سؤال العدل الإلهي تتجلّى لنا حقيقة ساطعة، أن الله لم يجعل على العباد حجةً واحدة، ولا اثنتين، ولا ثلاثًا، ولكن أربع حجج..!

١- الأربعة..!

أول هذه الحجج هي الفطرة..! أننا جميعًا مخلوقون على شفرة موحّدة تدلنا وتقودنا إلى الإله في النهاية..! من أكواد هذه الشفرة: الشعور الثابت بداخلك بالفقر والحاجة باستمرار، كما يقول الله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (فاطر ١٥).. ذلك الشعور الذي تكفينا الإشارة إليه حتى تتذكره في نفسك.. دعك من المكابرة فأنا أعلم أنك جرّبته مرارًا..!

ومن أكواد هذه الشفرة: المبادئ العقلية الأولية المغروزة بداخلك..! والتي خلقها الله ﷻ فينا يوم أن وهبنا الأفئدة: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (النحل ٧٨).. تلك المبادئ التي تخبرك بأن الجزء أصغر من الكل، وأن لكل حادثة سببًا وراءها، وأن وراء كل نظام هناك إرادة اختارته.. هذه المبادئ التي غُرِزَت فيك منذ أن خلقك الله ﷻ، فتستطيع بعد ذلك أن تفهم على أساسها مبادئ الإيمان..!

على أن أقوى أكواد هذه الشفرة: الشعور بالله ﷻ وبوجود الرب وبأننا عبيده.. كما

يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**﴾ (الأعراف ١٧٢)..

ولدهشتهم، فإنا هذه المرة سوف نصدقهم إن قالوا لنا أنهم لا يشعرون بهذه الفطرة في وجود الخالق، والسبب أن أحدًا ما —قد يكون صاحب هذه الفطرة أو غيره— قد أفسدها يا عزيزي..! كما في الحديث الذي في صحيحي البخاري ومسلم ورواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أن: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه"..

ولذلك —وبالرغم من أن هذا الكود هو أقوى دلائل الفطرة على الإطلاق— فإن هذا الدليل وهذه الحجة لا تصلح بمفردها، لأن الفطرة قد تتلوّث وقد تفسد.. وما أكثر الملوّثين..!

ثاني هذه الحجج هو العقل، حيث وهبه الله عَزَّ وَجَلَّ لكل المكلّفين، ومن وُهبوا عقلًا ناقصًا أو مريضًا فهم معذورون لا يُعذَّبون.. وثالث هذه الحجج هي الآيات الكونية المشاهدة من حولنا، والتي أودع الله عَزَّ وَجَلَّ فيها دلائل قدرته وحكمته ووحدانيّته.. والله عَزَّ وَجَلَّ قد تكفّل بأن تصل هذه الحجة إلى كل أحد، كما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (فصلت ٥٣)..

وأما رابع الحجج وأهمها على الإطلاق فهي الحجّة الرساليّة، كما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ (النساء ١٦٥).. فلن يبقى لأحد منهم أي وجه يتكلم به بعد أن أتمّ الله عَزَّ وَجَلَّ حججه الأربعة..



بدون أي واحدة من هذه الحجج الأربعة، يُعدّ الإنسان معذورًا عند الله، غير أن حجة الفطرة وحجة الحسّ ثبتتا لجميع الخلق.. وأما حجة العقل، ففاقدها (مثل المجنون)، أو

ناقصها (مثل الطفل) معذور، وحجة الرسالة ففاقدها أيضًا معذور..

لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء ١٥).. ويقول عن خزنة جهنم أنهم يسألون —استنكارًا وتعجبًا— كل فوج يرد إلى جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (الملك ٨)..؟!! لأنهم يعلمون أن الله لا يعذّب أبدًا من دون نذير..!

تأكد أن الله لا يعذّب معذورًا.. وهذا العذر هو عند الله ﷻ، هو أعلم به مني ومنك، فأنت قد ترى الرجل كافرًا أمامك في بلد بعيدة ما، ولكنه لربما يكون عند الله ﷻ معذورًا لأنه لم تبلغه رسالة السماء، أو بلغته ولم يفهمها، أو فهمها على وجه مناقض لما هي عليه (في أصلها).. فيعقد الله ﷻ له —مع غيره من المعذورين— اختبارًا آخر يوم القيامة.. لأن الله قد اقتضى عدله أن سنّ سنته: ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام ١٣١)..

٢- الذّهول..!

الأحلام لها منطق خاص بها، كل شيء تراه واقعيًا ومنطقيًا تمامًا، ربما ترى مثلًا أن رئيس المجر في صالون بيتكم يشرب شايًا بالحليب، بينما تقفز ابنة أختك من الشرفة وتطير في السماء، قد تتعجب من هذا وأنت في الحلم ولكن ليس لأنك على علاقة شخصية برئيس المجر، ولا لأن ابنة أختك تجيد الطيران، ولكن لأنك كنت تظن أن الجميع على علم بأن رئيس المجر يحب أن يشرب الشاي (سادة)..!

وحين تستيقظ تبدأ في اكتشاف الثغرات المنطقية الموجودة في هذا المشهد الذي كان واقعيًا تمامًا منذ قليل..! لذلك تجد أن العالم المنسّق الجميل في نظرك وقتها، لم يكن بهذه المنطقيّة حين انتقلت إلى عالم آخر، له قواعده الأخرى..

يمكنك أن تفطن إلى مثل هذه المعضلة في مثال آخر، وهو حين تنظر تحت المجهر الضوئي للأنسجة الحية المتناسقة الجميلة في جسم الإنسان، حيث كل شيء سليم وفي موضعه، (الأوعية الدموية) تعيش بجانب (الخلايا الدهنية) و(الخلايا الطلائية) في وئام وتعاون كاملين.. لكن حين يقرر الورم السرطاني الخبيث بأن يقوم بزيارة خاطفة لهذه الأنسجة — لا قدّر الله— فإنك تلاحظ الجنون والارتباك الذي يجعل تلك الأوعية الدموية تنحاز للعدو وتعمل كمصانع خادمة تحت إمرته، وتتحطم الخلايا الدهنية تمامًا، بينما تصير الخلايا الطلائية كتلة قبيحة مائعة غير ذات معالم..!

من جديد تلاحظ أن كل شيء كان مرتبًا ومتناسقًا صار في حالة يرثى لها.. هنا ظرفٌ آخر، هنا قواعد أخرى..!

البناء المتناسق نحرص على صنعه بأنفسنا حين نهتم بشيء ما فعلًا فنحرص على أن يبدو على قدر كبير من المنطقيّة..! نقوم بصياغة الحجج الذاتيّة لتصرّفٍ ما أو اعتقاد معيّن.. ليس فقط لإقناع الآخرين أننا لا نقوم بأمر خاطئ، ولكن —والأهم— لإقناع أنفسنا نحن بذلك.. حتى يُبقينا ذلك قادرين على مواصلة هذا التصرّف أو ذلك الاعتقاد دون أن نُصاب بعذاب الضمير، أو وخز المسؤوليّة..!

وهكذا تتوالى الحجج والبراهين..! فالكذبة كانت (مجاملة)، والسُبّة كانت (خروجًا عن الشعور)، وإفشاء السر كان (لأجل المصلحة)، والرياء كان من رجل أقنع نفسه أنه (قدوة)، وخيانة العهد كانت (لتغيّر الظروف)، والنظرة المحرّمة التي نظر بها إلى زوجة جاره الحسناء، كانت فقط (للتأكد من شيء ما)..!

على أن أكثر ما يمكن أن تجده مثالًا واضحًا لهذه (الحجّة الذاتيّة) هو أمر الكفر بالله ﷻ، فتجد الكافر من هؤلاء يصنع لنفسه بناءً كاملًا متناسقًا في رأيه، وهو يظنه على قدر هائل من المعقوليّة للدرجة التي تجعله يجزم أنه سيستخدمه في الدنيا والآخرة..

فتجد أحدهم يخبرك أنه غير خائف من ملاقاة الله ﷻ مثلًا لو تبيّن أن اعتقاده فيه غير صحيح، لأنه سوف يقف أمام الله حينها بشجاعة ليقول له: لماذا أخفيتَ نفسك عني؟؟ أو: أنت تعلم أني اجتهدتُ بعقلي..! أو: أنت تعلم أني لا أستحق العذاب..

هو يظن أن المنطق الذي يفكر به الآن، سوف يصطحبه معه إلى دار الآخرة بشكل كامل غير منقوص، وأنه سوف يقدر على صياغته بنفس العبارات الرنّانة ذات الصدى والتي كان يقولها في الدنيا..! ويا له من ساذج..!

حيث إنه في العالم الآخر، ذي القواعد الأخرى.. ينهار هذا البناء المترابط تمامًا، ويفشل هذا المنطق اللطيف، ويضلّ عن كل هذه الحجج المفتراة.. تمامًا مثل حالنا في الحلم الذي نجد أنفسنا فيه منطقيين تمامًا، فقط إلى اللحظة التي نستيقظ فيها لنفطن إلى أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق..! كما يقول الله ﷻ عن ذلك اليوم: ﴿**انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (الأنعام ٢٤).. ﴿**وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (القصص ٧٥).. ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (هود ٢١)..

سوف يضلّون ويتيهون عن كل ما كانوا يفترونه من حجج، سوف ينسونها بشكل كامل..! سوف يُصابون بحالة ذهول تام عن كل ما كانوا جهّزوه، وأعدوه، ونمّقوه من حججهم في ذلك اليوم.. ليس لأن أحدًا سوف يقوم بإخراسهم، ولكن لأنهم سوف يتأكدون بأنفسهم، وحين تنكشف لهم حقائق الوجود رأي عين، أنهم لم يكن لهم أن يكفروا بالله ﷻ بأي حال..! وأنه لا توجد ثمّة حجة واحدة صامدة أمام براهين الإيمان، التي كانوا في عمىً عنها في الدنيا، وصاروا الآن يرونها بشكل واضح تام دون التباس من هوى أنفسهم، ودون غمامة من غمامات غفلات الحياة الدنيا..!



لذلك ينبّهنا الله ﷻ إلى لمحة أخرى من لمحات هذا الذهول، وهو في قوة الحواس وشدتها يومئذ.. تلك الحواس التي كانت في حالة ارتخاء وشلل —عمدًا— عن وظيفتها يوم أن كانت في الدنيا، صارت الآن تعمل بأقصى طاقتها، لتُجلّي لهم كل الحقائق..! كما يقول الله ﷻ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (مريم ٣٨).. وهو تعبير لغوي تعجّبي عربي يعني: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا..! إنها مقارنة بين حالهم الذي سيكونون عليه في الآخرة من نفاذ وقوة إحساسهم بأمر الإيمان وقتها، وبين الضلال المبين الذي هم فيه الآن..!



وهناك لمحة ثالثة من لمحات هذا الذهول —عكس اللمحة الأولى— وهي في التذكّر..! نعم، يتذكر الإنسان وقتها ما كان نسيه في الدنيا من كل أعماله الصالحة أو الطالحة، كل الجرائم التي ارتكبها في حق الله ﷻ (ولا يضرّه سبحانه ذلك شيئًا)، وفي حق الناس، وفي حق نفسه..! كل المصائب التي قام بها يومًا —وأعظمها يوم اتخذ قراره بالكفر بالله ﷻ— والتي عفا عليها الزمن وتبخّرت من ذاكرته طويلة المدى.. يوم أن يموت فيبعثه الله ﷻ سوف يتذكر كل ذلك: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر ٢٣-٢٤).. ولكن هل تراه ينفعه ذلك حينها..؟! ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس ٩١)..



وهناك لمحة رابعة من هذا الذهول، تتمثل في الطريقة التي يرون بها أعمالهم —التي كانوا يظنونها في الدنيا على قدر من الأهمية والخيرية— وهي تتبدد أمام أعينهم وكأنها لم تكن..! كما يقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ (النور ٣٩).. مثل سراب

الصحراء الذي يراه الرجل من بعيد فيظن أنه بركة ماء، وما هو إلا وهم بصري كان فيه، ويتأكد له ذلك (بنفسه) بالفعل حين يقترب منه فلا يجد أنه كان شيئًا..!



وأما اللمحة الخامسة والأهم والأكبر من لمحات هذا الذهول، فهي اكتمال علمهم وتبلوره بشكل تام في الآخرة..! سوف يعلمون كل شيء الآن، لماذا كان من الضروري أن يؤمنوا بالله في الدنيا، لماذا كانت حججه علينا حينها كافية، لماذا كفروا هم، ولماذا آمن غيرهم، ولماذا صاورا إلى ما صاروا إليه من العذاب، ولماذا هم يستحقون هذا العذاب..!

إنه فهم الغيب بعد أن صار شهادة، إنه اكتمال البصيرة التي صارت الآن بصرًا، وإتمام التصوّر الذي صار الآن صورة.. كما يقول الله ﷻ: ﴿**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ**﴾ (النمل ٦٦).. أي سيكتمل علمهم في الآخرة، كما يقول القرطبي رحمه الله: "لأنهم رأوا كل ما وُعِدوا به معاينةً فتكامل علمهم".. ولكنهم الآن في الدنيا في شك منها، ولكنهم الآن ما زالوا على العمى..!



لمحات هذا الذهول الخمسة تُنبئنا بأن هؤلاء لن تكون لديهم الرغبة يومها أصلًا للسؤال عن العدل الإلهي، لأنهم سوف يرون بأنفسهم كل شيء، بالقدر الكافي الذي سيجعلهم في صمت ذاهل وسكون خاشع..

لم تكن حجج الله ﷻ عليهم في الدنيا بناقصة أبدًا، ولم يكونوا مظلومين أو مبخوسين في حقهم، بل فصّل الله ﷻ لهم كل شيء، حتى يقول ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف ٥٢).. ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل اشترطوا أن يحصلوا على العلم التأويلي الإلهي كاملًا رأي عين قبل أن يتخذوا قرار الإيمان..! فيقول الله ﷻ في الآية التي تليها: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ**

نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف ٥٣)..

ولا ينفعُ حينها الندم..!

٣- الرعب..!

في ١٩٩٩ وقف (كوميدياني) أمريكي شهير على خشبة المسرح يسخر من الأديان في نوع من أنواع الكوميديا المفضلة عند الشعب الأمريكي (Stand Up).. هذا الرجل في عداد الأموات الآن، وعن نفسي لا أظن أنه الآن يضحك على نكاته..!

كان الرجل على المسرح وقتها يتحدث عن العذاب الإلهي الأبدي الذي تعدك به الأديان في حالة لم تؤمن بالله، فيقول: "أنت ستمضي حياتك السرمديّة وسط النيران والدخان والعذاب الشنيع المستمر إلى نهاية الزمان، ولكن مع ذلك فالله يحبك"..!

كانت نكتته تلك في هذه السنة شهيرة للدرجة التي أُعجب بها الكثيرون من الملحدين لسنوات طويلة..! وجدتُها على مواقع ترفيهية غربية، ومجموعات إلحادية عربية على مواقع التواصل الاجتماعي، ومترجمة على (اليوتيوب) أيضًا..! لم أفهم السبب في هذا إطلاقًا غير أن تكون حياة هؤلاء بالبؤس الكافي الذي أفقدهم التقييم الصحيح للإحساس بالفكاهة (Sense of humour)، ويبدو أنهم لا يضحكون في حياتهم جيدًا..!

على كل حال، فالديانة النصرانيّة المحرّفة فقط هي من يمكن (إحراجها) بهذه الفكرة.. حيث يزعم أتباعها بالفعل أن الله يحب كل البشر لأنهم صنيعته، فبالتالي أنت بذاتك محبوب لدى الرب الذي خلّصك من قيد الشيطان بفدائه بابنه من أجلك.. حين نتحدث عن النصرانية، فإن العاطفة تمثل جزءًا كبيرًا من بنائها الفكري..

بينما الإسلام لم يزعم أبدًا نفس الزعم، بل أقرّ القرآن بشكل صريح وواضح ببطلان هذه الفكرة: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (المائدة ١٨).. فالحبيب بالفعل لا يعذب حبيبه، وهذا لا يعني أن الله ﷻ لن يعذب أحدًا من البشر، بل يعني أن ليس كل من هو من البشر بالضرورة حبيبه..!

وبشكل واضح وصريح أيضًا وضح لنا القرآن أن الله ﷻ الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، لن يكتب هذه الرحمة لكل أحد، ولن يسوّي بين من يستحق ومن لا يستحق.. كما يقول ﷻ: ﴿**عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف ١٥٦).. لا يستحق كل أحد أن يعامله الله ﷻ برحمته في الآخرة، ولكن بالتأكيد لن يخرج أي أحد عن معاملة الله ﷻ بالعدل..!

قد يُشكِل أحد على مسألة وجود العذاب باعتبار: وأين رحمة الله من هذا..؟! والسؤال الأهم: ومن قال أن من يعذبه الله فهو مرحوم..؟! لو كنا قلنا ذلك لكان هذا تناقضًا واضحًا بالفعل.. بينما القرآن يوضح لنا أن الله ﷻ يعامل من شاء بما شاء.. كما يقول سبحانه: ﴿**يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ**﴾ (العنكبوت ٢١).. وأنه كما اتصف بكمال الرحمة والمغفرة، اتصف أيضًا بكمال العزة والجبروت والانتقام، كما يقول ﷻ: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾ (الحجر ٤٩–٥٠)..

ويذكّرنا الله ﷻ بهذه الحقيقة دائمًا حتى لا نركن إلى أحد ركني هذه الصفات ونميل معها بشكل أكثر من اللازم مما ينسينا الركن الآخر منها..! فيصبح أحدنا يائسًا من رحمة الله لأنه لا يرى إلا عقابه، ويصبح الآخر مطمئنًا للغاية وبشكل غير ذكي على الإطلاق،

فقط لأنه لا ينظر إلا إلى رحمته سبحانه، بينما القرآن يقول لك: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (المائدة ٩٨)..



ليس بين الله ﷻ وبين عباده خصومة..! الله ﷻ والعياذ بالله ليس ساديًّا يستمتع بتعذيب الناس أو حرقهم.. سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا..! إنما الله لا يريد لأي أحد من خلقه أن يُصاب بهذا العذاب: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ (النساء ٢٦–٢٨).. وهو يبيّن لنا أن العذاب غير مقصود لذاته أو مراد لأصله، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾ (النساء ١٤٧)..

ومن أجل ذلك لم يكن العذاب على حين غفلة، ومن دون تحذير، بل أقام الله ﷻ في القرآن التحذير: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾ (يس ٦٠–٦١).. ثم يوم القيامة ولما تزفر النار ويفزع من صوتها كل أحد، يعيد الله ﷻ علينا نفس الكلمة حينها، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ.. نفس الكلمة التي قالها في كتابه وعرفناها منه في الدنيا، لتدل على أن الله حذّرنا وخوّفنا من هذا المصير ليمنعنا منه.. ولكن أبى البعض إلا الهلاك، أبى البعض إلا العناد، أبى البعض إلا الحماقة..!



غير أن هناك من الناس من يفترض أن وجود العذاب يعني التساوي بين كل المجرمين.. وتراه بعد ذلك يتعجب: وكيف يُسوّي الله بين الكافر السفاح الزاني معاقر الخمور، وبين الكافر اللطيف الملازم للكنيسة..؟!

إنه هنا يفترض أن النار دركة واحدة، وأن كل من هو (مُعذَّب) يعذب بنفس المقدار.. والحقيقة أن هذا أمر خاطئ تمامًا، فالقرآن يخبرنا أن: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**﴾ (النحل ٨٨).. فأعمال الكافر اللطيف تعود عليه تخفيفًا من عذابه يوم القيامة، وأعمال الكافر السفاح تعود عليه عذابًا فوق العذاب، والنار دركات بعضها أسفل من بعض، أسوأ من بعض، أشد إيلامًا من بعض، بما لا يقاس..!



وهناك من الناس من قد يفكر أن في وجود العذاب نوع قسوة..! ويرى أن المفترض أن يتم الاحتفال بالجميع في النهاية مثلًا..! أو أن يفلت المجرمون بعقابهم..! بينما لو أُصيب أحدهم بمظلمة شديدة في الدنيا، فإنه ينسى كل هذه الخواطر، ولا يتمنى فقط أن لو كان العذاب في الآخرة يطال هذا الظالم، ولكن أيضًا أن يراه بعينيه..!

وهناك من الناس من هو أشد غرابة من هذا.. يقول: عذاب الناس على مظالمهم في حق الناس يوم القيامة مفهوم، ولكن لماذا يتم تعذيب الكفار بالله حتى ولو كانوا إنسانيّين خلوقين أذكياء..؟!

هو إذن قد افترض ورأى وقرر أن حق الله ﷻ على الناس أقل شأنًا وأوضع مكانة من حقوق الناس على بعضهم البعض..! ويرى أن الرجل الذي أساء إلى جاره أو إلى قطته الأليفة هو رجل شرير يستحق العقاب، بينما الرجل الذي جحد حق الخالق وولي النعم الذي وهب له كل شيء، هو رجل طيّب لم يؤذِ أحدًا ولا يستحق العقاب..!

وكلٌ من النوعين الأول والثاني لديه نفس المشكلة في النهاية، أنه افترض أن له أن يقرر ما الذي يجب أن يحدث في الكون..! نسي أنه لم يخلق أحدًا، ولم يملك ذرة، وليس له من الأمر شيء..! لذلك يقول الله ﷻ لهؤلاء ومن على شاكلتهم ممّن تمنّى عدم وجود عذاب

في الآخرة، أو أن يكون هناك عذاب لطائفة معيّنة دون الأخرى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ (النساء ١٢٣).. ليس بأمانيّكم إذن، وليس لكم به شأن..!



ما المنطق في أن ترفض تصديق وجود عذاب شنيع لا تقدر على أن تتخيل شدته لمجرد أنه عذاب شنيع لا تقدر على أن تتخيل شدته..؟! ومن الذي أخبرك بالعكس..؟!

إن القرآن لم يتوانَ عن تذكيرنا بحجم بشاعة هذا المصير في النهاية.. وكان من المفترض لك حين تعرفه أن تخاف منه فتهرب منه، وليس أن تنكره فتقع فيه..!

وضّح لك القرآن أن الله يريد لك أن تخاف حين ذكر لك أصناف العذاب..! كما يقول الله جل جلاله: ﴿**لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**﴾ (الزمر ١٦)..

ذلك الخوف الواقع في قلوب المؤمنين يحبه منهم الله عز وجل، هو خوف يعني أنهم يدركون مقام العبودية الذي هم فيه، ويقدّرون الله حق قدره، ويعظّمونه حق عظمته..!

لذلك يقول الله عز وجل عن صفات المؤمنين الفائزين بالجنة: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**﴾ (المعارج ٢٧).. في مقابل هؤلاء الذين لا ينفع معهم كل ذلك التخويف، وكانت قلوبهم أكبر قسوة من أن تشعر، وأرواحهم أشد يبوسًا من أن تقلق، وأنفسهم أكثر جفافًا من أن تهتزّ..! يا للحسرة على هؤلاء الذين يخوّفهم الله من الابتعاد عنه، فيزدادون عنه بعدًا..! ﴿**وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾ (الإسراء ٦٠)..

هذا الرعب من النار لم يدّعِ أحد أنه عن غير استحقاق، ولا أنه غير طبيعي ، ولا حتى إنه غير مقصود..! إنما لا يزال القرآن يذكّرنا بضرورة أن نأخذ أمر الدين على ما يستحقه

من الجدية: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (الطارق ١٣-١٤)..!

وألّا نتناسى أو نتغافل عن هذا الخبر المهول: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (ص ٦٧-٦٨)..!

وأنه من الأفضل لنا أن نبكي بدلًا من أن نضحك: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ (النجم ٥٩-٦٠)..!

وأنه يجدر بنا أن نسارع في الاستجابة إلى بارئنا من قبل أن يمسّنا هذا المصير المرعِب: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (الشورى ٤٧)..!



إن من ينكر العذاب لمجرد أنه مخيف إلى هذا الحد، ألا يضع في ذهنه أن لربما كنّا نحن على صواب، لربما هو غير ذكيّ إلى هذا الحد، لربما كان كل ما سخر منه موجودًا بالفعل.. ماذا سوف يفعل حينها..؟! أو كما كان التساؤل القرآني: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت ٥٢)..؟!

٤- الاعتراف..!

يعرف علم النفس عدة وسائل دفاع نفسيّة Defense mechanisms والتي يقوم بها لا وعي الإنسان حين يتعرض للصدمات.. منها على سبيل المثال: الإسقاط Projection وتعني إسقاط المشكلة بأكملها على شخص آخر وكأنه لا يعاني منها، أو بمعنى أصح إسقاط المشكلة على غيره (لأنه) يعاني هو منها..! والتبرير Justification ويعني اختلاق الأعذار والأسباب المحتملة لهذا الفعل الذي قام به، ومحاولة إثبات أن الظروف

هي التي اضطرّته إليه وليس أنه مجرد وغد آخر..! واللوم Blame وهو واضح بالطبع، أي إلقاء اللوم على شخص آخر في فعلته..

هذه الدفاعات النفسيّة ليس لها علاقة بالخوف من العقاب، بل وليس لها علاقة بوجود عقاب من عدمه، بل هو سلوك بشري نفسي معتاد يقوم به لا وعينا باستمرار عند الوقوع في خطأ أو مشكلة أو صدمة ما، ليس للضرورة للهرب من حكم الناس، ولكن أيضًا للهرب من حكم أنفسنا نحن..

تزداد هذه الدفاعات النفسية في القوة كلما زاد حجم الصدمة واتسعت دائرة المصيبة، وهو الأمر الذي قد تلاحظه أنت بسهولة حين تفطن إلى أنه من اليسير عليك أن تعترف —لنفسك على الأقل— بأنك كنت السبب في الأزمة الماليّة التي تمر بها أسرتك لأنك أنفقت الكثير من الأموال على مشروع تجاري لم ينجح.. هذا أمر تتلقى اللوم عليه وتعترف به في نفسك وأمام الناس دون أدنى مشكلة، لأن هذا في الأصل ضرر مُحتَمل ومشكلة بسيطة..

بينما لو فكرتَ بينك وبين نفسك أن لربما كان أسلوب تربيتك القاسي مع ابنك هو سبب المرض النفسي والانقباض السوداوي الذي يمر به، لربما حينها تجد كبير ممانعة ومقاومة من نفسك، والكثير جدًا من وسائل الدفاع المختلفة بين الإسقاط والتبرير ولوم الآخرين، أنت حينها ستكون مستعدًا لإلقاء اللوم على الكون كله قبل أن تفكر في إدانة نفسك بهذا.. إذ إن المصيبة الواقعة كبيرة جدًا، وتحمّلك لها لن يكون يسيرًا أبدًا عليك سواءً بوعي أو بلا وعي..!

النفس البشريّة إذن لا تعترف بخطئها بسهولة..! سواءً كان هذا للفرار من العقاب (لذلك يعرف خبراء القانون أن الاعتراف هو سيد الأدلة على الإدانة).. أو كان هذا للفرار من لوم المجتمع (كما يتحدث خبراء التربية عن ضرورة التغافل عن عقاب الأبناء بين الحين والآخر من أجل تشجيعهم على تحمّل مسؤولية أخطائهم).. أو كان هذا للفرار من وخز

الضمير وأ لم تحمّل المسؤوليّة الذاتية واللوْم الداخلي العنيف..!

لذلك عندما يحدثنا القرآن عن اعتراف أهل النار على أنفسهم بأنهم (يستحقون) ذلك.. سيكون هذا دحضًا لأي شك أو شبهة فيما يخص العدل الإلهي معهم في إدخالهم النار..!

كما يقول الله ﷻ عنهم: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ (الملك ١٠-١١).. ويقولون عن أنفسهم: ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ**﴾ (المؤمنون ١٠٦).. فقم بتوفير جهدك في الدفاع عن الحقوق المزعومة لهؤلاء، لأنهم هم الذين سيخذلونك حينها يوم القيامة بهذه الاعترافات الواضحة..!

إنه العدل الإلهي الذي هو خارج نطاق الشبهات والظنون، للدرجة التي جعل الله ﷻ فيها كل إنسان قيّمًا على أفعاله، ويطلب منه أن يتولى حساب نفسه على أفعاله..! كما يقول سبحانه: ﴿**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ (الإسراء ١٣-١٤)..



العدل الإلهي لم يتوقف عند هذا الحد، بل إن الله ﷻ يبيّن لنا ويفصّل في رد الخواطر التي قد ترد على أذهاننا وتتساءل: هل من الممكن أن يكون الله ﷻ -والعياذ بالله- قد أفرط أو بالغ أو تعدّى حد الجرم في العقوبة أو ظلمهم..؟!

حينها يجيبك القرآن..

بأن الله ﷻ حرّم الظلم على نفسه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (النساء ٤٠).. ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ**

فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت ٤٦)..

وأن هذا الظلم -الذي لا ينبغي لله- يتأكد ذكرُ منعه في يوم القيامة خصوصًا: **﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾** (غافر ١٧).. **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** (الأنبياء ٤٧)..

وأن الله ﷻ لا يكلف النفوس فوق طاقتها: **﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** (المؤمنون ٦٢).. ولا يحاسب نفسًا على جرم غيرها: **﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾** (الإسراء ١٥)..

وأن الله ﷻ أعلم بمن (يستحق) العذاب: **﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾** (مريم ٦٩-٧٠).. وأعلم بما كانوا فاعلين: **﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** (الزمر ٧٠).. وأنهم استحقوا هذا العذاب بسبب ظلمهم لأنفسهم لم يُظلمهم أحد: **﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾** (الزخرف ٧٤-٧٦)..

بل وأنهم لو أخرجهم الله ﷻ وأعادهم إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر والعصيان..!! كما يقول ﷻ: **﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** (الأنعام ٢٨)..

كل هذه الأدلة إنما تدل على العدل الإلهي الكامل غير المنقوص، في قيام حجته على خلقه واستحقاق من يعذبه الله منهم للعذاب..

غير أني أظن أني أعرف ما تفكر فيه يا صديقي..!

تفكر أن هذه معضلة منطقيّة..! كيف أستدلّ من القرآن على صحة العدل الإلهي دون أن أقدم لك دليلًا عقليًا يقنعك أن هذا هو العدل فعلًا..؟! ماذا لو كان القرآن لا يمثل بالنسبة إليك حجةً معترَفًا بها، أو كنت تشكك في صحته، فكيف إذن أزعم أنه عليك أن تسلم بصحة العدل الإلهي اعتمادًا على أدلته..؟!

إن هذا شبيه بمعضلة أهل (كريت)..!

يحكون أن رجلًا يقول: "كل أهل كريت كذّابون".. ولكن تبين لنا أن هذا الرجل من كريت.. فأخذنا في التفكير: لو كان ما يقوله الرجل صحيحًا، لكان هذا معناه أنه كاذب بدوره، لأنه هو أيضًا من كريت.. ولو كان كاذبًا فهذا معناه أن ما يقوله غير صحيح، أي أن أهل كريت صادقون.. ولو كان أهل كريت صادقون، لكان هذا معناه أن هذا الرجل صادق.. ولو كان هذا الرجل صادقًا لكان هذا معناه أنهم كذابون.. إذن هو كاذب، إذن هم صادقون..... إلخ.. وهكذا يمكننا أن نستمر إلى قيام الساعة في هذه اللعبة..! هذه من أشهر المعضلات المنطقيّة.. ولعلك لاحظت أن هذا سلوك حرصت على اجتنابه طوال الكتاب، فلماذا أقع في هذه المعضلة المنطقيّة الآن..؟!

السبب يا عزيزي أن منشأ المشكلة لديك في العدل الإلهي أصلًا هي عذاب الله ﷻ بالنار لمن يستحق العذاب منهم.. ولكن من أين لي أو لك أن تعرف بوجود النار أصلًا وبأن الله سيعذب فيها الناس..؟؟ الإجابة: من القرآن.. ومن أي كتاب أتيت لك بالأدلة على العدل الإلهي..؟؟ الإجابة: من القرآن..!

إذن لو كان المتكلم صادقًا، فهو صادق في الأمرين..! ولو كان –وحاشا لله– المتكلم كاذبًا فهو كاذب في الأمرين..! فلو كان هناك نار فلا يوجد فيها ظلم..! ولو كان هناك ظلم فلا يوجد نار أصلًا..!

أخطر أنواع الطمأنينة
(عن اختلاف الأديان)

وجدتُ في أحد مقاطع (اليوتيوب) الملحد الشهير (ريتشارد دوكنز) وقد سُئِل ذات مرة من فتاة نصرانيّة عن موقفه من وجود الله، قالت: "ماذا لو كنتَ مخطئًا؟؟"..

فقال (دوكنز): "كل شخص من الممكن أن يكون مخطئًا.. ربما نحن جميعًا مخطئون لأننا لا نصدق بوجود وحش معكرونة، أو وحيد قرن وردي، أو قدر شاي طائر..! أنتِ وُلدتِ في أمريكا فأصبحتِ نصرانية، ولكن لو كنتِ وُلدتِ في الهند لكنتِ هندوسية، ولو كنتِ وُلدتِ في الدنمارك أيام الفايكنج لكنتِ تؤمنين بالإله (ثور)، ولو كنتِ وُلدتِ في اليونان أيام الإغريق لكنتِ تؤمنين بالإله (زيوس)، ولو كنتِ وُلدتِ في وسط أفريقيا لكنتِ تؤمنين بالإله (جوجو) الساكن في قمم الجبال، لا يوجد أي سبب لاختيارك الإله الإبراهيمي لكي تؤمني به إلا مصادفة الزمان والمكان.. فأنتِ حين تسأليني ماذا لو كنتَ مخطئًا، سأقول لكِ أنا: وماذا لو كنتِ أنتِ مخطئة بشأن الإله (جوجو)؟؟!"..

في نهاية المقطع تصفيق حاد من الجمهور لدوكينز على (إفحامه) للفتاة..! وقد تم استخدام (الجرافيكس) ليشرح فكرة المقطع من قناة إلحادية غربية ما، ثم تمت ترجمته إلى العربية من قناة إلحادية عربية ما.. على ما يبدو كل هؤلاء يرون أن رد دوكنز كان عبقريًا..!

لا أظن أن هناك أي دليل يمكنه أن يقدمه (وحش المعكرونة) ليثبت لنا وجوده، وحش المعكرونة نفسه لم يهتم بذلك..! وأما فنجان الشاي الطائر فهو مثال يتردد على لسان هذا الرجل بالذات أكثر من اللازم، وفي العديد من اللقاءات التي خاضها، يبدو أنه معجب بنفسه إلى أقصى حد لأنه قد وصل إلى هذا المثال (الذكي) فيأبى أن يتركنا في أي مناسبة بدون أن يذكّرنا به.. لا أحد يحب من يكرر نكاته يا (مستر دوكنز)..!

الجزء الآخر من كلامه يتعلّق بمسألة تركه لجميع الأديان لأنها (مختلفة)..! حينها لا يهتم دوكنز ولا أي واحد آخر من الذي صفّقوا خلفه بأن يفكر لبضعة دقائق، في أن الإله الذي نتحدث عنه هو ملكٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، بدأ الخلق منفردًا وهو يرعاه ويكلؤه، فهو غير

الإله (زيوس) الذي كان له أبناء (آلهة) غير شرعيين، أو الإله (ثور) الذي كانت مطرقته الفولاذيّة دميته المفضلة والحيلة الوحيدة التي في جعبته، أو الإله (جوجو) الذي نقّب دوكنز في كتب الأساطير كثيرًا حتى يُعلمنا بشأنه..!

دائمًا تتكرر نفس الحيلة على ألسنة الذين لا يؤمنون بالله: بأي إله نؤمن..؟ على أي دين نتديّن..؟ بأي منهج نسير..؟ طالما الأديان مختلفة، وكلها يزعم أنها على صواب، فلا بد أن الجميع على خطأ.. وإجابة سؤال الأديان لا بد أن تكون (لا شيء مما سبق)..!

على أن لنا أن نتساءل، ولماذا لا يكون جوابهم واحدًا من هذه الإجابات المخطئة..؟؟ يعني يمكننا أن نضع عددًا من الخيارات: الإسلام – النصرانية – اليهودية – الهندوسيّة – .... إلخ، ثم في النهاية نضع خيار: اللادينية..

اختيارك للّا دين يبقى اختيارًا في النهاية، وبغض النظر عن الأصل الذي وُلِدتَ عليه، وعلى الديانة التي كان عليها أبواك، فأنت (قد) اخترت بكامل قواك العقلية، خيارًا من هذه الخيارات.. فطالما سلّمنا أن هناك حقيقةً في مكان ما، فلا بد إذن من وضع احتمال، أن يكون هذا الدين أو ذاك هو الاختيار الصحيح.. حينها أنت يا صاحبي قد قمت بأسوأ عملية كسل قد تقوم بها في حياتك..!



في الإسلام ليس لدينا وقوف كثير عند مسألة الأسماء، لأن دين الله ﷻ النازل من السماء: واحد، ولربما كان في مرحلة ما من تاريخ البشريّة هو دين نوح ﷺ، أو دين بني إسرائيل، أو دين النبي محمد ﷺ.. فكل هؤلاء من الأمم التي قال الله ﷻ عنها: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (البقرة ١٣٤).. لذلك يقول الله ﷻ عن كل هذه الأمم البشرية التي عاشت في أزمان وأماكن مختلفة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ**

صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢)..

إنها تلك النظرة التي ينظر بها الإسلام إلى غيره من الأمم، وهي أن الله لم يخلقهم فقط ليكونوا حطب جهنم..! بل إن القرآن يرد بوضوح على هؤلاء الذين ظنوا في أنفسهم أنهم أحباب الله لدرجة أن يكونوا هم الفائز الحصري الوحيد بالجنان: **﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** (البقرة ١١١–١١٢)..

كل من آمن بالله ﷻ وحده، وصدّق برسله جميعهم، فهو يستحق في نظر الإسلام أن يكون من الفائزين، سواءً وُلِدَ في زمان (الماموث) أو وُلدَ في زمان (البلوراي).. وسواء كان يسكن سفوح جبال الألب، أو جبال أطلس.. وسواءً عرف الله ووحّده بنبيٍّ أُرسِلَ إليه، أو بفطرته التي لم يلوّثها.. وسواءً كان من جنس الرجل القوقازي الأبيض، أو الأصفر، أو أسود البشرة.. جميع هؤلاء ينادي عليهم القرآن ليخبرهم بتساويهم أمام الله ﷻ، وأنهم لا يتفاضلون إلا بما احتوت قلوبهم من التقوى، كما يقول الله ﷻ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات ١٣)..

لذلك لما سأل فرعونُ موسى عليه السلام عن كل هؤلاء البشر الذين خلقهم الله.. كل هؤلاء الذين لم يُرسَل إليهم موسى عليه السلام.. أتراهم كلهم كانوا على ضلال إذن..؟! لماذا تظن أنك تحتكر الحقيقة وأنت لم تولد إلا من سنين قليلة..؟! هكذا سأل فرعون حين قال: **﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾** (طه ٥١)..؟! كان جواب موسى عليه السلام عليه حينها: **﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾** (طه ٥٢)..! فموسى عليه السلام بشر يولد في موعد أراده الله، ويظل على الأرض عدة سنوات ثم يموت، لهذا لا نعبد موسى عليه السلام ولا محمدًا ﷺ ولا أيًّا من الأنبياء وحاملي الوحي عليهم السلام، ولكن نعبد الله ﷻ الذي لا يضل ولا ينسى

عباده، ويعلم ما كان عليه هؤلاء العباد، وما يستحقون من النعيم أو العذاب..!



المؤمن يرى هذه الحقيقة أمام عينيه: نحن لسنا في مسابقة لبيان من الذي وُلِدَ على الدين الصحيح..! أو ما هو العرق البشري الذي هو على صواب بشأن اختيارات دينه..! لا يرى المؤمن في الحقيقة إلا أننا جميعنا في موقف واحد من قضية الإله، حيث نقف جميعًا في جهة الفقر إليه، ونسعى لعبادته على الطريقة الصحيحة، بالمنهج الذي أنزله هو، لا بما حرّفته أيدي البشر..

كما يُملي القرآن على النبي محمد ﷺ الموقف الصحيح الذي يجب أن يكون عليه، فيقول الله ﷻ: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (الشورى ١٥)..

هناك المزيد من التفسير والإجابة تتضح لك في النقاط القادمة..!

١- أكسل أسس الاختيار..!

في أحد أسئلة موقع Debate المختص بالتصويتات الشعبية، كان هناك سؤال: "هل يُعتبر المراهقون دومًا أحد مُغيّري قواعد اللعبة في الأحداث السياسية؟؟".. كانت إجابة ٨٠% من الناس على هذا السؤال بالموافقة..

المراهق يثور على كل شيء بالفعل، بدءًا من الطريقة التي ربّاها عليه والداه والتفضيلات الشخصية التي اختاراها له طوال عمره، ومرورًا بالقيم والأعراف السائدة في المجتمع والتشكك فيها، وانتهاءً بطريقة اختيارهم لملابسهم، ولعل الأخيرة هذه من أكثر الأشياء التي يودّ

الكبار لو كانوا يستطيعون التحكم فيها بالفعل..!

لذلك اعتاد المراقبون أن يُصابوا بالدهشة من الطريقة التي تجعل المراهق لا يتوقف أبدًا عند (حواسه)، كما يقول (هنري رولينز) الموسيقي: "المراهقة هي طاعون على الحواس"..!

والتي تجعله يتمرّد على الآباء للدرجة التي يصفه بها (ديف باري): "لا يوجد ما هو أكثر إحراجًا للمراهق من آبائه"..! ويقول الدكتور (عبد الكريم بكار): "لا تجزع إذا وجدت ابنك المراهق لا يرغب في الظهور معك أمام الناس، فهذا شيء طبيعي"..!

والتي تجعله مغموسًا في حقائق الحياة للدرجة التي لاحظها الصحفي (أرنولد جلاسو): "إخبار المراهق بحقائق الحياة يشبه أن تقوم بإعطاء سمكة حمّامًا من الماء"..! أو كما يقول الدكتور (محمد إسماعيل المقدم): "المراهقة هي التحول من التفكير المادي إلى التفكير المعنوي"..

هذا المراهق هيّأه الله ﷻ في هذه السن بأن يكون على قدر غير عادي من التفرّد بذاته وباختياراته، فيخرج عن الحدود الوراثيّة المألوفة، ويخرج عن طور الشبه بأي من والديه، كما يقول عالم السلوك (لورانس بيتر): "الوراثة هي ما يجعل كلًا من أبوي المراهق يتساءل بتعجب عن الآخر"..! بينما يصفه الكاتب (جون باتيل) بقوله: "المراهق لا يملك أي نوع من الولاء المسبق تجاه أي شيء"..! ويقول الدكتور (بكار): "لا يتقبل المراهق ما تحدثه به عن ذاته بيسر وسهولة"..! وتقول (جيمي كرتيس): "أنت لو رأيت مراهقًا فأنت ببساطة ترى الكثير من عدم التأكد"..! وتقول (جوان تشين): "كل المراهقين لديهم رغبة في الفرار بطريقة ما"..!

اعتدنا على أن ننظر للمراهق بنظرة مُبسّطة خالية من التعقيدات، نراه مجرد باحث عن متع الحياة، ولكن الحقيقة أن المراهق يبحث أول ما يبحث عن ذاته هو..! إن المراهق هو مجرد طفل بدأ أول طريقه في الشعور بالمسؤولية والتفرّد.. إنه لا يختلف عن الكبار —الذين

يشعرون دائمًا بهذه المسؤوليّة— في أي شيء إلا أنه فقط (يبدأ) طريقه، بكل الحماس الذي يعتري كل من يبدأ طريقه في شيء ما..!

هذا الذي يتعجب منه المراقبون وعلماء النفس من كل مكان في العالم، ليس على هذه الدرجة من الغرابة في وجهة نظري، حيث خلق الله ﷻ الإنسان مخلوقًا بداخله جهاز الشعور بالمسؤوليّة والانفراد بالذات والقدرة الداخليّة على تمييز الصواب بشكل منفرد بدون تحيّزات مسبقة أو ولاءات خادعة.. ثم جعل هذا الجهاز لا يعمل إلا في مرحلة عمرية معيّنة، ثم يستمرّ معه هذا الجهاز مفعّلًا بقية عمره..!



لذلك فلا عجب من أن جعل الله ﷻ هذه السن (سن البلوغ المتزامنة مع مرحلة المراهقة) هي السن التي تم تكليفه فيها بحقائق هذا الوجود..! أنت لم تعد طفلًا الآن يتلقى تعليماته من والديه..! بل يمكنك الوصول بنفسك للحقيقة، يمكنك السعي خلف الدين الصحيح، يمكنك التفكّر والتعقّل وإعادة النظر بكل ما رباك عليه أبواك، يمكنك أن تعقل الآن ما هو الصواب، وما هو الخطأ، حتى لو كان هذا يخالف البيئة المكانيّة أو الزمانيّة التي نشأت فيها، حتى لو كان هذا يعني أن تتحدى جميع الأعراف والتقاليد..! لو مات طفل قبل أن يصل إلى هذه السن فهو (معذور)، ولو مات بعد أن وصل إليها فهو (مُكلّف)..!

لذلك يقول الله ﷻ عن هؤلاء الذين يرفضون أن يتبعوا الدين الصحيح لأنهم وُلِدوا على دين آخر: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ (البقرة ١٧٠)..

حجّة (الوراثة) ليست صالحة بأي حال إذن..! بل أنت تسبّ نفسك حينها، عندما تقنعنا أنك غير قادر على تمييز الصواب بنفسك من دون أن يقودك أحدهم.. حين تظن أنك (معذور) في اتّباع الضلال لمجرّد أنهم (قالوا لك) أن تفعل..! لذلك يقول الله ﷻ عن

أمثال هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۞ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ (الصافات ٦٩-٧٠).. ويقول عن هؤلاء الذين ظنوا أنهم قد يفلتون من العقاب (لأنه لم يكن ذنبهم) أن وجدوا آباءهم على هذا الدين أو ذاك: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ (هود ١٠٩)..

بل أنت قادر على تمييز الهدى، ومن باب أولى من المفترض أنك (تحب) أن تتبع الهدى، وأنك لو وجدت ما هو أهدى مما وُلدتَ عليه فأنت مطالبٌ باتباعه.. كما حكى لنا القرآن أنه قد قال بعض الناس لرسولهم لما جاءهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٣).. فما كان جوابه إلا أن قال لهم: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ (الزخرف ٢٤)..؟!

على أن عمليّة (استشكال) ما كان عليه الآباء و(تغييره) ليست مطلوبة لذاتها..! فلو اتفقنا أن هناك منهجًا صحيحًا وحقيقة في مكان ما، أليس من الممكن أن تكون أنت بالذات قد وُلدتَ على هذه الحقيقة الصحيحة..؟! هناك من الناس من يُولدون على المنهج الصحيح لأن آباءهم كانوا أحسنوا الاختيار.. هؤلاء حازوا على فضل كبير من الله ﷻ، كما يقول ﷻ:﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (آل عمران ٧٣-٧٤).. هؤلاء قد منّ الله عليهم بمنة عظيمة.. إذن، خروجك منها سيكون هو أكبر خطأ..!

لذلك فكما أخبرنا القرآن عن خطأ هؤلاء الذين اطمأنّوا بشكل كامل لما وجدوا عليه آباءهم، فإنه أخبرنا أيضًا بجريمة من غيّروا ما كانوا هم عليه من الدين الصحيح إلى دين فاسد..! فيحكي لنا القرآن كيف أن إبراهيم عليه السلام طلب من ربه أن يكون هناك من ذريته أيضًا أئمة في الدين كما كان هو: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ١٢٤).. هؤلاء

الذين بدّلوا نعمة الله كفرًا.. هؤلاء الذين كان معهم الهدى فغيّروه إلى الضلال.. هم لا شك أجرم وأظلم من النوع السابق..!



ليست (الوراثة) هي المثال الوحيد لدينا على (أكسل أسس الاختيار)، فهناك أساسات أخرى للاختيار قد تكون أكسل من ذلك وأضلّ سبيلًا..!

مثل الظن الأحمق غير المبرر لأحدهم بأنه طالما قد سبقه أحدهم إلى هذا الاختيار، فهذا يعني بالضرورة أنه غير صحيح..! كما أخبرنا القرآن عن قول بعضهم: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ (الأحقاف ١١).. لماذا ذلك..؟! لأنني عبقري يا سيدي لا يمكن أن يسبقني أحد إلى شيء ثم يتبين أنه صواب..!

ومثل أن يُوكِلُوا عملية الاختيار هذه إلى (رؤساء) السلطة الدينية خاصتهم..! فيدخل طائفة كبيرة من بني إسرائيل في النصرانية لأن (رؤساءهم) أحبوا ذلك، ويرفضون الدخول في الإسلام لأن (رؤساءهم) لم يحبوا ذلك لسبب ما..! لذلك يقول الله ﷻ عنهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ (التوبة ٣١)..

ومثل أن يعتبر أصحاب كل طائفة أنهم يحتكرون الحقيقة بطبيعتهم..! فيرفضون أن يؤمنوا إلا بما اختُصّت به هذه الطائفة عن غيرها من الوحي والرسالات.. مثلما يخبرنا القرآن: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ**﴾ (البقرة ٩١).. بينما في الحقيقة كل الأنبياء من عند الله ﷿ وبرسالة واحدة يصدقون بعضهم بعضًا..



على أننا حين نقول كسل، فإننا لا نعني الكسل بمعنى الخمول الجسدي، ولا حتى

الفكري، ولكنه أقرب لكسل النفس عن التعطّش للحق أيًّا كان مكانه..! إنه بمعنى أصح اختيار نابع من (هوى) النفس أكثر من كونه نابعًا عن الرغبة في الحقيقة..

لفهم ذلك جيدًا، أدعوك للانتقال إلى الفقرة التالية..

٢- صراع الحق والهوى..!

في الولايات المتحدة نوع من الإعدام يعرف بالـ (Lethal Injection).. عن طريق حَقن المحكوم عليه بالإعدام بمجموعة من الأدوية أغلبها منوّمات تُدخل المعدوم في النوم الذي لا يستيقظ منه أبدًا.. المشكلة أني سمعت أحدهم يذكر مرة أن القائمين على هذا النوع من الإعدام يقومون بمسح ذراع المعدوم أولًا بالكحول قبل تركيب الـ Cannula القاتلة...! لم أصدق في البداية ولكني وجدت هذا الكلام موثقًا بالفعل على ويكيبيديا كخطوات متّبعة ومُعترَف بها في هذه الإجراءات..! وظيفة الكحول في عملية الحقن الطبي عمومًا هي حماية المريض من أن يُصاب بالعدوى أثناء (غرز) سن الإبرة في وريده.. والآن، تخيل كمية السخرية في أن تحمي الرجل الذي تقوم بقتله الآن من أن يصاب بالعدوى أثناء العملية..!

التفسير النفسي الوحيد الذي وجدته لهذه المفارقة هو الهوس البشري العتيد بالـ (الخطة المفترضة)..! ذلك الوضع الذي تقرّه أذهاننا لطريقة عمل الأشياء من حولنا، أو القالب الذي قررنا مسبقًا أن تتم به مجموعة مختارة من العادات.. دون أن نكترث أن هذه الخطة قد تكون سخيفة جدًا في وقت ما، أو لا معنى لها في موقف بعينه.. طالما الأمر يسير وفق الخطة فلا بأس..

هناك أمثلة كثيرة على اتّباع البشر لـ (خططهم المفترضة) في أمور حياتهم الخاصة..

لا بد مثلًا من أن تبدأ انتقادك لأحدهم بـ (مع احترامي لفلان) حتى لو كان مضمون كلامك بعد ذلك سيكون الشرح التفصيلي لـ: (لماذا هذا الفلان غير محترم أصلًا)..! ويرى طبيب الطوارئ طوال مسيرته المهنية عدة عشرات من حالات الاحتضار بين يديه في المستشفى فلا يمنعه ذلك من إكمال كوب الشاي، برغم أن نفس الطبيب قد يصاب بالصرع لو رأى عملية احتضار في حادثة سيْر في الشارع.. لأنه تبعًا لخطته المفترضة، فالشارع ليس مكان الموت..!

لا بد من شراء (طقم الصيني) قبل الزواج، ولا بد من أن تقسم العروس لأمها أنها لن تستخدمه أبدًا إلا في المرات القليلة التي تأتي فيها (إليزابيث) ملكة بريطانيا إلى بيتها للعشاء..! لا بد أيضًا من (اللبّانة) في طقم الشاي، برغم أنه لم يُقدَّم لي الشاي بجانب اللبّانة في أي بيت أزوره.. فلا بد إذن أن (إليزابيث) هي من تنال وحدها هذا الشرف..!

الخطط المفترضة ليست منطقية على الإطلاق، وكل هذه الأمثلة المذكورة هي أمثلة مَرِحة غير خطيرة بالفعل..! ولكن المشكلة الحقيقية مع هذه الخطط المفترضة، هي أنه بالإضافة إلي الخطط العامة، فإن كل إنسان لديه مجموعة خاصة به منها، سيتصرف هو ويحاكمك أنت بناءً عليها.. وحين تتعجب من غياب ضميره في هذا الفعل الشرير أو ذاك ستفطن إلى أن ضميره قائم كله على أساس خططه المفترضة.. والتي معظمها مجهول لديك بالمناسبة..!

هناك نوعٌ من هذه الخطط هو الذي يمكّنك من (الثقة المفرطة) في كل ما يخصّك.. حين تجعل من نفسك قيّمًا على الناس وأفعالهم.. وتدّعي أمام الناس أنك تحاول وزن أمورك بموضوعيّة، ولكن الحقيقة أنك تزن هذه الأمور فقط بشرط أن يكون إصبعك أنت موجودًا في منتصف الميزان، فتقيس الأمور لا على حقيقتها، ولكن على حقيقتها بالنسبة إليك أنت..!

هذا النوع يمكننا أن نسميه (هوى النفس) الذي يدفعك إلى الاعتقاد بأن كل أحكامك على أفعالك وعلى أفعال الناس رائعة للغاية.. وقد يؤدي بك إلى الإصرار على السقوط في بركة الوحل بينما على وجهك ابتسامة بلهاء..!

هذا (الهوى) ليس صوابًا إذن في كل جوانبه.. وبرغم ذلك فإنه لا يمكننا أن نتخلص منه بسهولة، لأن هذا ضد الطبع البشري أصلًا، سأظل أنا وأنت دائمًا لنا تفضيلات وافتراضات، ومخططات ومنطلقات، ومقاييس خاصة نحاكم بها أنفسنا وغيرنا.. لن نستطيع أبدًا أن نقتل كل خططنا المفترضة..!

ولكن المفترض أن تقوم به هو أن تنزل من عليائك، وعن ذلك العرش الذهني الذي نصّبه كل واحد منا في ذهنه فوق الناس جميعًا ثم تربّع عليه..! أن تعيد برمجة جميع خططك حتى (تتبع) (الكود) الصحيح.. أن تتحمل آلام فعل كل هذا، وبأن يصير هذا الألم بعد ذلك عندك لذة..!

لذلك ففي الإسلام نجد الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ، وذكره الكثيرون من أهل الحديث في كتبهم: "لاَيُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ"..! ضعّف سندَ الحديث الكثيرُ من أهل العلم، فعلى الأرجح أنه لم يثبت عن النبي ﷺ، وبرغم ذلك يشهد بصحة معناه الكثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (ص ٢٦).. وبيّنت لنا الآية القرآنية الأخرى، كيف أن اتباع الهوى سيجعلك في موقف لا تُحسَد عليه عمومًا من الانفراط والضياع، فقال الله ﷻ: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ (الكهف ٢٨)..

حين حدثتُك عن أكسل أسس الاختيار، ذكرتُ لك عدة أمثال منها، كل هذه الأمثلة تقع في ذات النطاق: هوى النفس..!

لذلك يخبرنا القرآن عن هؤلاء الذين كانوا يتمسّكون بـ (دينهم) في مقابل دعوة النبي

ﷺ فقالوا لبعضهم البعض: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان ٤٢).. إلى هذه الدرجة بلغ تمسّكهم بهذه (الحقيقة) من وجهة نظرهم..! يدفعك ذلك للتساؤل: فلماذا هم على خطأ إذن..؟! هم اجتهدوا ووصلوا إلى هذه الحقيقة.. فينبهك القرآن في الآية التي تليها: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان ٤٣)..

لا تُغفِل الهوى..!

لا تُغفِل أبدًا دور الهوى..!

وأما لو سألتني عن السبب الذي يجعلنا نعرف أن فعلهم كان من الهوى، وليس التجرّد للحق، أو حتى نتيجة لتفكير العقل السليم.. فإني أدعوك للانتقال إلى الفقرة القادمة..!

٣- المدرسة الإبراهيميّة..!

حكى لنا ابن الجوزي في كتابه (زاد المسير) قصةً رواها (أبو صالح) عن (عبد الله بن عباس) رضي الله عنهما، الله أعلم بمدى ثبوتها عنه، ثم مدى صحتها في نفسها أصلًا، ولكنها على كل حال من القصص اللطيفة التي نستأنس بها.. وهي أن النبي إبراهيم عليه السلام لما شبّ وتكلم، قال لأمه: من ربي؟؟ فقالت: أنا.. قال: فمن ربك؟؟ قالت: أبوك.. قال: فمن رب أبي؟؟ قالت: اسكت..!

برغم أن إبراهيم عليه السلام كان نبيًّا يأتيه الخبر من السماء، إلا أن القرآن حكى لنا كيف كان يفكّر عقله بأمر الإيمان، وبطريقة يمكن لأي أحد أن يتعلمها منه من أمثالنا الذين لا يأتيهم خبر السماء، ولكنهم مرحّب بهم دومًا في هذه المدرسة الإبراهيمية..!

من ضمن دروس هذه المدرسة، ذلك الدرس الذي جرى أمام الأجرام السماويّة..! ويخبرنا به القرآن في قوله جل جلاله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ

مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام ٧٥–٧٨)..!

هناك اختلاف كبير بين المفسّرين في إن كان هذا هو تفكير إبراهيم عليه السلام فعلًا قبل أن ينزل عليه الوحي، أو كان هذا مجرّد مناظرة واستعراض ومحاجّة ومناقشة بينه وبين قومه.. وعلى كل حال، لا يعنينا أن نحدّد بالضبط أي القولين هو الأصوب، إذ إنه وفي كل الأحوال، تبقى هذه الآيات درسًا نفيسًا يجدر بنا تعلُّمه..!



حذرًا من عقاب الآخرة، واحترامًا لعقلك وكرامة نفسك... فإني أدعوك ألّا تعفّر وجهك في التراب لعبادة الإله الخطأ..! لا يوجد إله يستحق أن تعبده طالما كان إلهًا باطلًا مخترعًا.. مهما سمّيناه بالأسماء المنمّقة، ونسجنا حوله الأساطير، ووضعنا له الطقوس الوثنيّة المناسبة، وكونّا دينًا أو فلسفة متكاملة تحت رعايته.. ففي النهاية كل هذا لا يعطينا سببًا أو داعيًا يكفينا لعبادته، لأنه يبقى في النهاية من اختراعنا نحن..! كما قال يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف ٤٠)..

إنه كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه في درس آخر يُعلّمه لنا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (الزخرف ٢٦–٢٧).. ويقول في موضع آخر: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (الشعراء ٧٥–٧٨).. كل هذه الآلهة لا تستحق عبادتي وسوف أتبرأ منها باستثناء الإله الوحيد الذي يستحق ذلك..! هو الإله

الحق، الذي خلقني، والذي يهديني إليه..!

لو فعلتَ ذلك فإنك لن تخطئ مطلقًا في جواب سؤال: من إلهك..! فبدون كبير عناء، تستطيع أن تتيقن أن إلهك الذي تعبده هو ذلك الإله الموجود منذ الأزل، والذي خلقك ويهديك إليه، حتى لو لم تستطع أن تعرف الكثير من صفاته أو أفعاله..

هي قاعدة بسيطة إذن.. أنا موجود، وبالتالي أنا أعبد ذلك الذي أوجدني..!

لذلك، وبالعودة إلى الدرس الإبراهيمي الأول الذي بدأنا به كلامنا، فلمّا تبين أن الكوكب والقمر والشمس لا يستحقون عبادتنا، لجأنا إلى القاعدة البسيطة إياها في معرفة المعبود الذي يستحق..! كما قال إبراهيم عليه السلام بعدها: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الأنعام ٧٩)..



كلمة (حنيفًا) الموجودة في الآية السابقة تنبّهنا على درس إبراهيمي آخر.. وهو أن هناك نوعًا من (الامتناع) و(التحرّز) و(التبرؤ) ليسوا بأقل أهمية من عملية العبادة نفسها..!

(حنيفًا) تعني مائلًا عن كل ما هو باطل، منحرفًا عن كل ما هو كذب، مُبطلًا لكل ما هو مزيّف..! الحنيفيّة تعني نقاء الإيمان بالله جل جلاله من كل شوائب الإيمان بغيره، تعني الرفض العقلي للاتباع الأعمى المجرّد عن الدليل، تعني عزة النفس وغناها عن أن تتذلل لمن لا يستحق..!

هذه الحنيفيّة كانت من فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولكن لا يمكننا أن نغفل التطبيق الإبراهيمي البديع لها، حتى إن الله جل جلاله يحب من بقية عباده أن يتمثّلوا به فيها، كما يقول جل جلاله: ﴿**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (آل عمران ٩٥).. ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ (النساء ١٢٥)..

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ١٦١)..!



المسلمون بقيادة نبيهم محمد ﷺ قد تربّوا جيدًا في المدرسة الإبراهيميّة، وصاروا يتمثّلون أول دروسها الذي بدأنا به كلامنا..! كما يقول الله ﷻ: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ**﴾ (يونس ١٠٤)..! فإن كان الناس في شكٍّ أي دين هو الصحيح، فسيكون يسيرًا عليك أن تصل إلى الحقيقة.. حين ترفض كل الآلهة الباطلة وتلجأ إلى الإيمان بالإله الحق الوحيد الذي سيكون مصيرك إليه في النهاية، هو الذي خلقك وهو الذي سيتوفاك.. حينها لن تجد إلا دينًا واحدًا هو من يوحّد الله حق توحيده، فالزمه..!

القرآن يعلّم المسلمين الدرس الإبراهيمي الآخر: الحنيفيّة.. حين يقول الله ﷻ: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ (البقرة ٢٥٦).. تلك الحنيفيّة التي تعلمك أن (تكفر) قبل أن (تؤمن)..! وأن تتبرأ من أن تتورط في عبادة شخص أو شيء قد (طغى) عن حد عبوديّته وادّعى أنه يستحق عبادتك له..!

المدرسة الإبراهيميّة تقوم بإخراج جيل من المؤمنين المطمئنّين بأنهم لم يُخطئوا العنوان ولا ضلّوا الطريق.. لماذا؟؟ لأنهم نظروا في الملكوت من فوقهم، وقالوا لأنفسهم: نحن سوف نعبد (فقط) الذي صنع كل هذا، والذي أوجدنا وهدانا وسوف يتوفانا، والذي يتولانا بفضله ونعمه ويرعانا..!

هذه يا صديقي هي الوحدانية.. هي الحنيفيّة..

هذه هي الديانة الصحيحة والنهج القويم..

هذا هو الطريق..!

٤- العناكب..!

لا يستطيع العنكبوت أن يطارد أي فريسة لأنه بطيء جدًا، فبالتالي يقوم ببناء عشّه بشباك من خيوط حريريّة تعلق فيها فريسته فيذهب إليها ليحقنها بسمّ يشلّ حركتها ويتغذى عليها بعد ذلك..

ولكنه لا يستطيع أن يبني هذا العش بالنهار، لأن الرياح والحشرات الكبيرة ومكنسة والدتك وهي تنظّف البيت باستمرار تقوم بتدمير عشّه كلما بدأ فيه.. لذلك يلجأ إلى بناء عشه في الليل بعيدًا عن كل ذلك..

غير أنه —وباحتماليّة كبيرة جدًا— يتحطّم عشّه في وقت قصير بعد ذلك بسبب الأشياء التي ذكرناها، فيقوم حينها بأكل هذا العشّ القديم (حرفيًّا) وينسج منه عشًّا جديدًا بعد ذلك، وهكذا دواليْك..

لما أقرأ قول الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت ٤١).. أتخيّل العنكبوت وهو في بيته يشعر بكامل الطمأنينة من داخله لهذا البناء المحكم الذي هو في عين الناظر قد يبدو على قدر كبير من الاتّزان، ثم يأتي طفل يلعب بكرته فيحطّم هذا البيت الكبير في أقل من ثانية، بأضعف القوى الممكنة، وبأكثر حركاته عبثيّة، ومن دون أن يفطن إلى أنه قد حطّم بيت العنكبوت أصلًا..!

هؤلاء الذين يبنون دينهم على غير أساس سليم من الوحدانيّة والحنيفيّة يشبهون هذا العنكبوت في طمأنينته الكاملة ببنائه من دون أن يفطن إلى أنه بناء هشّ للغاية..! ومهما كانت قوة خيوطه التي يُقال أنها أقوى من الفولاذ، ففي النهاية سيبقى هذا البناء (وأمام أضعف قوة ممكنة تُوجَّه إليه من الحق): أضعف البيوت..!

لذلك يفسّر لنا القرآن الكريم هذه المفارقة بين قوة (الدين الحق) في منطقه وحجّته وعقلانيّته، وبين هشاشة (الأديان الباطلة) وبنائها الرخو.. فيقول ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء ١٨)..! كما لو كان الباطل رجلًا أتته ضربة الحق فهشّمت دماغه.. سيخرّ وقتها على الأرض بأسرع مما يتصوّر..!



وبالعودة إلى ما بدأنا به هذا الفصل، لما تساءل الملحد الشهير (دوكينز) بلسان حاله: أي دين عليّ اتباعه إذن حتى لا أكون مخطئًا..؟! فيكون علينا نحن أن نتعجب من هذا..! أهذا هو ما يقنع به الملحدون أنفسهم قبل أن يخلدوا إلى النوم..؟؟! أيقولون لذلك الجزء من نفوسهم الذي يصرخ فيهم بين الفينة والأخرى أن كل الأديان تتساوى..؟؟! أيرون حقًا أن دين الوحدانيّة ودين الأنبياء شبيه بأديان التعاويذ أو الأساطير أو الأقانيم أو التلمود أو الطواطم..؟!

أنت لو كنت قرأت هذا الكتاب من أوله، لفهمتَ كيف أن دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي سوف تجده هناك يتلاقى مع امتداد إجابات أسئلتك الوجوديّة..! من أول إيمانك بوجود إله، ومرورًا بيقينك في وحدانيّه، وأنه قد خلقنا لغاية محددة، وأنه أعلمنا إياها عن طريق النبوّات والرسل، وأن هؤلاء الرسل يصدقون بعضهم البعض وأتوا بنفس العقيدة ونفس الدعوة ونفس الدين القويم: أن اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر.. حينها تعلم أن رسالة النبي محمد ﷺ لم تشذّ عن النمط السابق ذكره، ولم تختلف عنه أو تتخلّف في شيء..! إنها رسالة تأتي بشكل تلقائي وبدون تكلّف مع سلسلة تفكيرك التي بدأتها أول ما بدأتها حين نظرت إلى السماء فوقك وقلت في نفسك: هل يا ترى هناك إله في هذا الوجود..؟!

هذا التسلسل الوجودي تلاحظ اتساقه مع الإسلام، حين تستمع إلى قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف ٨١).. فعلى المعنى الذي ذكره السُدّي،

واختاره ابن جرير، أنه من باب التجوّز معهم في الخطاب، والمحاجّة بالافتراض.. أي لو كان أيها المشركون بالله ﷻ هناك ولدٌ للإله حقًا، لكنتُ أنا أول المصطفّين في عبادته وأولى الناس باتخاذه إلهًا..! ليس ديني عن تعصّب لقول أخذتُه ثم لن أرجع فيه، بل أنا مع الحق أينما كان، أريد أن أعبد إلهي الذي خلقني بالصورة التي هو عليها..!

ولكن هذا مع ذلك مستحيل..! لا يمكن أن يكون للرحمن ولد، سبحانه ﷻ عن ذلك، فهذا سيكون تنقّصًا كبيرًا من قدرته وغناه وإرادته سبحانه، لذلك يقول الله ﷻ في الآية التي تليها: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الزخرف ٨٢).. حتى لا تظن —ولو للحظة— أن هذا الافتراض الذي تجوّزنا فيه معهم في الخطاب قد يكون على قدر —ولو قليل— من الصواب..



تلاحظ اتساق التسلسل الوجودي إياه مع دين الإسلام حين تلحظ أننا لا نفرّق بين الرسل..! كل الرسل أحبابنا، كلهم من عند الله ﷻ، لا يكون بوسعنا أن نكفر برسالة أحدهم دون الآخر، كما يقول الله ﷻ: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (البقرة ١٣٦)..

في المقابل أنت لا تتسق مع هذه السلسلة المستمرّة لو كنت يهوديًا ورفضت نبوة عيسى عليه السلام، أو كنتَ نصرانيًا ورفضت نبوة محمد ﷺ، لأن هذا يعني أن هناك خللًا في الطريقة العقلية السليمة التي تثبت بها رسالة أحدهم، إذ توافرت المعجزات والتأييد الإلهي والدعوة إلى الخير والقيم وتصديق الأنبياء في شخص النبي محمد ﷺ مثلًا، ثم أتيت أنت وكفرت به، حينها سيكون لزميلك اللاديني أن يسألك: ولماذا آمنتَ أنت إذن بنبوّة فلان أو فلان من غيره من الأنبياء..؟!

﴿﴾

تلاحظ اتّساق التسلسل أيضًا مع الإسلام، حين تستمع إلى قول الله ﷻ: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (العنكبوت ٤٦).. هؤلاء الذين هم شركاؤنا في الإيمان بوجود الله وباليوم الآخر وبالنبوّات والوحي، يستحقون معاملة أفضل من غيرهم، والخصومة التي بيننا وبينهم هي بطبيعة الحال أقل..! وستكون كثرة المحاجّات معهم ليس لها كبير داعٍ.. حين نؤمن أن هناك إلهًا في هذا الوجود، فدعونا من المحاجّات التي تستغرق الأعمار في إثبات أيّنا على صواب، ولنقم أنا وأنت بالامتثال والتسليم لهذا الإله، فنحن نؤمن برسالة موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام أجمعين، وإلهنا هو إلهكم، ونحن له مسلمون..! ماذا يبقى لغير المسلمين إذن من حجج..؟! ما الأساس الإيماني السليم الذي يرتكز عليه أحد أصحاب الديانات الأخرى وفوّته المسملون عن عمد أو جهل..؟! لا يوجد، إنما نحن نتساق مع الحق أينما كان..

لذلك فالقرآن أمعن في إقرار هذا المبدأ، والتأكيد للمخالفين بأنهم هم من اختاروا الافتراق..! هم الذين انحرفوا عن الخط المستقيم المرسوم من قمّة الهرم العقدي إلى أسفله.. كما يقول ﷻ: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران ٦٤)..

ماذا تُرى يكون السبب الذي يتولون من أجله..؟! اللهم إلا أن يكون حب الشرك بالله ﷻ، أو (الإكليروس) الذي يجعلهم يُقدّسون رجال الدين، أو العاطفة العمياء التي أقنعتهم أن الإله قد قتل نفسه من أجلهم..! في النهاية يبقى أي سبب يدفعهم إلى عدم الإقرار معنا بهذه الكلمة السواء سببًا خارجًا عن السياق العقلي الذي بدأناه..!



من أجل كل هذا —ومن قبل هذا— يمتنّ علينا القرآن بنعمة الإسلام العظيمة، كما يقول ﷻ: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾ (الحج ٧٨)..

نعمة الإسلام التي لربما معظم من يقرؤون هذا الكتاب الآن قد حصلوا عليها بالفعل، منّة أن تكون على النهج الوحيد الذي على صواب..! نعمة أن تكون متأكدًا أنك لست مُخطئًا، ليس لأنك في طمأنينة زائفة، ولكن لأنك بالفعل لستَ مخطئًا..!

نحتاج إذن إلى نصيحة يعقوب عليه السلام التي ذكّر بها بنيه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ (البقرة ١٣٢)..!!

فاللهمّ آمين..!

مجرد خاتمة

يقول الفيلسوف الدنماركي (سورين كيركجور): "الحقيقة هي فخ..! لا يمكنك أن (تحصل) عليها من دون أن تقع في شباكها.. فلا تستطيع أن تحصل على الحقيقة بإمساكها ولكن بأن تقوم هي بإمساكك"..!

لا، لم يكن هذا هو قول (سورين) الذي أردتُ أن أختم به الكتاب، كان قولًا آخر فيه شيء عن الأطفال أو شيء من هذا القبيل..! لا أذكره الصراحة الآن..

على كل حال، هناك ما هو أجمل من كلام (سورين)، مثلًا قال مرة (حاتم الأصمّ): "لا تنظروا إلى (من) قال، ولكن انظروا إلى (ما) قال".. يعني دعك من صاحب الكلمات واهتم بكلامه هو.. هذا يذكّرني بقول لقمان الحكيم الذي سُئِلَ: أي الناس أعلم..؟ قال: "من ازداد من علم الناس إلى علمه".. وهو يشبه أيضًا قول الأصمعي حين سُئِلَ: بم نلتَ ما نلتَ..؟ قال: "بكثرة سؤالي وتلقّفي الحكمة الشرود"..!

أفكر أيضًا أن كل الناس يحفظون المثل الصيني "لا تعطني سمكة، ولكن علّمني كيف أصطادها"، غير أن قليلًا من الناس يفطن إلى أن قائل هذا المثل لا بد أنه قد نام جائعًا إذن عدة ليالٍ حتى تعلّم الصيد..! أظن أنه كان سيكون من الحكمة أن يأخذ منه السمكة ويتعلم أيضًا كيف يصطادها..!

وبغض النظر عن الأمثال الصينية والأسماك، فدعونا نتأمل في هذه الآيات الستة عشرة من سورة الإسراء: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۞ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۞ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۞ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ۞ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي**

الْعَرْشِ سَبِيلًا ۞ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۞ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۞ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۞ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۞ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۞ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء ٣٦-٥١)..

هذه الآيات المعدودة قد استدللت في مواطن مختلفة من هذا الكتاب -استدلالًا عقليًا وليس نقليًا فقط- بآية منها على الاستحالة المنطقيّة لتتبع النطاقات الخارجة عن حدود العلم البشري.. وبآية منها على أن تفاصيل القرآن وهداياته قد تكون سببًا ومدعاة للكفر والنفور عند البعض.. وبآية منها على أن كمال علو الإله يقتضي وحدانيته إذ لو تعددت الآلهة لدارت في عبودية الإله الأعظم.. وبآية منها على أن كل مخلوقات الله ﷻ تقوم بوظيفة العبودية إذ أنها الشيء الوحيد المتسق مع طبيعة علاقة الخالق بالمخلوق.. وبآية منها على أنه من أدلة البعث العقلية أن الذي خلق كل شيء من العدم قادر على إعادته من باب أولى..!

أفكر أن كل ثرثرتي في هذا الكتاب لم يكن لها كبير داعٍ إلا لمن لم يتذوق بعد حلاوة كتاب الله ﷻ، بينما في الواقع يمكن لأي أحد أن يحصل على خمسة من المعاني الكبار -التي ظللت أدندن عليها طوال الصفحات الأربعمئة- في أثناء قراءته لست عشرة آية من سورة الإسراء في معرض تلاوته لورده اليومي وهو مُتّكئ على مسند ظهر قطني في زاوية

مسجد بأسفل بيته في أحد الأحياء المزدحمة بالسكان..!

الفرق وقتها أن الآيات قد أوصلت لك هذه المعاني وأكثر منها بكثير بشكل مختلط مندمج مختصر بديع.. فالقرآن يدغدغ ببساطة كل ممانعاتك الفكرية حين تتلوه، فأنت تشعر بحلاوة القرب قبل أن تعرف بعقلك ما هو سبب هذا القرب، وتشعر بلذة المناجاة من قبل أن يصل تفكيرك المادي إلى حقيقة هذه المناجاة..! القرآن يتفهم حينها أنك لست مجرد آلة حاسوبية، بل يصل إليك بالعقل والقلب معًا.. وحين انتهاء قراءتك تجد نفسك وقد شُفِيتَ من قبل حتى أن تعرف ماذا كان مرضك حينها..!

هذا الكتاب الذي بين يديك لم يكن الغرض منه أن تحصل على الإجابة النموذجية، أو الحل النهائي، أو وضع حدود للتساؤلات.. بل يمكنك أن تنظر له إلى أنه مثال طويل نوعًا، مجرد مثال على الإجابة القرآنية عن أسئلة حديثة عويصة ما كنا نظن أن توجد إجاباتها في القرآن القديم..

لا يعني ذلك ألا تستفيد من أي شيء قرأته هنا، أو أن هناك حرجًا في أن تبدأ من حيث انتهى الآخرون.. ولكن فقط لا تجعل السمكة التي أخذتها في يديك تمنعك من أن تتعلم الصيد..!

ولكني تذكرتُ الآن قول (سورين كيركجور) الذي أردتُ أن أنهي به الكتاب: "كثيرٌ من الناس يصلون إلى استنتاجاتهم عن الحياة تمامًا كأطفال المدارس، فهم يخدعون معلميهم بنقلهم الإجابة من الكتب بدلًا من أن يصلوا لها بأنفسهم"..

وتذكرتُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر ١٧)..

أظن أن لديك مصحفًا.. أليس كذلك..؟!

المراجع

لم أنقل في هذا الكتاب عن أحد شيئًا إلا وذكرت ذلك في أثناء متن الكلام نفسه.. وأما المعلومات الواردة التي اعتمدتُ عليها والتي قمت بإعادة صياغتها، فلم أحب أن أشير إلى مصدرها هناك حتى لا يمتلئ الكتاب بالحواشي فيتحوّل من محادثة وديّة بيني وبينك إلى كتاب أكاديمي يصيبك بالرعب.. لذلك أضع هنا في النهاية أهم مئة مصدر من المراجع التي رجعت إليها أثناء كتابة الكتاب، أو التي ساهمت في تكوين أفكار هذا الكتاب في ذهني..

١. القرآن الكريم.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

٣. الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

٤. تفسير القرآن العظيم – أبو الفداء إسماعيل بن كثير.

٥. زاد المسير في علم التفسير – أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.

٦. المختصر في التفسير – مركز تفسير للدراسات القرآنية.

٧. خواطري حول القرآن الكريم – محمد متولي الشعراوي.

٨. الجامع المسند الصحيح المختصر – محمد بن إسماعيل البخاري.

٩. المسند الصحيح – مسلم بن الحجاج.

١٠. سلسلة الأحاديث الصحيحة – محمد ناصر الدين الألباني.

١١. معارج القبول في شرح سلم الوصول – حافظ الحكمي.

١٢. التوحيد الذي هو حق الله على العبيد – محمد بن عبد الوهاب.

١٣. فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد – عبد الرحمن آل الشيخ.

١٤. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة – عبد الرحمن المحمود.

١٥. إشكالية العذر بالجهل في البحث العقدي – سلطان العميري.
١٦. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى – محمد الحمود النجدي.
١٧. بيان موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول – أبو العباس بن تيمية.
١٨. الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان – أبو العباس بن تيمية.
١٩. أعلام السنة المنشورة في اعتقاد الطائفة المنصورة – حافظ الحكمي.
٢٠. الكلمة المقدسة – محمد بن إسماعيل المقدم.
٢١. فطرية الدين وبيان معنى أن كل الناس يولدون مسلمين – محمد إسماعيل المقدم.
٢٢. مقدمة في أصول التفسير – أبو العباس بن تيمية.
٢٣. قواعد التفسير جمعًا ودراسة – خالد السبت.
٢٤. الطريق إلى القرآن – إبراهيم السكران.
٢٥. المشوّق إلى القراءة وطلب العلم – علي بن عمران.
٢٦. لا أعلم هويتي، حوار بين متشكك ومتيقن – حسام الدين حامد.
٢٧. النبأ العظيم – محمد عبد الله دراز.
٢٨. موسوعة الرد على الملحدين العرب – هيثم طلعت.
٢٩. ميليشيا الإلحاد – عبد الله العجيري.
٣٠. الإلحاد للمبتدئين – هشام عزمي.
٣١. التطور نظرية علمية أم أيديولوجيا – عرفان يلماز.
٣٢. حتى الملائكة تسأل – جيفري لانج.
٣٣. الجواب عن سؤال الشر – اللجنة العلمية بمنتدى التوحيد.
٣٤. رحلتي من الشك إلى الإيمان – مصطفى محمود.
٣٥. حوار مع صديقي الملحد – مصطفى محمود.
٣٦. الله – مصطفى محمود.

٣٧. هناك إله — أنتوني فلو.
٣٨. العودة إلى الإيمان — هيثم طلعت.
٣٩. رحلة عقل — عمرو شريف.
٤٠. آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين — أبو الفداء بن مسعود.
٤١. تصميم الحياة — ويليام ديمبسكي وجوناثان ويلز.
٤٢. سحر الواقع — ريتشارد دوكنز.
٤٣. التصميم العظيم — ستيفن هوكنج وليونارد مولدينوو.
٤٤. العلم يدعو إلى الإيمان —كريسي موريسون.
٤٥. الفيزياء ووجود الخالق — جعفر شيخ إدريس.
٤٦. الجائزة الكونية الكبرى — بول ديفز.
٤٧. ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان — عبد الله الشهري.
٤٨. الإيمان المنطقي — ويليام لين كريج.
٤٩. الغيب والعقل — إلياس بلكا.
٥٠. أصل الأنواع — تشارلز داروين.
٥١. منذ زمن داروين — ستيفن جولد.
٥٢. داروين — مايكل روس.
٥٣. داروين مترددًا — ديفيد كوامن.
٥٤. الداروينية المتأسلمة — عمرو عبد العزيز.
٥٥. التاريخ الإسلامي الوجيز — محمد سهيل طقّوش.
٥٦. الرحيق المختوم — صفي الرحمن المباركفوري.
٥٧. المحكمات — الشريف حاتم العوني.
٥٨. العلمانية، نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة — سفر الحوالي.

٥٩. تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم.

٦٠. تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم.

٦١. حي بن يقظان – ابن طفيل.

٦٢. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال – ابن رشد.

٦٣. المراهق، كيف نفهمه؟ وكيف نوجهه؟ – عبد الكريم بكار.

٦٤. الديانات في أفريقيا السوداء – هوبير ديشان.

٦٥. النهاية، الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون – فرانك كلوز.

٦٦. فيزياء المستحيل – ميشيو كاكو.

٦٧. كون آينشتاين – ميشيو كاكو.

٦٨. موسوعة غرائب المعتقدات والعادات – محمد كامل عبد الصمد.

٦٩. ماذا لو – راندال مونرو.

٧٠. الأرض المسطحة – إدوين إبوت.

٧١. الثورة العلميّة – لورنس برينسيبيه.

٧٢. الثورة البيولوجية – أحمد مستجير مصطفى.

٧٣. علم اسمه الضحك – أحمد مستجير مصطفى.

٧٤. ثلاث قصص علمية – أحمد شوقي.

٧٥. روائع المقال – هوستون بيترسون.

٧٦. ديوان إيليا أبو ماضي.

٧٧. معرفة الإنسان من نظرة – فرانك شيلين.

٧٨. مقالة في مبدأ السكان – توماس مالتوس.

٧٩. ١٠١ أسطورة توراتيّة – جاري جرينبرج.

٨٠. النبوءات – نوستراداموس.

٨١. المشاهير – ديل كارنيجي.
٨٢. المئة، ترتيب أكثر الشخصيات تأثيرًا في التاريخ – مايكل هارت.
٨٣. المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية في القاهرة.
٨٤. المورد – منير البعلبكي.
٨٥. حياة السلف بين القول والعمل – أحمد بن ناصر الطيار.
٨٦. من طرائف الحكمة – محمد الصالح العميل.
٨٧. البيان والتبيين – أبو عثمان الجاحظ الكناني.
٨٨. الأطفال وبيت الحكايات – يعقوب جريم وفيلهلم جريم.
٨٩. عقل بلا جسد – أحمد خالد توفيق.
٩٠. الأيام – طه حسين.
٩١. الألعاب الفائقة تستمر طوال الصيف – براين ألديس.
٩٢. رجل المائتي عام – إسحاق أزيموف.
٩٣. وادي العميان – هربرت جورج ويلز.
٩٤. موعد مع الحياة – خالد صالح المنيف.
٩٥. الأوديسّة – هوميروس.
٩٦. ١٩٨٤ – جورج أورويل.
٩٧. حول العالم في ٢٠٠ يوم – أنيس منصور.
٩٨. قصاصات قابلة للحرق – أحمد خالد توفيق.
٩٩. الطب الإكلينكي –كومار وكلارك.
١٠٠. البصريات الإكلينيكيّة – أندرو إلكينجتون.

الفهرس

مجرد مقدمة ٩
تفاصيل وأسرار ١٧

حين يتكلم الإله

.... ٢٥
١- أفضلها هكذا ٢٩
٢- المادية والتجريدية ٣٠
٣- فقط، انظر بجانبك ٣٢
٤- الرمزية ٣٣
٥- كما يحب أن يقولها ٣٦
٦- حديث من المتعال ٣٧
٧- الواقعيّة الحكيمة ٣٩
٨- البلاغة التي ننتظرها ٤٠
٩- قشعريرة متقطعة ٤٢

الموضوع	الصفحة
١٠- الثنائيّات الداعمة	٤٥
١١- إنه يقرؤني	٤٧
١٢- الأجزاء الصغيرة	٤٨

السؤال الأحمق

(عن سؤال: هل يوجد إله)

الموضوع	الصفحة
	٥٤
١- الامتلاك المتفرد	٥٩
٢- الهشاشة	٦٢
٣- العناية	٦٦
٤- الوجود كما اعتدناه	٧٥
٥- الجمال	٧٩
٦- روعة الاتزان	٨٠
٧- إحكام فائق	٨٣
٨- اختلاف	٨٨
٩- طاعة الوجود	٩٤
١٠- الاهتداء	٩٩
١١- المشاعر	١٠٣
١٢- الإنسان المرفّه	١٠٥
١٣- الفناء	١٠٧

الموضوع	الصفحة

١٤- القيم التي بداخلك ١١٠
١٥- الإنسان الذي يتعلم ١١٢
١٦- البدائل المستحيلة ١١٦

السؤال الأشد حمقًا

(عن سؤال: من خلق الله، وعن صفات الله، وأشياء شبيهة)

.... ١٢٣
١- الصمديّة ١٢٧
٢- مسكنة الحواس ١٢٩
٣- عليك أن تيأس ١٣١
٤- الإنسان المفعول به ١٣٣
٥- الظاهر والباطن ١٣٧

الذين رسبوا في اختبار الخط

(عن شبهات الربوبيين، والغاية من الخلق)

.... ١٣٩
١- المحطة الأولى: لا يوجد إهمال ١٤١
٢- المحطة الثانية: ولا يوجد لهو ١٤٤
٣- المحطة الثالثة: لا توجد عبثيّة كذلك ١٤٦
٤- المحطة الرابعة: وهذه الغاية ليست فاسدة ١٤٩
٥- المحطة الخامسة: الإعلام بهذه الغاية ١٥١

الموضوع	الصفحة

الحاسة الأولى

(عن سؤال: لماذا يكون الإيمان بالغيب)

.... ١٥٣

١- حتميّة ١٥٦

٢- واختيار من الله ١٥٧

٣- واستخراج ١٦٠

٤- مطالب من فاقدي الأهلية ١٦٤

آلهة خرافيّة

(عن وحدانيّة الله عز وجل)

.... ١٦٩

١- نمط الخليقة الموحّد ١٧٢

٢- الكمال لا يتعدد ١٧٥

٣- متعة الاتجاه الواحد ١٨٠

التشخيص: مجرد غرور

(عن سؤال: لماذا خلقنا وهو لا يحتاجنا)

.... ١٨٥

١- عن البلاء ١٨٧

٢- عن العبادة ١٩٠

٣- عن الغرور ١٩٢

الموضوع	الصفحة

مُغمِضُو الجفون في القطار السريع

(عن البعث واليوم الآخر)

.... ١٩٧

١- ما هو أهون ٢٠٠

٢- أنت تراه في الدنيا ٢٠٢

٣- حين يكتمل العدل ٢٠٥

٤- خيارات غير متكافئة ٢١٠

النعمة التي يُساء فهمها

(عن أسئلة القدر)

.... ٢١٥

١- حتميّة الإرادة الإلهية ٢٢١

٢- عن إرادة الإنسان ٢٢٤

٣- على مواقع القدر ٢٢٦

٤- السرّ ٢٢٩

والشرّ ليس إليه

(عن سؤال وجود الشرور والآلام في الدنيا)

.... ٢٣١

١- عن الدنيا التي لا تستحق ٢٣٤

٢- عن النعم التي هي أكثر ٢٤٠

الموضوع	الصفحة

٣- عن الشر الذي هو ليس كذلك ٢٤٦

٤- عن الحكم التي قد تخفى ٢٥٠

٥- عن ضريبة الحرية البشرية ٢٥٦

٦- عن لغز إدراكنا لمعنى الشر ٢٦١

٧- عن الشر الذي هو أهم مما يبدو ٢٦٥

الطريقة

(عن النبوّات والوحي والرسالة)

.... ٢٧٣

١- أمة واحدة ٢٧٧

٢- هم ٢٨١

٣- بشريّون ٢٨٦

٤- الأدلة ٢٨٩

٥- التعامل الإلهي ٢٩٣

المُخدّر الأنيق

(عن نتائج العلم التجريبي)

.... ٢٩٩

١- زاوية الرؤية ٣٠٢

٢- خطايا التعامل مع العلم ٣٠٧

٣- عن فاعلية الأسباب ٣١٥

الموضوع	الصفحة

٤- خارج النطاق ٣٢٠

العدل الإلهي

(عن قيام الحجة ووجود العذاب في الآخرة)

.... ٣٣١
١- الأربعة ٣٣٣
٢- الذهول ٣٣٥
٣- الرعب ٣٤٠
٤- الاعتراف ٣٤٥

أخطر أنواع الطمأنينة

(عن الأديان)

.... ٣٥١
١- أكسل أسس الاختيار ٣٥٥
٢- صراع الحق والهوى ٣٦٠
٣- المدرسة الإبراهيمية ٣٦٣
٤- العناكب ٣٦٧

مجرد خاتمة ٣٧٢
المراجع ٣٧٦
الفهرس ٣٩٠



لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

for Studying Atheism and Contemporary Issues of Faith